أحمد شرف

براءة سياسية

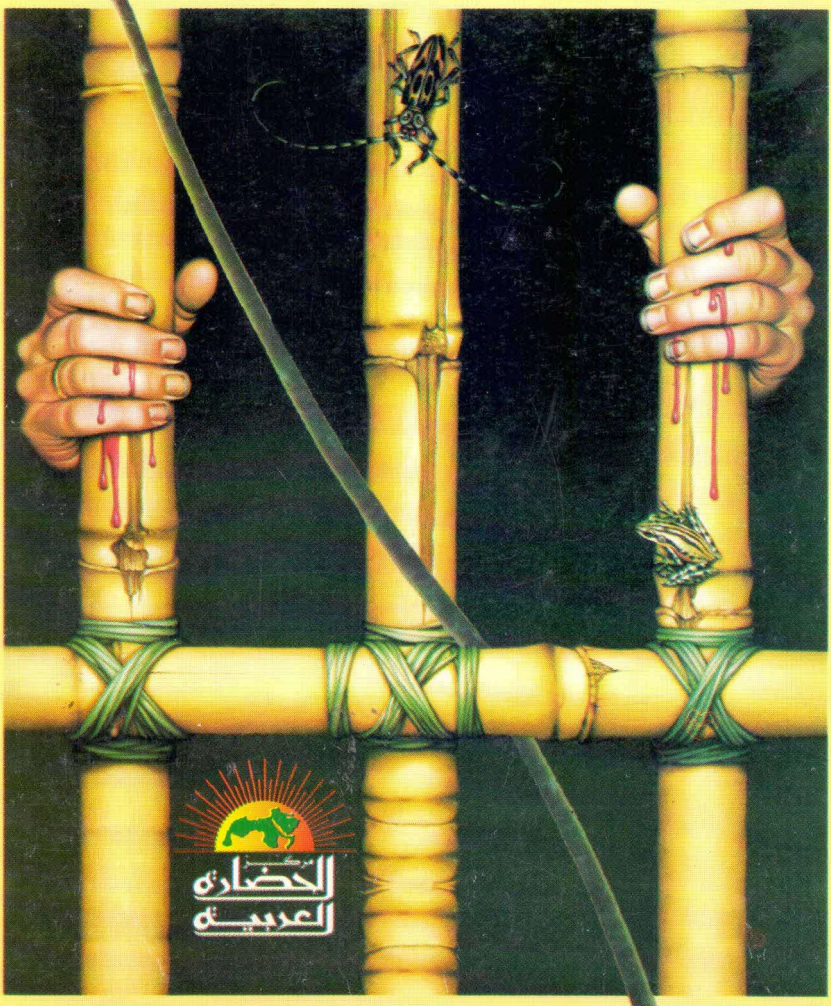

لقد تخبطت كثيراً، حتى استقر رأيى، على عنوان هذا الكتاب «براءة سياسية». ذلك أن السياسة الشائعة فى زماننا هذا، لا تعرف البراءة، فهى خليط من المؤامرة، وحجب المعلومات، والدسائس، وسيادة الأكاذيب والادعاءات والترهات بكل أنواعها، وخدمتها للخاص دون العام، بل فى مواجهته غالبا. ورغم ذلك فقد دخلت السياسة من بوابة المدينة الفاضلة، أسير وفق حلم برئ للبحث عن الأفضل.

وبين هذا المدخل، وهذا الواقع، اللذين شكلا شقى الرحى، انسحق كيانى، بل كيان جيل كامل، شارك فى هذا المدخل، وأسفرت عملية الطحن هذه عن عدة نتائج مهمة :

١ - فرار من تمسك بالمدخل، ورفض تفهم الواقع، إلى الدعة والاستسلام.

٢ - فرار من تخلى عن المدخل، وتشبث بأهداب هذا الواقع، إلى عالم الشهرة السياسية، بل كثيراً من رجال هذا الفريق عرف مذاق كرسى الوزارة، والإدارة السياسية العليا.

٣ - قلة تمسكت بالحلم البرئ، وراحت تكشف هذا الواقع بأسراره وتزيح أستاره، وجعلت من قضيتها إثبات أن هذا واقع عابر، لا يمتد طول الزمان، وأن الحلم بالواقع الأفضل يستحق النضال.

وقصة هذا الكتاب تجسد مدخل جيلنا للسياسة كواقع وكفكر، ولأن السياسة هى مهنتى الوحيدة، التى لا أعرف غيرها، بل هى أيضا، هوايتى الوحيدة التى لاهواية لى بعدها، وجدت نفسى ضمن هذه الفئة الثالثة، التى نتجت عن عملية الطحن التى مورست على جيلنا.

مركز الحضارة العربية

Art Smart Graphics

براءة سياسية

مركز
الحضارة
العربية

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .

يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .

- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

أحمد عبد الحميد شرف

براءة سياسية

منظمة الشباب الاشتراكى
الجامعة والسياسة فى الستينيات
أحداث فبراير الطلابية ١٩٦٨

مركز
الحضارة
العربية

الكتاب : بــــراءة سيــاســــية

الكاتب : أحمــد عبدالحميــد شرف

الناشر : مركـز الحضـــارة العــربيـــة

الطبعة الأولى
٢٠٠٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٦٣٣٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-244-X

تصميم الغلاف : محمـــــود الهنــدى
جرافيــــــك : أرت ســـــــمارت

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز

الإهـداء:

١- إلى روح أبى وأخى الأكبر محمد، اللذين نقلانى إلى قلب الاهتمام بالعام، وشكلا لى فى طفولتى وصباى: المعلم والمثل والقدوة فى حب الخدمة العامة، وارتياد آفاقها الواسعة والمضنية.

٢- إلى روح وذكرى أستاذىَّ: زكى مراد ابراهيم، ومحمد خليل قاسم، اللذين مزجا فى فكرى بين الوطنى والطبقى، وجسدا لى ذلك الخط الرفيع الفاصل بين ديمقراطية النخبة، وديمقراطية الجماهير، ونسجا أمامى درس السياسة الأول: إن التغيير صناعة الجماهير، وأقصى ما تقدمه الطليعة هو ترشيد الحركة، وأظهرا لى فساد فكرة النخبة.

٣- الى الفتية والشباب، ممن يتوجهون للسير على درب السياسة والهموم العامة للشعب والوطن، أقدم هذه الشهادة عن تجربتى الشخصية فى الربع الثالث من القرن العشرين، بروح الشباب، وصياغة شيخ مازالت السياسة حرفته الوحيدة حتى الآن.

مقدمة عامة
الـــذات والموضـــوع

لقد تخبطت كثيرا، حتى استقر رأيي، على عنوان هذا الكتاب «براءة سياسية». ذلك أن السياسة الشائعة في زماننا هذا، لاتعرف البراءة، فهي خليط من المؤامرة، وحجب المعلومات، والدسائس، وسيادة الأكاذيب والادعاءات والترهات بكل أنواعها، وخدمتها للخاص دون العام، بل في مواجهته غالبا. ورغم ذلك فقد دخلت السياسة من بوابة المدينة الفاضلة، أسير وفق حلم بريء للبحث عن الأفضل.

وبين هذا المدخل، وهذا الواقع، اللذين شكلا شقي الرحى، انسحق كياني، بل كيان جيل كامل، شارك في هذا المدخل، وأسفرت عملية الطحن هذه عن عدة نتائج مهمة:-

١- فرار من تمسك بالمدخل، ورفض تفهم الواقع، الى الدعة والاستسلام، وجعله من قولة الشيخ عبدالوهاب الشعراني، حكمته الخالدة عندما دعا ربه وقال: «اللهم ارزقني ايمانا كايمان العوام». فابتعد عن الساحة السياسية، وآثر السلامة، وراح يتخلى عن حياة السياسة، ويعيش حياة جماهير الشعب البسيطة.

٢- فرار من تخلى عن المدخل، وتشبث بأهداب هذا الواقع، الى عالم الشهرة السياسية، بل كثيرا من رجال هذا الفريق عرف مذاق كرسي الوزارة، والإدارة السياسية العليا، بعضهم ترفق بنفسه، وبماضيه، وراح يبرر أن طريق الخدمة العامة يفرض عليه مسايرة الأجواء السائدة، والانتماء إلى الحزب المسيطر، لإنجاز مصالح أغلبية الناس،

التى لم تتحقق أبدا على أيديهم كليا أو جزئيا، والبعض الآخر لم يكلف نفسه عناء سوق المبررات، وأكد بفكره ومسلكه أن السياسة واقع، ولامجال للحلم الجميل، أو للبراءة فيها، من مكان.

٣- قلة تمسكت بالحلم البرىء، وراحت تكشف هذا الواقع بأسراره، وتزيح أستاره، وجعلت من قضيتها إثبات أن هذا واقع عابر، لايمتد طول الزمان، فملامحه وخصائصه ملونة، بصبغة معينة محددة، وأن الحلم بالواقع الأفضل يستحق النضال، والاستمرار فى الكفاح حتى يلوح عليه نور الصباح، بخاصة أن الواقع التاريخى كان حافلا دائما بالصراع بين البراءة والمكيدة فى السياسة.

وقصة هذا الكتاب تجسد مدخل جيلنا للسياسة كواقع وكفكر، ذلك المدخل الذى تشكل وفق نسق متكامل من قيم الوطنية والعدالة الاجتماعية والتحرر والاستقلال، ومن تفهم الأبعاد القومية العربية لمصرنا، والأبعاد الاقليمية: أفريقيا وإسلاميا، ومتوسطيا، وشرق أوسطيا لها، والأبعاد الدولية والتى تعترف بالتعددية الدولية جغرافيا، وقوميا، وأيديولوجيا، والتى تطابقت مع وحدة الحركة لدول عدم الانحياز، وحركة التحرر الوطنى، وحركة النضال الاشتراكى، وحركة مقاومة الاستعمار والإمبريالية.

ولأننى حيوان سياسى، بالمعنى الكامل للكلمة، السياسة هى مهنتى الوحيدة، التى لاأعرف غيرها، بل هى أيضا، هوايتى الوحيدة التى لاهواية لى بعدها، وجدت نفسى ضمن هذه الفئة الثالثة، التى نتجت عن عملية الطحن التى مورست على جيلنا. وحرصا على تثبيت هذه الفئة، ورغبة فى محاولة جعل مثلها العامة، القاعدة الأساسية لتشكيل التيار العام فى أجيال تالية لجيلنا، قررت أن أقدم شهادتى التاريخية،

والتى تدور بين الحلم البرىء والجميل، والواقع المثقل بالأقنعة، إلتحاما بأجيال ماضية ومنقضية، كما وقد تصادف أن عقد الستينيات وأوائل السبعينيات هى محور الحركة التى مارسها جيلنا بين الحلم البرىء، والواقع المقنع، وفيها كان نضالنا للتمسك بحلمنا، ذلك أن هذه الفترة شهدت أولى خطواتنا نحو مرحلة الشباب. وقد شهدت هذه الفترة أيضا أعلى ذرى الانتصار لمسيرة الثورة الوطنية التحررية فى مصرنا، كما شهدت أسفل وهاد سقطتها وهزائمها، وبين ذرى الانتصار ووهاد الهزائم والانكسار، تألق جهدنا فى المشاركة السياسية، واختطت مسيرتنا طرقات للحركة السياسية المستقلة، بعيداً عن هيمنة المسيطرين على السلطة، وعلى أحوال المجتمع والوطن بل وعلى تيار الوطنية العام، لنستأنف مسيرته المستقلة ورغم العثرات الصغيرة والكبيرة، ورغم القهر والفشل والهزائم الكثيرة، مازال فينا أمل وهاج، ومازلنا نمتلك مقدرة لبذل جهود دءوبة لنجعل من الواقع سداة، ومن الحلم لحمة، ولننسج منهما وشاحا يزين صدر مصر، وثوبا يستر جسد شعبنا المكافح أبداً، والقادر دوما على تصحيح واقعه، والمالك على مدى القرون حركته المستقلة للتغيير، تلك الحركة التى تجسدت فى التاريخ الحديث ببروز تيار الوطنية التحررية العام.

وعلى المستوى الشخصى، فقد اخترت طريقة: تقديم الشهادة التاريخية لإخراج هذا الكتاب، بدلا من البحث التوثيقى، ورغم استنادى إلى كثير من الأوراق الشخصية، فإن صورة الذكريات والمدخل الشخصى هى التى ستحكم كتابتى لهذه الصفحات التالية، وعليه فأنا لا أدعى بكتابتى لهذا الكتاب، إننى أقدم تأريخا، أو بحثا تاريخيا موثقا، ولكن أقدم فقط، شهادة تاريخية، قد تفيد المؤرخين، إذا تصدوا

لتوثيق هذه الفترة التى عايشت فيها أحداثا مهمة، وقد تفيد فى فتح رؤية جديدة من خلالها يمكن اكتشاف مساحات جديدة فى تاريخ مصر المعاصر ولكن أهم ما أريده من ذلك، أن تفيد هذه الصفحات الشباب الذين يدخلون طريق السياسة الوعر. وأن تساعدهم على إزالة الخلط بين السياسة وأقنعتها، وعلى التمسك بالبراءة فى السياسة، ذلك أن السياسة البريئة هى السياسة التى تعبر عن جوهرها، كفن إدارة الصراعات لتحقيق الصالح العام للأغلبية، بينما السياسة المُقَنَّعة هى تلك السياسة التى تناقض جوهرها، وتعبر فقط عن مصالح القلة أو الفرد، وتاريخ مصر غنى بالدروس فى هذا المجال.

وتؤكد تجربتى الشخصية، أنه رغم وضوح السياسة بالنسبة لى، فإن الوسط العام المحيط بنا جميعًا، يجعل من السياسة أمرًا شديد الغموض، بل ومتعدد الأقنعة، فإذا قلت للناس بأن مهنتى هى السياسة، يبتسم البعض، ويسألون: ماهو الموقع القيادى، الذى تشغله فى السلطة العامة؟ وعندما يسمعون اجابتى، بأننى لاأشغل أى موقع، يشفقون علىَّ، بل وكثيرا ما يشفقون على أنفسهم من استمرار معرفتهم لى، فمن كانت علاقته عارضة بى، أصابه نوع من الهلع يدفعه للفرار وقطع علاقته بى فورًا ومن كانت علاقته ضرورية ومستمرة معى، يرجونى بألا نتكلم فى السياسة، لأن السياسة لاتجلب إلا المخاطر التى لاقبل لأغلبية الناس بها!

والبعض الآخر ينكر علىَّ ذكر السياسة على أنها مهنة أو حرفة، ويقولون بأن السياسة ليست مهنة أو حرفة، فإذا قلت لهم، ولكنى أشتغل بالبحث فى السياسة، يجيبون نعم: أنت باحث أو كاتب، ولكن لاتقل أنت سياسى - مادامت لم تشغل منصبا فى السلطة العليا، فإذا قلت لهم.. ولكنى أمارس النشاط السياسى من موقع المعارضة،

يقولون: وهى دى تبقى سياسة؟

فإذا أوضحت لهم، أن السياسة: هى فن وعلم ونشاط ممارسة السلطة العامة، أو الضغط عليها من مواقع المعارضة، أو العمل للوصول اليها من مواقع التضاد لتغيير توجهاتها، لتحقيق مصالح أخرى، أشفقوا على، وألحوا فى طلب الصمت.

ذلك أن الأقنعة كثيرة فى مجال فهم السياسة:-

[١] أول هذه الأقنعة يتعلق بتعريف السياسة كعلم، وكفن ممارسة السلطة العامة فى المجتمع، فالمصالح الاجتماعية قد تختلف أحيانا، بل تصل الى حد التصادم والتضاد، وقد تتوازن فى أحيان ثانية أو تتوافق، والسلطة العامة من المفترض أن تعبر عن هذه المصالح الاجتماعية العامة.

- ففى حالة تعبيرها عن التوازن فى المصالح، قد تستقر وتستمر السلطة العامة ويكون الدور السياسى داعماً لهذا الاستقرار وهذا الاستمرار سواء بطريق التأييد الشكلى أو البيروقراطى، أو سواء بطريق التأييد النقدى والنضالى.
- وفى حالة عدم تعبير السلطة العامة عن المصالح الاجتماعية العامة، نجد أنفسنا أمام أمرين:-

الأول: تعبيرها عن مصالح الأغلبية، وهنا يكون الدور السياسى لممثلى الأغلبية داعماً ومثبتاً للسلطة العامة.

الثانى: تعبيرها عن مصالح الأقلية، وهنا يكون الدور السياسى لممثلى الأقلية داعماً ومثبتاً للسلطة العامة.

وفى كلا الأمرين تتصادم وتضاد السياسات، المعبرة عن الأغلبية والأقلية حسب تعبير المصالح والسلطة التى تمثلها.

وعليه فإن السياسة تعرف مراحل: الاستقرار - الإصلاح والتعديل

- الانقلاب والثورة. ولكل مرحلة رجالها وسياساتها، أى ساستها وسياستها.

[٢] ثانى هذه الأقنعة يتعلق بالسياسة كمهنة ممارسة السلطة العامة، وهى أقدم مهنة فى التاريخ، وأنها مهنة شديدة الوضوح والتبلور، تدور حول دور السلطة العامة فى تحقيق المصالح العامة للمجتمع، غير أن الأقنعة والتشويش يتزاحم عليها على صعيدين :-

● الأول : يتمثل فى ذلك القناع الذى ينكر على السياسة كونها مهنةَ، أو حرفةً متخصصةً، ومنفصلةً بذاتها عن مهن أخرى، فمعظم من يمارس السياسة من موقع السلطة لايعترف بكونه سياسيًا، ويفخر بانتسابه المهنى الآخر لو كان ضابطًا، أو أستاذا جامعيا، أو مهندسًا، أو محاسبًا، أو مستشارًا.... الخ وليس مصادفة أن يحفل واقعنا الراهن بوزراء لم يكن لهم صلة فى يوم من الأيام بالسياسة، فهم مجرد خبراء أنفقوا كل عمرهم قبل الوزارة، لبناء مجدهم الشخصى، أو العلمى، أو العملى، حقا قد ينفع العلم والعمل الذى أدوه فى المصلحة العامة، غير أن المصالح العامة والمجردة، لم تكن شاغلهم فى يوم من الأيام، وليس مصادفة أنه فى سيادة وجود هذا النمط تكون أعظم نجاحات هؤلاء الخبراء فى مواقع السياسة، بناء الثروات الشخصية، ويكون المنصب السياسى مجرد محطة لجمع أكبر منافع شخصية، وتكون المصلحة العامة هى الضحية دائما فى مثل هذه الحالات، وتضيع عمليات الربط العامة بين المصلحة الاقتصادية والأمنية والثقافية والتعليمية والتموينية والعسكرية.... الخ للوطن، ونكون أمام من يقبعون فى مراكز سياسية، وهم ليسوا بساسة.

● الثانى : الخلط بين السياسة والموضوعات الاجتماعية الأخرى،

وفى هذا الصدد، يعتبر أكبر خلط هو ذلك الخلط الذى نتج عن ربط الدين بالسياسة، لتكتسب منه مسوحًا يسمح للسياسة بأن تقوم بتوظيف الدين لمساندة المقدس لغير المقدس أى المتغير، وعلى الرغم من أن المصريين الأوائل هم أول من تصدوا لعملية الفصل بين الدين والسياسة ورفض توظيف الدين لخدمة السياسة وارتبطت هذه العملية بكل مراحل مجد الدول الفرعونية القوية، سواء فى عهد الدولة القديمة، أو الدولة الوسطى، أو الدولة الحديثة، فإن الفكر السياسى المصرى القديم وجد من تخصص فى تشويهه، وراح يسحب ملامح فترات الانحطاط السياسى والاجتماعى على كل التاريخ المصرى، ويدعى زوراً أن السياسة ارتبطت بالدين فى التراث المصرى، ويتناسى آثار الثورات الاجتماعية والسياسية الكبرى، والتى استمرت إحداها مايقرب من أربعة قرون فى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد، والتى كان من آثارها جعل لقب الفرعون كابن للإله، مجرد لقب كلامى أو لفظى، وحدث مايشبه تحول الفرعون من الانتماء الإلهى المطلق، إلى الانتماء اللفظى فقط، على ذات الوتيرة التى تحول بها الحكم المطلق لملوك القرون الوسطى فى أوربا، مع بداية عهد النهضة إلى ملوك تملك، ولاتحكم، أى الانتقال من أسلوب الملكية المطلقة إلى الملكية الدستورية أو المقيدة بالرغم من كل هذا، فيرجع الفضل لميكافيللى فى علوم السياسة الحديثة، إلى خلقه هندسة الفصل بين الدين والسياسة، وكان لكتابه المعنون باسم «الأمير» الفضل الكبير فى هذا المجال، غير أن ميكافيللى نفسه، وكتابه هذا ثبت الأقنعة العديدة فى السياسة، وجعل من السياسة مهنة الخداع والكذب، والحيل والمؤامرات، فلقد رأى الرجل فى تآمرات القصور التى سادت الحضارات العبودية والاقطاعية،

والتى انتشرت فى الشرق والغرب، مجرد أمر عادى فى السياسة، بل رأها هى جوهر السياسة، بينما السياسة منها براء، ذلك أن السياسة فى الحضارات القديمة العبودية أو الاقطاعية والحديثة الرأسمالية أو الاشتراكية، وفى الحضارات التى تطل علينا الآن للمجتمع الانسانى الواحد حيث تتشكل عملية إنتاج الوفرة التى تتقدم المجتمعات البشرية صوبها، شهدت وتشهد صراعاً عنيفاً بين البراءة والمكيدة والمؤامرة فى السياسة، ومن المفروض ألا تشهد من الآن غير السياسة البريئة، التى تتأكد براءتها بالشفافية، وسقوط الأقنعة، والاعتراف بالتعددية، والاختلافات ذات الأبعاد المتعددة والكثيرة، وإقرار التعايش مع هذه الاختلافات للوصول إلى الوحدة عبر الصراع أى للوحدة المتزنة والهادئة، بالأساليب السلمية والديمقراطية.

إن استمرار الكذب والحيل والمؤامرة فى السياسة، هى التى جعلت السياسة تنتكس إلى عمليات الخلط بين الدين والسياسة، وبين الرابطة الطائفية وروابط الدم من جهة، وبين الرابطة المجتمعية الحديثة أى القومية، وروابط مابعد القومية للمجتمعات البشرية المتطورة من الجهة الأخرى، ذلك أن غياب الرؤية الصافية فى تحديد وتوصيف التناقضات والخلافات السياسية الراقية كالصراعات الطبقية والقومية والجيوسياسية أى الجغرافية السياسية، هو الذى يقود الى بروز وطغيان الصراعات الاجتماعية غير الراقية والدنيئة كالصراعات الطائفية والعرقية والدينية، ومن ثم يفتح الباب واسعا لعمليات الخلط الجارية حاليا بين الدين والسياسة، وبين بروز الأصوليات فى تضاد وتناقض مع مقومات العصرية والحداثة، ليس فى مصر أو فى بلاد الشرق وحدها، ولكن فى كل بلاد ودول ومجتمعات المعمورة. وليس هذا الأمر سوى

تجسيد للصراع بين السياسة البريئة والسياسة المقنعة.

[٣] ثالث هذه الأقنعة في السياسة، مايتعلق بجوهر المصالح العامة، التي هي موضوع السلطة العامة، أي موضوع السياسة، فغالبا ماتصور مصالح فئة ضيقة من الناس على أنها المصالح العامة للمجتمع أو الوطن، بل أحيانا ما يشتط الخداع والزيف، لتصور مصلحة فرد واحد، أو قلة من الأفراد، أي فرد وحاشيته، على أنها المصالح العامة للشعب أو المجتمع أو الوطن. وتاريخ السياسة، هو ذلك التاريخ في أغلب المواضع والمواقع للخلط والتشويش. غير أن المصالح العامة لها محددات ترتبط بثلاثة اتجاهات رئيسية :-

أ- فروض الجغرافيا والتاريخ السياسي للمجتمع، أي تلك العوامل التي ترتبط بالموقع وبالموضع، أو بالمكان والسكان، وتمايز هذه الفروض التي تخص مجتمع معين عن مجتمع آخر، والتي تُظهر تبلور المصالح العامة بالنسبة للزمان والمكان، وتمايزها عن المصالح الخاصة الفئوية أو الاجتماعية داخل المجتمع، أو تمايز هذه المصالح العامة للمجتمع المعني، عن مجتمع خارجي، أو حتى قريب.

ب- مستوى التطور المجتمعي، ونوع الرابطة المجتمعية التي تلائم هذا التطور، هل هي رابطة الدم أو الجنس في المجتمع القبلي الذي يرحل دوما أو رابطة الإقليم في المجتمع المستقر، والتي تتداخل مع رابطة القوم، أو الرابطة القومية أو رابطة الأمة، أو روابط مابعد الأمة كالروابط الطبقية الحديثة، أو الروابط العالمية... الخ.

ولاشك أن مستوى التطور يحدد الفرز لمدى تطابق المصالح الخاصة مع المصالح العامة، أو المصالح العامة للمجتمع عن مجتمع آخر.

جـ- مستوى تطور عملية الإنتاج السائدة، والتي تتحدد من مستوى

تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، إن مستوى تطور عملية الإنتاج، هو الذى يحدد المستوى الحضارى للمجتمع المعين، وفى هذا الصدد، فلقد شهدت المجتمعات البشرية حتى الآن ثلاث عمليات انتاجية واضحة ومتمايزة:-

● الأولى: عملية الإنتاج الطبيعية: حيث كان الانسان مقتطفا لثمار الطبيعة أو مقلداً لقوى إنتاجها الذاتية، وقد شهدت هذه المرحلة مجتمعات ماقبل الحضارة حيث المجتمعات البدائية والوحشية والبربرية، والتي كانت تقوم على علاقات الدم، وهى كلها مجتمعات راحلة وغير مستقرة.

● الثانية: عملية الإنتاج البسيط والتبادل المحدود: حيث ظهرت الحضارات العبودية والاقطاعية، وظهرت رابطة القوم والإقليم، ووجدت الأشكال الامبراطورية، وانفجرت فيها الصراعات الاجتماعية بين العبيد وملاكهم تارة، وبين الفلاحين والنبلاء والحرفيين تارات أخرى، وعُرفت الثورة الاجتماعية، وظهرت أشكال الدول دنيئة المستوى. وقد شهدت هذه المجتمعات تبلور المصالح الخاصة، بل وتضادها أحيانا للأفراد والطبقات، عن المصالح العامة، ومدى ومستوى التوازن أو التضاد بينها بعضها البعض.

● الثالثة: عملية الإنتاج الكبير والتبادل الواسع: والتى شهدت الحضارات الرأسمالية والاشتراكية، وشهدت تطور الرابطة المجتمعية لرابطة الأمة، وروابط مابعد الأمة كروابط الطبقات الأممية أو الكسموبوليتانية. وفي إطار عملية الإنتاج هذه استمر الانقسام فى مصالح الطبقات، ومصالح المجتمعات، غير أنه ظهرت أشكال للصراع السلمى والتعايش السلمى بين المصالح المختلفة خارجيًا بل وداخليًا، وشهدت السياسة مفاهيم توازن القوى، ومفاهيم توازن المصالح حتى

وإن لم تستند الى أية قوة.

● الرابعة: تتجه التطورات المجتمعية الحديثة لاكتمال نمو وولادة عملية إنتاج الوفرة، أى الانتاج المتجاوز للندرة فى الموارد الطبيعية بحكم قوانين الثورة العلمية التكنولوجية الحالية وحلقاتها المتتابعة والقادمة. وهذه العملية الإنتاجية هى التى ستشهد وحدة المجتمع البشرى، غير أن هناك صراعاً ضارياً الآن يدور بين قوى النمو التلقائى لهذا الهدف عبر قانون الوحدة والصراع، الذى يعترف بالاختلافات، ويعتمد طرق التعايش السلمى والديمقراطى كلها، وبين قوى الهيمنة والعولمة أو الكوكبة والتدويل التى تريد للتطور أن يسير فى اتجاه فرض مصالح قومية، أو فئوية على المصالح المشتركة لكل الأمم ولكل البشرية، بأساليب القهر السياسى والاقتصادى والثقافى.

● إن كل هذه المحددات السابقة ترسم الخطوط الفاصلة بين المصالح الخاصة والمصالح العامة، داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات المتعددة، وهذا موضوع علوم السياسة الحديثة، غير أن هناك من يصر على اختزال الكل فى واحد بالقهر والهيمنة والتسلط، وهذه أخطر أنواع الأقنعة فى السياسة، وأكثر العوامل المضادة للبراءة السياسية.

[٤] رابع هذه الأقنعة فى السياسة هو ما يتعلق بمن هو صاحب السلطة العامة، أى مرجعية السلطة العامة وأسانديها، هل هى الجماهير سواء فى صورتها الجمعية لكل طبقات المجتمع، أو فى صورتها الجمعية فى الطبقات الممثلة للأغلبية المؤتلفة، أو فى صورتها الجمعية لطبقات الأقلية المؤتلفة أو المفردة، أم هى قوى النخبة بمعنى تلك الفئة التى تدعى تمثيلها للأمة أو حتى للطبقات المؤتلفة أو المفردة فى الأمة.

أى هل السلطة للجماهير؟، ومتى وكيف تمارس الجماهير سلطتها؟ أو السلطة للصفوة أو النخبة أو حتى الطليعة، وكيف يكون ذلك، هل

هو تنازل من قبل الجماهير أو تفويض بها، وماهى حدود هذا التفويض، أو أنه تسلط واغتصاب لسلطة الجماهير؟

والواقع يقول: إن الأصل فى المصالح العامة هى الجماهير، وعليه فالسلطة العامة تكون أصلا للجماهير، غير أن فكر النخبة أو الصفوة ينتزع ما للجماهير ويراه ملكية خاصة به. ومازالت هذه معضلة السياسة، معضلة كل النظم السياسية، التى تتجسد حاليا فى الواقع الدولى المعاش.

إن الأقنعة التى تتولد عن هذه المعضلة، هى الأقنعة الأكثر سوادا وقتامة لحجب براءة السياسة، وجعلها سياسة الأمير لميكافيللى.

***

إن هذه الأقنعة المتعددة فى السياسة هى التى تخنق جيلنا، وهى التى تجسد مدى الخلل بين المدخل والواقع، بين الحلم البرىء والواقع المعقد للسياسة فى بلادنا. وفى الصفحات التالية، أضع شهادتى الخاصة التى تعكس تجربتى الخاصة فى السياسة من خلال معايشة الواقع وطول القراءة لأؤكد أن البراءة فى السياسة منهج وليست سذاجةً، أو عدم نضج، وانني فى اليوم الأول لى بعد مرور خمسين عاما من عمرى أصر على ماكنت عليه، أى التمسك بالسياسة كمهنة وحيدة لى، والتمسك بالبراءة فى السياسة كلون وحيد وأساسى يكشف جوهر السياسة، باعتبارها علم وفن إدارة الصراعات والتحالفات لتحقيق المصالح الوطنية العامة، والانسانية الشاملة بأحسن كفاءة ممكنة، وبأعرض مشاركة من أصحابها، أى جماهير الوطن، والبشرية. ذلك كان الحلم وسيظل أبدًا الواقع الذى أسعى إليه، بين رفقة لا تمل التمسك به، حتى يتحقق أو نهلك دونه، اقتداء بقول نبينا الهادى الأمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

القاهرة: ١٤/٢/١٩٩٧

شهادة شبابية عن الستينيات

(١) قبل أن أدخل فى صميم هذا الكتاب خططت له أن يكون كتابا مركبا من ثلاثة كتب أو ثلاثة أقسام: الأول يحتوى على شهادة شاب فى الستينيات، تعتمد على الذكريات: نتابعها قبل وبعد الستينيات ليكون هذا الباب مفصلاً، بل ومنصبًا على أحداث سياسية وقعت فى الستينيات. والثانى: يحتوى على قراءة نماذج بين الحاضر والماضى البعيد جدًا حتى القريب منه، حتى يكون هذا الباب منصبًا على تقصى جذور الثقافة السياسية فى مصر، وملامح هذه الثقافة هل هى منفصلة أو متواصلة؟، هل هى مصمتة أو صراعية؟، هل هى منغلقة أو منفتحة؟، هل هى قومية أو قابلة للتطور نحو العالمية؟، هل هى ثقافة نخبوية أو ثقافة عمومية؟، وماهى حدود الفرز بين هذه الظواهر كلها؟. والثالث: يحتوى على رؤية سياسية شخصية للأوضاع السياسية الراهنة فى مصرنا الآن، وما مدى صدق استمراريتها أو قابليتها للتطور، وكيف تكون الوسائل والأساليب المثبتة لهذه، أو الدافعة لتلك؟.

(٢) غير أننى بمجرد أن بدأت الكتابة يوم الأربعاء ١٢ ابريل ١٩٩٥ حتى واصلت الانكباب على هذه الصياغة، معتمداً على مسودة مطولة كنت أعددتها لتكون مادة لكتاب مستقل هو موضوع القسم الثانى. وحينما أوشكت على قرب نهاية القسم الثانى، أخذت أفكر كيف أفصل القسم الأول الخاص بالذكريات وأجعله كتابًا مستقلاً وأغرانى فى ذلك بعض الظروف التى كانت قد تهيأت لنشر تجارب

الحركة الطلابية، لذلك توقفت عن الكتابة منذ ٢٥ مايو ١٩٩٥، واستمر توقفى الذى انقطع بتهيئة القسم الأول للنشر ككتاب مستقل فى فبراير ١٩٩٧، وفعلا أرسلت لصديق ناشر، هذا القسم وحده، وأعدت صياغة المقدمة السابقة، وانتهيت منها فى ١٤ فبراير ١٩٩٧، ولما تأخر الصديق الناشر، ولم يخرج الكتاب، عدت إلى فكرتى القديمة أن يكون الكتاب واحداً، وله ثلاثة أقسام يمكن تسميتها كتباً فرعية. وقد شجعنى ناشر هذا الكتاب على هذه الفكرة، مما جعلنى أقدم على استكمال القسم الثانى، وأتهيأ لكتابة القسم الثالث، غير أن ظروف كتابة القسم الثانى، رجعت بى لفكرة الفصل، وقد استقر أمرى على ذلك.

٣- لقد أردت بهذه الحكاية أن أجعل القارىء يعيش معى فى مناخ كتابة مايقرأه، حتى تتأكد البراءة السياسية سواء فى مجال الذكريات أو المفاهيم أو الرؤى، وكلى أمل فى أن تكون المادة التى ستقدمون على مطالعتها الآن، هى التى تؤكد لكم ذلك، وليس مجرد ادعاء كاتب هذه السطور بالبراءة السياسية.

مساء الاثنين ١٥ / ١٢ / ١٩٩٧

الفصل الأول
تلقائية الإعداد والتكوين السياسى

لكل مسيرة بداية، ومسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة. وفى هذا الفصل سوف أبين تلك الخطوات الأولى التى وضعتنى على طريق السياسة، ويلاحظ عموما أن التلقائية هى التى حكمت تكوينى، والتلقائية هنا ليست المصادفة العمياء، ولكنها الترجمة العامة للظروف التى حكمت نشأتى، وعلى الرغم من أن هذه الظروف لها سمات خاصة ترتبط بشخصى وبأسرتى، فإنها تشكل تيارا عاما، وحد بين مواصفات عامة شكلت لجيلى توجهه السياسى والاجتماعى، حيث حافظ على الجمع بين أمرين: كلى آخذ شكل التيار الوطني الديمقراطى العام، وجزئى آخذ صيغة الانقسام الايديولوجى والتنظيمى.

فلقد نشأت ضمن تيار عام للوطنية وقيم التحرر والعدالة الاجتماعية ومعاداة الاستعمار، تيار يتصف لحد كبير بقيم الاستنارة العامة التى يرتبط فيها كل ماهو أصيل بكل ماهو عصرى، ضمن تركيبة وطننا. وأتصور أن النشأة ضمن تيار تلقائى عام، تختلف كثيرا عن الإعداد أو التعبئة أو التجنيد السياسى لأى تيار سياسى بذاته، ذلك أن الحالة الأولى تتمتع بمصداقية أعلى، فالذاتى يتقابل مع الموضوعى، والخاص يتقابل مع العام بطريقة سهلة ويسيرة، لاتخضع لأى تعقيد، ولاتخضع لأى تعديل بالإضافة أو الاجتزاء فى وعى الانسان، والذى غالبا ما يرتبط بالحالة الثانية، ففى الحالة الثانية هذه غالبا ما تسفر عملية التجنيد أو الضم، عن عملية قسرية جزئية أو كلية يتم فيها

تعلية المصالح الذاتية فى هذه الجزئية أو تلك، لتتقابل مع المصلحة العامة للشكل أو الفكرة التى يتم التجنيد إليها.

إن هذه الآلية التلقائية، وهذا التيار العام للقيم الوطنية والتحررية، وقيم الاستقلال والتقدم والديمقراطية، هو الذى اختفى من حياتنا السياسية الراهنة، وهو الذى يعنى عمليًا اختفاء المشروع الوطنى الديمقراطى العام، بينما كان هذا التيار التلقائى موجوداً بذاته، وبأشكال تختلف فى التعبير عنه فى مرحلة احتدام النضال التحررى ضد الاستعمار الانجليزى لمصر، ومع بداية تثبيت مشروع التحرر والاستقلال الوطنى حتى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من القرن العشرين. إن تحطم هذا المشروع العام هو بداية التشتت والفرقة الوطنية الراهنة، لذلك فإن العمل على خلق تيار عام للاستقلال الوطنى والتحرر السياسى والاقتصادى، وللتقدم والتنمية، والمشاركة الشعبية والديمقراطية، هو الحلقة الرئيسية للنضال الوطنى الراهن، ولندرك صدق هذا علينا متابعة الآتى:-

[١]

حينما عقدت العزم على أن اختار السياسة كمهنة لى، درست وأنا فى نهاية المرحلة الثانوية، كتاباً للأستاذ عباس محمود العقاد، كان يدور عن شخصية الإمام الشيخ محمد عبده جاء فيه: أن الشيخ محمد عبده كان يبغض السياسة حتى قال فيها: «لعن الله السياسة... وساس، ويسوس، ومسوس.... وكل كلمة تضم حرفى السين والياء....» واستفزتنى هذه القولة، استفزازاً بالغًا، وبينى وبين نفسى،

حسمت الأمر؛ بأن الشيخ محمد عبده، أخذ موقفًا مترددًا من أحداث الثورة العرابية، وأن هذه المهادنة، هي التي دفعت به، إلى تلك القولة، والاكتفاء بخياره السهل، الذى يبتعد عن النضال، ويكتفي بالدعوة إلى التعليم فحسب، دون الانخراط في معمعان النضال السياسى. وعلى الرغم من أن دعوة الإمام محمد عبده إلى العلم والتعليم كمدخل للاستنارة، التي تؤهل لدخول الحضارة الحديثة، مازالت دعوة صالحة حتى يومنا هذا، فإن انفعالي كشاب آنذاك، جسد لي النضال السياسي المباشر، باعتباره الطريق الوحيد للتقدم والرقي، والدخول الى الحضارة الحديثة.

إلا أنه كلما تقدمت بي السن، وصقلتني التجربة السياسية، التمس العذر شيئا فشيئا للإمام في قولته تلك، بل إنني لا أنكر أن تلك القولة، كثيراً ما تلح على الآن. ذلك أن المعنى البسيط للسياسة، في ذهني الغض، في فترة الشباب، يختلف كثيراً عن المعنى السائد في أروقة الحياة السياسية. سواء على مستوى البحث والعلم، أو سواء على مستوى الفعل والممارسة والتجارب الحية.

وحينما أتذكر قولة الشيخ محمد عبده الآن، أرى أن الفرق بين الموقفين منها، مرده يرجع الى طغيان الأقنعة في السياسة، وسيادة مواقع الخلط والتشويش في السياسة. ولاشك أن السياسة المزدحمة بالأقنعة، تستحق كل اللعنات، غير أن هذه السياسة المرتبطة بالأقنعة، ليست هي فقط كل ألوان السياسة، فهناك سياسة واضحة ومحددة، سواء على مستوى العلم النظرى، أو سواء في مجال الفعل الحركي، والممارسة الحية. وبين هذه وتلك كانت تجربتي

[٢]
اختيارى

وأنا فى منتصف السنة الثانية عشرة من عمرى، وتحديداً فى أغسطس ١٩٥٩ امتدت يد المنون لتخطف منى أمى، بعد أن كانت قد عجلت بخطف أبى منى قبل خمس سنوات خلت. فى هذه السن الباكرة، وجدت نفسى فى غمرة البحث عمن لايموت. وقادنى البحث إلى حالة وجد وولـه، أفضت بى إلى تجربة عميقة من تجارب العشق الإلهى، تغذت بنزعة صوفية واضحة، خدمتها قراءات معمقة فى كتب الأدب الصوفى، وصلت ذروتها معى بقراءة محيى الدين بن عربى، والغزالى، وحفظ أشعار الإمام البوصيرى وعمر الخيام، غير عشرات القصائد والأشعار والأذكار. وأنا فى قلب هذه الحالة، عبثت يد المنون مرة أخرى بمن حولى، وفى ابريل ١٩٦١ خطفت منى شقيقى الذى يسكن القاهرة، والذى نال قسطا من التعليم أهله للعمل كمدرس فى المرحلة الاعدادية، رغم أنه لم يزل يواصل تعليمه الجامعى حتى وفاته، وضغطت على هذه الواقعة الجديدة، فلقد مات من كنت أعقد عليه الأمل فى مواصلة تعليمى، والنصير الوحيد لى بين أشقائى لاختيار نوع التعليم المدنى، ذلك أن شقيقى الأكبر، رغم وطنيته المؤججة، وهو من أهديت روحه هذا الكتاب، كان يلح علىّ، بأن أحقق أمل أبى فى أن يكون له «ابن عالم» وكلمة عالم كانت تعنى فى محيطنا الثقافى، رجل علم دينى، حتى أن الشهادة التى تعنى التخرج من المستوى الجامعى، كانت تسمى شهادة «العلمية» رغم أنهم كانوا ينطقونها بلفظة «العالمية». وبعد مرور حوالى شهرين على موت شقيقى حصلت على

شهادة الاعدادية العامة. وجاء شقيقي الأكبر يراودني على دخول الأزهر، فانفجرت بالبكاء، غير أن عاطفته الفياضة تجاه شقيقه الأصغر، آخر العنقود، الذى تجرع اليتم مبكراً، جعلته يكف وبصفة نهائية عن دعوتي لتحقيق حلم أبى. ووعدنى بألا يطلب منى هذا الطلب بتاتا فى المستقبل. وأن مهمته تجاهى هى الاقرار بما اختاره فحسب وفى ذات اليوم قالت خالة لى. الأحسن أن يدخل متطوعا فى مدارس الجيش، فليس له ميراث كبير والتعليم العام والجامعى مرهق ماديا. وعاودت البكاء، فلما علم أخى أمرنى بأن أكف وسوف يواصل معى حتى فى أكسفورد لو أردت.

فى هذه الأثناء، كنت قد حسمت بينى وبين نفسى، موقفا مهماً، حيث وطدت العزم على أن طريق الله، لايكون بالغوص فى بحار الوله والعشق، أو حتى بالتعبد والتهجد آناء الليل وأطراف النهار، ولكن يكون أساساً بخدمة عباد الله، وتجسيد صورة الحق فى ميدان الحياة، الدائب بالحركة. وكانت أقرب الصور إلى ملكاتى فى هذا الوقت هى الاسترسال فى الكتابة أدبا وشعراً. ومارست آنذاك كل صنوف الكتابة الأدبية، حيث كتبت القصة والرواية، والأشعار والأزجال. كما تفوقت فى الخطابة المدرسية، حتى صرت رئيساً لفريق الخطابة فى كل سنوات المرحلة الاعدادية والثانوية. ولا أدعى أن ما كنت أكتبه كان يمثل قيمة أدبية أو فنية، أو قيمة فكرية، ذلك أننى لم أدرس هذه الألوان من الكتابة، غير أن هذه الكتابات عبرت عن حالتى آنذاك. وأذكر أن الكتابة مثلت أول انفعال لى بالأحداث العامة، فحينما كنت فى عامى العاشر حدث العدوان الثلاثى على مصر، وكنت فى الصف الخامس الابتدائى، وبدأت أصدر صحيفة حائط فى مدرسة قريتى، تفيض

حماسة، وتشجيعا لمقاومة بورسعيد الخالدة، وتشكك كل الصبية فى أن تكون هذه كتاباتى، وهذه الصحيفة من إصدارى، وحتى أمحو شكهم صَدرت أحد الأعداد، بكلمات منظومة قلت فيها :

ياقـارىء النصـح فـى هذه الصحـف حـاذر النظـام واعتـنى بالقول
أنا تلميذ مثلكم أعرف بأحمد شرف فلا تستهزأن فأنا فصيح القول

وعندما دخلت مرحلة الشباب، وتفجرت أحاسيس الشباب فى جسدى. وأخذت غرائزى تتحرك تجاه الجنس الآخر، وجدت محاكمة انعقدت فى نفسى لنفسى، سطرتها فى قصيدة شعرية لا أذكر منها غير :

ولست بغاوٍ... والضلالة علقم ولست بقادر والسقم فى الخسران
ولـي ضـمير مـع الأرق مـوفـق فكـيف أدنيـه مـن مرتـع الحيـران

وعندما تصارعت الرؤى فى أفقى، ورحت أحلم بالسلطة، وأتخيل أنها ستكون وسيلتى للمدينة الفاضلة، وخوفا من اختلاط الخاص بالعام فى حلمى رحت أتساءل فى حيرة :

أخيال بالجمال مُرصّع؟ أم غُرور واختيال متربع؟
أم آمال تهدى وتصنع؟ رباه أين أنا من خواطرى؟

فى هذه الأثناء. وأنا فى أجازة صيف ١٩٦٢ ، قرأت كتابًا عن شخصية «ابراهيم هنانو» قائد الثورة السورية فى العشرينيات من القرن العشرين، وانفعلت بهذه الشخصية انفعالا كبيراً، وهناك واقعة كان قد أتاها، أثرت فى تأثيرا شديداً، ففى مرحلة محددة من كفاح «ابراهيم هنانو»، كان فيها على أعتاب تفجير الثورة، جمع كل ثروة أبيه، وهو ابن أسرة ميسورة الحال، وكدسها فى قصر والده المنيف، وأشعل النار فى كل مايملك، حتى يحرق مع هذه الأشياء كل روابط له

بالحياة غير حياة الثورة.

وكما توصلت فى مرحلة سابقة، الى أن طريق الله، يكون بخدمة عباد الله، وبالعمل على تحقيق العدالة والحق التى هى من صفات الله، ضغطت علىَ واقعة «ابراهيم هنانو» فجمعت كل ما كتبته، وقمت بحرقه، ووجدتنى أردد أن العالم لاتنقصه الكلمات أو الأفكار، الجميلة والصحيحة ولكن تنقصه الحركة لتنفيذ هذه الكلمات والأفكار عندها قررت أن أكون سياسيًا. بمعنى أن أتحرك لأدعم السلطة الوطنية لعبدالناصر آنذاك، وأجعل من شخصى، رهينة لما تتطلبه مصالح وطنى وشعبى وأمتى العربية. وهكذا تبلور اختيارى أى أن أكون سياسيًا، هذا الاختيار الذى تحدد فى هذه السن المبكرة، ولم يفتر، ولم يلن، وحتى لم يتأثر بترديد قولة الشيخ محمد عبده لعن الله السياسة...

[٣]
كيف تمت صياغة اختيارى؟

إذا كنت فى السطور السابقة، قد سلطت الأضواء، على تلك المساحة الخاصة جدا، فى نفسى، فإن شخصيتى تحددت فى معمعان الحياة، ويصدق على هذا القول: أننى خريج مدرسة الحياة. ذلك أن اختيارى بأن أكون سياسيًا ارتبط بمعنى للسياسة، حددته وقائع الحياة لى ولأسرتى.

فى العام الرابع من حياتى، فرضت على أسرتى الصغيرة معركة يمكن القول عنها، إنها معركة طبقية. فبالمصادفة البحتة، وقعت ملكية أبى وأخويه أمام قصور عائلة اقطاعية كبيرة. وكانت ملكية أبى تتعدى

الفدان بقراريط قليلة فى هذا الموقع. وتجسدت قطعة الأرض هذه، كأصلح مكان يقام عليه محطة رفع، لاستخراج المياه الجوفية، وضخها كمياه نقية صالحة للشرب لا لأبناء قريتنا وكفرها فقط بل أساسا لخدمة قصور عزبة هذه العائلة الاقطاعية. وقد جاء بمشروع وابور المياه النقية هذه، أحد أبناء هذه العائلة، الذى كان نائبا وفديًا، وهو ابن عميد هذه العائلة، الذى كان بدوره عضو مجلس الشيوخ عن الوفد، وكما هو معروف نشطت حكومة الوفد آنذاك فى تنفيذ خطتها لمد القرى بالمياه النقية، وأشرفت وزارة الشئون البلدية والقروية على هذه الخطة. غير أن مسار الواقعة التى ألمت بنا، عكست بدقة كيف تتحول كلمات الحق إلى باطل، بطريقة حية، وواضحة.

فقد استندت حيثيات اختيار أرض أبى كموقع لهذا الوابور على عدة أمور وحسابات دقيقة :-

١- مكان قطعة الأرض هذه أمام قصور العزبة.

٢- مساحتها الملائمة والتى تساعد على بناء الوابور، واحاطته بحديقة غنية بأنواع الزهور التى تسر الناظرين.

٣- إلمام حقيقى بطبيعة أسرتى الصغيرة. ذلك أن أسرتى، وبالذات أبى امتلك نصيبًا وافرًا من لقبه، فالشرف ارتبط بصنف من الناس يحوزون العلم والحكمة، التى تؤهلهم، لأن يلعبوا دور قضاة الشعب، أو القضاة الحفاة، إذا استخدمنا التعبير الصينى، فعادة ما يلجأ لهم الناس، على أساس من السلطة الأدبية لفض منازعاتهم، والشريف لدينا فى الريف المصرى، غير الشريف فى أفلام رعاة البقر، فلدينا الشريف رجل علم وحكمة، له سلطة أدبية نافذة، ولكنه غالبا ما يفتقد كل مقومات، وحيثيات القوة المادية، بينما شريف أفلام رعاة البقر، هو

رجل البوليس، الذى يمتلك السلطة الرسمية، ويمتلك الى جوارها كل مقومات القوة المادية، فهو أسرع الرماة، وهو أكثر الرجال تفوقًا، فى حركات الابتزاز والصياعة، لو جاز هذا اللفظ، وشكل جناح أبى وشقيقه الذى فارق الحياة قبل أن أولد، وشقيقته الحد الأوسط لعائلتنا. فهم من حيث الحياة الاقتصادية، فئة وسطى، هناك جناح أغنى منهم، ويعد من ميسورى الحال، وأغنياء قريتنا. وهناك جناح أفقر منهم، يعد من سواد الفقراء فى قريتنا. وجناح الأغنياء فى عائلتنا يطبقون، بصورة نمطية سياسة التقوقع على الذات، وعدم أهمية امتلاك علاقات خارجية، بمعنى علاقات خارج نطاق بيوتهم، أى أنهم يطبقون سياسة العزلة، على النمط الأمريكى، فى القرن التاسع عشر، وفقراء عائلتنا تطحنهم الحياة، فهم فى عزلة اجبارية، انهم معدمون. أما فصيلة الوسط، فهى التى مازالت تحوز علاقات اجتماعية واسعة وتحفل بالعلم بمعناه السائد دينيا، وتحاول الوصول لمعرفة بعده المدنى، وتمارس حياة اجتماعية، بل وفكرية نشطة، ودورا قياديا ملحوظا ومسجلا.

لكل هذه الاعتبارات، تم تفضيل قطعة أرض أبى مكانا لوابور المياه، استغلالا لمكانها وامكاناتها، وتأديبا لهذا الرجل، الذى لم يعى درس تأديبه الأول، عندما أرسل الى الجهادية فى ١٩١١، رغم أنه كان له حق الاعفاء، لأنه من حفظة القرآن، ويمتلك قدرا من التعليم الأزهرى، ورغم أن سنوات تجنيده امتدت لأكثر من سبع سنوات، شارك فيها فى حملات بريطانية على السودان وأعالى النيل، وعلى فلسطين وبر الشام، فإنه رجع عالى الصوت، يتكلم عن الحلال والحرام، وعن العدالة، وعن الاحتلال البريطانى لمصر، وعن الأزمة العالمية، وضغطها على سوق القطن المصرى، وعن خدمة المجهود الحربى البريطانى،

وازدهار الصناعات اليدوية، حيث كان يمتلك نولين خشبيين أحدهما لإنتاج الأقمشة القطنية، والآخر لإنتاج الأقمشة المصنوعة من الصوف البلدى الخشن، وعن احتكارات تجار الأقمشة. الخ.. وعن ذوى الأملاك وتوزيع العائلات المالكة للأراضى الزراعية والعقارات على الأحزاب المختلفة.. لقد كان مجلس أبى اليومى ممتداً، فهو يشهد أحد قممه بعد صلاة الفجر، وأثناء تناول الافطار من وجبة بسيطة من الخبز الأسود المصنوع من الذرة والملح واللبن والقهوة، ويشارك فى هذا الحفل - الذى يمتد يومياً ذهاء ساعتين - عمداً دائمون وبعض المارة. ويشهد هذا المجلس قمته الثانية فى التوقيت المعروف فى قريتنا بتعبير «صفارى شمس» أى عندما يصفر لون الشمس فى السماء قبيل الغروب، يكون يوم العمل لأبى قد انتهى، ويخرج من على نوله، ويلبس جلبابه الأبيض النظيف، فتأتى شلة الحكماء من حائزى بعض سنوات التعليم الأزهرى، ومن ناظر ومدرسى المدرسة الابتدائية، ليحتدم حديث السياسية وقضايا المسألة المصرية، ويتضح بجلاء الميل الوفدى لأبى وتبحث أحوال الناس وتشهد هذه الجلسة التى تقطعها صلاة المغرب، جلسات محاكم الحفاة، التى قد تمتد أحياناً، لما بعد صلاة العشاء، أو تبدأ بعد صلاة العشاء لتمتد فى الليالى السوداء الطويلة فى قريتنا لمدة ساعتين وأكثر، توغلا فى الليل البهيم، الذى يشهد مثل هذا الاستثناء، فى مثل هذه الحالة، ليرخى كل ستائر الهدوء والسكينة، التى تشبه حد الموات، حتى يأتى صياح الديكة ونهيق الحمير قبيل الفجر، ليعيد الحياة إلى هذه القرية، التى تقع بالقرب من مدينة قويسنا فى إقليم المنوفية، على بعد حوالى ٦٠ كم شمال القاهرة والتى تسمى أشليم، وهى من القرى القديمة التى ترجع الى العصر الفرعونى أو ما قبله. وقد وردت فى «قوانين» ابن

مماتى وفى تحفة الإرشاد، باعتبارها من أعمال جزيرة «قويسنا» وفى التحفة باعتبارها من أعمال الغربية.

وذكر جوتيه فى قاموسه اسم Hat chilaoum هات شيلايوم وقال إنها مدينة مقدسة لعبادة الإله «أوزوريس».

وقد أرجعها «بروكش» الى Chlimi تشليمى وهو الاسم القبطى لقرية اشليم التى بمركز قويسنا، أى هذه القرية، وذكر «أميلينو» فى جغرافيته ناحية باسم Schlimi سشليمى وهى بذاتها شليمى التى ذكرها جوتييه وقال «أميلينو» إن «شاملبيون» أرجعها الى أشليمه التى تقع بمركز ايتاى البارود، غير أن أميلينو يختلف مع شاملبيون ويتفق مع بروكش ويرجع شليمى هذه التسمية كاسم لقريتنا بعينها أى أشليم مركز قويسنا محافظة المنوفية.

ومن يدقق فى اسم هذه القرية سوف يكتشف أنه ذات الاسم لمدينة أورشليم، بإضافة مقطع «أور» وهذا المقطع يعنى مدينة فى لغات سامية قديمة ومنها الكلدانية، ويفهم من هذا، ويتأكد أن قريتى فعلا كانت مدينة مقدسة، أو مدينة سلام، لعبادة أهم آلهة الشعب المصرى القديم أى العقيدة الأوزيرية، وقد اكتسبت هذا الاسم بذاته أو محورا فى العصر القبطى، الذى يعنى أنها مدينة سلام، أو المدينة المقدسة.

انضم شقيقى، بل أشقائى لمجلس الحكمة فى المساء التالى، لوضع حديد المشروع حول أرض أبى، إيذاناً ببدء اجراءات نزع ملكيتها لاعتبارات النفع العام. وتصايحت الأصوات، واضطربت الكلمات، واستقر الجميع على ضرورة بدء طريق الشكاية للجهات الرسمية، وارشادها عن قطعة أرض بور ووقف، لاتبعد أكثر من ربع كيلومتر عن هذه الأرض، وذات صلاحية مثالية لمشروع وابور المياه.

وسافر أبى للقاهرة، بعد أن سدت الطرق والمنافذ عليه فى مدينة المركز قويسنا، وفى مدينة المديرية شبين الكوم. وفى أثناء سفره، جاءت السيارات محملة بحديد التسليح وشكاير الأسمنت وأدوات العمل والبناء. وعندما أرخى الليل سدوله، تحركت مجموعة الشباب والحمير، لتنقل هذه المعدات إلى قطعة الأرض الوقف والبور القريبة. وانبلج نور الصباح وجاء أبى من القاهرة فى مواعيد أول اليوم، وعلم بما حدث، وفى أثناء سرد الوقائع، جاءت الاستدعاءات لوالدى للذهاب لدوار العمدة، وصحبه أخوتى، وهناك احتدم النقاش، وتعالت الأصوات، وانتقل الجميع إلى حيث المعدات فى الأرض البور، وأصر صف ضابط النقطة «البلوك أمين» والعمدة على ضرورة أن يحمل أبى وأخوتى المعدات، ويعيدوها الى أرضنا، ورفض أبى وأصر على الرفض، وتعلل بأن الوابور خير، ويجب ألا يسبب ضرراً، وهو فى هذا المكان الذى نقف فيه سيكون خيرا مكتملا، فلماذا تحولون خير البعض إلى شقاء للآخرين؟

وأجابه العمدة، بحقده، على من ينافسه فى حيازة السلطة، أى تلك السلطة الأدبية والروحية التى تتفوق على سلطته المادية على البسطاء، «مأنت، هتاخذ تعويضا نقديا» فلما واصل أبى مقارعته بالحجة، أذدراه الرجل، وبصق فى اتجاهه، عندها اندفع أخى وتناول عصا العمدة من يده، وانهال عليه ضرباً، وهو يهزى بمقارنة منطقية لديه، ولكنها هزلية لدى الآخرين، هل يقارن الشرف، بالقوة؟، وهل تتوازن قرائن العدل، باحتيالات النصب؟. واقتيد أخى الي حجرة الحجز بالنقطة، وضغط على أبى أن يحضر لواحدة من جلسات محاكم الحفاة، ليس كقاض فى هذه المرة، ولكن كمتهم. ورفض أبى، وحضر عنه ابن شقيقته،

وفرضت غرامة مالية على أبى، رفضها، ورفض الامتثال لها، فدفعها عنه ابن شقيقته.

وتوالت الأيام وفى إحدى الليالى، قام الشباب بالقاء معدات العمل فى الترعة بعد امتلائها. فتواصلت عمليات تأديب أبى وأخى، حتى أصابهم اليأس، وارتكنوا الى الاستسلام والدعة، وبنى وابور المياه على أرض أبى، ولفت به حديقة من الزهور، غالبا ماكانت هدفنا أنا وأطفال القرية لجمع وردات منها فى أعياد شم النسيم، ولكنها ظلت طوال العام منظراً جميلاً يسر الناظرين من الشرفات المواجهة، وارتفعت صهاريج المياه النقية لتسجل إنجازا لحكومة الوفد، حيث زاد عدد القرى - التى تشرب مياه نقية - قرية، هى قريتنا وكفرها وعزبة البهوات، وليسجل أيضا أن هناك أسرة فقدت جزءاً رئيسياً من مصادر دخلها هى أسرتنا، لهذا عندما قامت حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مفجرة الثورة، حفت قلوبنا بهذه الثورة، واعتبرها أبى علامة خير، وحدثا مجزيا عما لاقيناه، ولن أنسى حكايات مجالس أبى التى حفلت بقصص شتى عن هجمات بعض الرجال للجيش المرابط أى وحدات الجيش البريطانى من أبناء المستعمرات، والتى كان مقرها تلة الجبل الذى يقع جنوب مدينة قويسنا، وعن نوادر متعددة تظهر أساليب المقاومة المراوغة أحياناً، والصريحة أحياناً أخرى لوحدة الجيش المرابط، ومما تعيه ذاكرتى قولة أحد الحكائين، بأن ضباط الجيش البريطانى حوروا اسم قريتى التى تسمى أشليم، وأخذوا ينطقونها إش- ليم» «أى عش اللئيم» نظرا لما لاقوه منها من أعمال مقاومة ومراوغة واستغفال، وهجمات سرقة وخطف، بل وتخصص بعض أشقياء القرية فى ضمان معيشتهم من مرافقة واشباع بعض الرجال من ضباط وضباط صف

الجيش البريطانى من المصابين بداء الشذوذ الجنسى السلبى. وكم كانت الفرحة غامرة يوم رحيل وحدة الجيش المرابط، وكيف ارتفعت زغاريد النساء، وكيف عشنا نحن الأطفال فرحة جلاء البريطانيين عن وطننا، بل وعاشت قريتنا حدث الجلاء، وعاش الحدث فيها. لذلك لن أنسى ما حييت كيف انعكست أحداث العدوان الثلاثى علينا، وصارت كل مظلة تحمل فى نهايتها جنديا بريطانيا أو فرنسيا، وتحط فى مطار الجميل بمدينة بورسعيد، وكأنها تحط على رأس كل واحد فينا، أو تطب على صدورنا، وتثقل قلوبنا، بينما صارت كل طعنة سونكى من مصرى لواحد من المظليين تتم بيد كل واحد منا. وكيف كان يتحلق شباب القرية حول جهازين أو ثلاثة للمذياع، كل ما تملكه قريتنا آنذاك، لمتابعة الأخبار، تصاحبها صيحات التهليل، وحركات الطعن فى الهواء وكأننا فى معمعان الميدان.

وعلى الرغم من ذلك فقد تابعت مشادة كادت أن تتطور الى مشاجرة، عندما تصدى شقيقى الأكبر لواحد من الرجال راح يسب جمال عبدالناصر، بالتورية، لأنه أعطى الانجليز فرصة العودة من جديد، وقوله خربها ابن.... وكيف رد شقيقى السباب إلى الرجل، الذى حاول الانكماش، وقال: «انتم مش شايفين بورسعيد احتلت تانى» فكان هياج الشباب وصخبهم الذى تحول لشعارات منغمة هنحارب.. هنحارب، النصر لنا..

وفى منتصف ١٩٥٨ شهدت قريتنا حدثا غير من خريطتها الاجتماعية الى الأبد، فقد جاءت بعثة مكونة من عدة موظفين برئاسة مهندس اسمه ميشيل من وزارة الزراعة، لتفتح باب الهجرة الى منطقة أبيس التى تقع فى دائرة الاسكندرية للانتفاع بأراضى الاصلاح

الزراعى. وعندما أعلن عن ذلك تحولت القرية الساكنة وكان كل أيامها صارت يوم السبت، أى موعد سوق القرية. فقريتنا قرية محافظة جدا، لم تشهد ظاهرة تصدير عمال التراحيل البتة، ولم تسمع عن الهجرة الجماعية، بل إن ذكرياتها مازالت منتعشة عن أيام السلطة، أى تلك الأيام، التى جاءت فيها السلطات لتجمع جيوش السخرة لحفر قناة السويس، وكيف كانت أيام السلطة، سببا فى تشتت بعض العائلات، نتيجة لحوادث الطفشان الجماعى «أى الهروب الجماعى» للشباب. لهذا بدا طلب الانتفاع بأراضى الإصلاح الزراعى، وكأنه المجهول المخيف، الذى يخشاه الجميع، ولايقدر أن يفتح بابه أحد.

وأذكر أن رجلا مهيبا كان شيخ بلد. وكان أحد المترددين على مجالس أبى، قد طرق بابنا ذات مساء واعتمد على صلة قرابة تربطه بوالدتى، وراح يدعو أشقائى وابن عمى زوج شقيقتى لتقديم طلبات الانتفاع بأراضى الإصلاح الزراعى فى منطقة أبيس الملاصقة لمدينة الاسكندرية، وتحلق أشقائى حوله، بل جاءت شقيقاتى، وكاد الجميع أن يتطاول على الرجل، الذى هو بمنزلة والدنا. فهذا يعنفه ويتهكم عليه، ألسنا من الملاك؟ هل نحن معدمون كما يقولون؟ وهذه تقول حرام عليك ياعمى الحاج عايز تسيبنا بيت أبونا؟!!

وتسلل صوتى من بين الضجيج، وقلت ولماذا لانذهب؟ وهل المعدمون أنفسهم راضون بالذهاب؟ ويمكن لنا أن نقسم العائلة: اثنان يذهبان للانتفاع، وسوف يحصلان عندئذ على عشرة أفدنة، أى أكثر من ملكيتنا بأربع مرات، والآخر يظل هنا يباشر مالدينا. وردت على شقيقتى طيب والأنوال يافالح!! فرد عليها شيخ البلد، هم هيطيروا يابنتى؟! وكر شيخ البلد علينا، وأخرج طلبات الانتفاع، وشرع فى

ملئها غير أن شقيقى طلب مهلة، وقال سيبنا نفكر ياعمى الحاج.

وما أن خرج الرجل، حتى جلست الأسرة كلها، وكأن النفير قد دعا الجميع لجمعية عمومية للأسرة، وكانت المفاجأة، أن أمى شجعت رأيى، وقالت أحمد حلها: نقسم أنفسنا لقسمين، وانتهت الجلسة عند هذا الرأى، غير أن شقيقتى، زوجة ابن عمى، كانت أكثرنا تشددا فى الرفض، تسللت من الجلسة وذهبت إلى عمتى وجاءت بها وكانت عمتى مثالاً نموذجيا للسلوك المحافظ والتقليدى، وهاجمت عمتى أمى، وعنفتها، وأخذت تتعجب كيف لأم أن تترك أولادها للخروج من بيتهم. وللمرة الثانية استخدمت كل فرص حنان عمتى على، وقلت لها، ما إحنا هنفتح بيوت أخرى، ولن نغلق هذا البيت، وانتصرت وجهة نظر طلب الانتفاع، ومع ذلك، ظلت البعثة تتردد على القرية لما يقترب من عام كامل وسط الضجيج والتردد، حتى كان يوم ٢٠ يوليو ١٩٥٩، وخرجت أكثر من ٥٣٠ أسرة من أسر الشباب مع حاجياتهم وأمتعتهم، ومواشيهم، وانتظم رتل طويل إلى مدينة قويسنا، وتلاقت الارتال من قرى ثلاث. ودخل المسافرون إلى القطار، والأهالى يقفون على الأرصفة فى منظر يصدق عليه القول الفلاحى: «دى الناس أمم». وناور القطار للخروج من خطوط التخزين والصراخ يصل لعنان السماء، وبدت محطة سكك حديد قويسنا وكأنها مسرح لمظاهرة فزعة، لن أراها فى حياتى مهما طالت. فالصراخ يتعالى، والنساء تولول، والرجال يجهشون بالبكاء، والشباب يجأرون بالآهات، وكأننا بصدد مأتم أصاب كل بيت فى القرية، وتحرك القطار بعد مناوراته التى طالت لما يقرب من ساعة، وكأنها الدهر كله، وطالت الرحلة لأكثر من ست ساعات لمائة وأربعين كيلومترا فقط، وأطال ساعاتها الست مظاهر

الحزن الذى يتم عزفه بمختلف النغمات، غير أن القطار كان يحمل أبناء قرية مجاورة، كانت المظاهر لديها مختلفة تماما، فهى قرية اعتادت على إخراج أفواج عمال التراحيل، وما كانت الرحلة هذه، إلا رحلة أمل تختلف اختلافًا بيناً عن رحلات عمال التراحيل الكئيبة، لقد ضغطت مظاهر الفرح لأبناء هذه القرية، على أبناء قريتنا فتعادل الجو واتزن.

وفى المساء نزلنا من القطار وانتقلنا بالسيارات لبيوتنا الجديدة، وكانت أول مرة أفارق فيها أمى، التى تركناها هناك، وكان هذا أيضا آخر يوم رأيت فيه أمى التى وافتها المنية فى يوم رحيلنا السادس والعشرين.

وبعد شهور بدأنا نتكيف مع الوضع الجديد، وبدأت أبواب الأمل تنفرج عن مناظر المستقبل السعيد، وما هو إلا عام ونيف حتى تبدلت الأحوال الى الأوضاع المتيسرة. وأصبح خيار الانتقال الكلى لمنزلنا والمجيء بشقيقى المتبقى أمراً نافذاً، حيث اكتملت أسرتنا فى أبيس من جديد، ومع تطور الحياة ونموها، واحتكاكى اليومى بمدينة الاسكندرية حيث مدرستى الاعدادية، ثم الثانوية دخلت الثورة منزلنا، وأصبحت مصالحها مصالحنا، وصارت السلطة سلطتنا، لذلك فهمت السياسة بمعنى محدد، يتجسد بكل شعارات تلك المرحلة، مرحلة بداية الستينيات ومنذ ١٩٦١ امتلكنا جهاز راديو ترانزستور كبير الحجم ومتطوراً وعليه أربع موجات، لقد نقلنى هذا المذياع الى قلب الأحداث، وجعلنى أطوف العالم مع بداية كل ليل، عندما أتسلل به، وأجلس الى جواره فى حجرتى، وأدور معه على كل نشرات أخبار كل المحطات الناطقة بالعربية، ولهذا المذياع فضل ثقافى على لن أنكره ما حييت، فلقد نقلتنى إذاعة البرنامج الثانى إلى ميادين الثقافة الحديثة،

وساعدتني اذاعات بريطانيا وفرنسا وصوت أمريكا وموسكو وبكين وايطاليا والمانيا وتيرانا وبراغ.. الخ. للعيش في أدق تفاصيل الحياة السياسية في العالم. وأصبحت متابعًا للحياة السياسية المصرية يومًا بيوم، فعلى الرغم من أنني لم أحس كثيراً بعملية الوحدة بين مصر وسوريا، فإنني عشت تفاصيل عملية الانفصال، وتابعت كل ما قيل فيها ومن كل اتجاه، وتابعت عملية استقلال الجزائر إلى حد أن شقيقي الأكبر درج على ممازحتي عندما كان يناديني بأحمد بن بلا. وتابعت عملية التأميم الكبرى في يوليو ١٩٦١ وفي يوليو ١٩٦٣، وبدأت أسمع عن الاشتراكية وأعجب بها، وبدأت أنظر لبائعي الكتب على الأرصفة في الاسكندرية، وأشتري ما تيسر لي منها، وأتردد على مكتبة المدرسة، وأصبحت رجلاً أساسيًا في جلسات شقيقي التي بعثت تقاليد والدي، وتوثقت علاقتي بثلاثة من كبار القرية أجادوا فهم السياسة، وسط تألق عواطفهم الوطنية. وعن طيب خاطر قاطعت ملاعب أترابي، وانضممت إلى مجالس الشيوخ.

وفي سنة ١٩٦٣ سمعت لأول مرة عن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وذلك في الاحتفال بعيد العلم، حيث سلم الرئيس جمال عبدالناصر ابنته جائزة التفوق في الثانوية سنة ١٩٦٢، وذكر أنها طالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ومن يومها قررت أن تكون هذه كليتي.

وأذكر أنه في هذه السنوات حولت أصدقائي للاهتمام بالسياسة مثلي، وكم دعوتهم للتفكير في مستقبل البلاد، كم جلسنا نخطط لهذا وبدأت عيني تصبو نحو السلطة باعتبارها أداة تأمين ما نصبو إليه، لضمان استمرار الثورة، واستمرار أمجادها، وكادت جلسات

النقاش هذه تلهيني عن متابعة دروسي، إلا أنني كنت أدرك بسرعة ضرورة تتابع حياتي، لأن حياتي لم تعد ملكي، فلقد نذرتها للنضال السياسي، من أجل أهداف الثورة الوطنية آنذاك، من تأمين التحرر الوطني، ومتابعة عملية التنمية الاقتصادية - الاجتماعية، وتحقيق الاشتراكية التي هي كفاية وعدل. وإبراز الطابع القومي العربي للشعب المصري والنضال من أجل قضية الوحدة العربية وهكذا انتظرت على أحر من الجمر الشهور حتى أتمكن من الالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، لدعم اختياري، حتى أصير سياسياً حقيقياً.

[٤]
وفهمت السياسة بتلقائية:

حتى صيف سنة ١٩٦٤ اتضح معنى السياسة أمامي، ومن خلال تجربتي الحياتية المحضة، على أنها علم وممارسة السلطة العامة، وأن هذه السلطة العامة تعبر عن مصالح عامة، وأن المصالح العامة تختلف من دولة لأخرى، فمصلحة دولة معينة تختلف عن مصلحة دولة أخرى، وبالذات تختلف بل تتناقض مصالح الدول الاستعمارية مع مصالح الدول الفتية الساعية لتدعيم تحررها الوطني بالتنمية الاقتصادية- الاجتماعية.. والمصالح تختلف أيضا باختلاف طبقات الوطن الواحد، فمصالح كبار الملاك، غير مصالح صغار الملاك، غير مصالح المعدمين، ومصالح أصحاب المصانع غير مصالح العمال.

وكنت قد أيقنت أن طاقات البشر لاتقف عند حدود، وأن الفقراء يمتلكون من هذه الطاقات القدر الوفير، والمطلوب أن تحرر هذه الطاقات

حتى تتفجر إبداعا وانجازا، وكنت أنظر حولى، فأجد المعدمين من الفلاحين وقد تحولوا من كائنات متجهمة وشاردة ومقفولة، الى بشر يطفحون بشراً وسعادة، ويبدعون فى كل شىء، بل خبرت فى «العم» محمد أبوعلى قائداً سياسيا فذا يدرك المسائل، ويرتبها حسب أولوياتها، ويردد: أصل احنا لانقدر على عمل كل شىء مرة واحدة لابد أن نبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية، وازدادت صلتى توثيقا بالشيخ عبدالرحمن عبدالجليل المحارب القديم، والذى انتفع بأراضى الإصلاح الزراعى لهذه الصفة، واستمتعت بذاكرته المتدفقة عن حكايات الحرب فى ١٩٤٨ وفى ١٩٥٦، وبمتابعاته الدقيقة للسياسة الدولية، وصراع الكبار، وازددت قربا من الشيخ عبدالعزيز الشريف وابنه عبدالحفيظ الشريف وكيف قادنى وعرفنى بمجتمع البدو وابناء على، وتلافيف الحياة الاجتماعية للفلاحين، والأسماء كثيرة، أناس أثرياء بتجاربهم، وثقافتهم المباشرة والتلقائية هذا يكلمك عن حرب غليوم، وذلك يكلمك عن حرب هتلر، وذلك يدقق معلوماتك عن سوكارنو، وهذا يبدى إعجابه بخروشوف، والآخر يقف طويلا عند شواين لاى. وذلك يستدعى أيام الشقاوة، ودوره فى انتخابات الوفد والسعديين، ويكشف الحيل الانتخابية. وهكذا تكتشف أنك واحد من مجموع مجتمع حيوى، عدد العالمين ببواطن الأمور فيه كثيرون، وعدد الخبراء فيه كثيرون، وأنا بين الجميع محاور ومحلل، ومستفسر. ومجالسنا حية، حتى الغناء صار يلفت نظرنا، ويزيد ثقافتنا ومعارفنا.

هذا شيخ وقور يعلن بخبث أنه يحب سماع صوت «صباح» ويقول أصلها لها صوت مرح ومتفائل، وذلك يتحدث عن عبدالحليم - أصل دا ابن فلاحين زينا، دى عنده البلهارسيا «ياولداه» والجميع ينتظرون غناء

الست أم كلثوم، وكم جلس الشيخ أحمد أبوسطيحة يعيد القصائد التى تغنيها أم كلثوم شعراً. وأرى أننى في جو مشبع بالثقافة الحية الغنية، الجميع لديه قدرة على الإضافة، حتى ولو بالنوادر الشعبية ذات الدلالة الاجتماعية الفذة، فهذا يحكى عن الشيخ عبدالحميد أبوعتمان بصوته المسرسع كصوت النساء، وقد مر على أحد الفلاحين وقد رفع قادوس المياه وأخذ يروى بطنه التى امتلأت خبزاً جافًا، ومشًا وسريسًا وجعضيضا «نباتات تنمو بصورة تلقائية دون أن يزرعها أحد تستخدم فى غذاء الفلاحين» وهو يتجشأ أى يتقرع، ويقول اللهم أديمها نعمة واحفظها من الزوال، فيرد عليه الشيخ عبدالحميد مستغربًا: زوال!! طيب هو هيأكل البعيد بعد كده ايه، تبن!! طيب أنا أضمنها لك طول العمر!! قوم ياابن الكلب، وشوف البيه بياكل ايه، وبياكل كده ليه؟

وهذا يدلك على فصاحة عبدالمنعم الجروانى عندما جار البيه علي أرضه، وضم قطعة الأرض الصغيرة التى يمتلكها لملكيته وعندما قدم عبدالمنعم شكواه وتحددت جلسة المحكمة، سأله القاضى، فين ياراجل المحامى بتاعك؟ فأجاب وأنا حيلتى حاجة ياسيادة المستشار أنا سوف أترافع عن نفسى. واستطرد يروى الواقعة: ويروى كيف جاء خبير مصلحة الأملاك للمعاينة وكيف أكرمه البيه، وذبح له الديك الرومى، وكيف أن الخبير جلس وطبلة الديك الرومى تزغرد فى بطنه، وخط شهادته، فأخذ الهم يضرب فى جنبى، حتى كادت أجنابى أن تنفجر!! وكيف أن القاضى أعجب بصورة المقابلة البلاغية بين زغرودة طبلة الديك الرومى فى بطن الخبير، وضرب الهم فى أجناب عبدالمنعم، فحكم لصالحه.

لكم أذكر حلاوة تلك الفترة من حياتى، السنوات الأولى من

الستينيات ولكم تعلمت كيف أن البساطة تعنى الوضوح، وأن الوضوح يعني الفهم ويعنى الحقيقة، وأن الحقيقة لاتحتاج الى أقنعة، وأنه عندما يبرز القناع تكون الحقيقة هى الضحية. ولأن ما استعد له هو العلم، ولأننى مؤمن بضرورة العلم، وأنه لامصلحة مضمونة بغير العلم فى عصر العلم، أخذت أتلهف مرور الأيام حتى تظهر نتيجة امتحانى للثانوية العامة. وفى شهر يوليو الذى بدا لى أنه زينة شهور السنة، حيث الاحتفال بعيد الثورة، وأيام الاحتفالات المتعاقبة لأكثر من أسبوع، وحيث رحلات البحر على شاطىء سيدى بشر، وحيث سهراتى مع المذياع الذى تحول ليلا ليكون مذياعى الخاص، وفى أعياد الثورة ١٩٦٤ ظهرت نتيجة الثانوية العامة ونجحت وحصلت على مجموع علمت بعد فترة أنه يزيد على طلب أى كليه بـ٧٪ من الدرجات. وأعلنت قرارى سوف أنتقل للقاهرة، وسوف أدخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

وتكدر مزاج شقيقى الأكبر، واجتاحته موجة قلق عاتية، ولم يكن مردها خوفه من السياسة، أو محاولة توجيهى للون معين من الدراسة الجامعية، بل تركز كل خوفه من مجرد انتقالى إلى القاهرة، فهو يخشى القاهرة، المدينة الغول، كما يسميها التى إذا ذهبت اليها فى أى لحظة يتسرب اليك شعور بأن أهلها يهمون بمغادرتها «يعزلون» فالحركة سريعة ودائمة ودائبة طوال اليوم، والقاهرة هى المدينة التى فقدت فيها أسرتى، زينة شباب العائلة، أخى الشاب، الذى راح ضحية حادثة حافلة مزدحمة قبل إفطار ليلة القدر فى رمضان، الذى وافق مارس/ ابريل ١٩٦١، وكيف فاضت روحه وطفله على صدره، لأنه كان يحمله، واختل توازنه، فسقط من الحافلة المزدحمة ليصاب بنزيف حاد فى المخ،

ويرحل ويترك ثلاثة من الأطفال تيتموا ولم يبلغ كبيرهم السنوات السبع بعد. وأخذ شقيقى الأكبر يستخدم معى كل صنوف الضغط، تارة بالوعود، فهو سيخصص لى مصروفا شهريا قدره عشرة جنيهات، غير الأكل والملبس والكتب، إذا اخترت أى دراسة فى إحدى كليات جامعة الاسكندرية، وتارة بالضغط والتخويف من القاهرة - الغول. غير أننى تشبست بموقفى، فقد حسمت أمرى، واخترت السياسة مهنة لى، وأفضت فى الشرح لأخى، أنها مهنة العمل من أجل الله والوطن والناس، وقد يَسَّرَنى الله لذلك، ولابد أن أعد نفسى لهذه المهمة، ولن أغير موقفى.

وكلما مر يوم أو بعض يوم، أتى شقيقى الأكبر لى فرحًا، يقدم عرضًا جديدًا، فلقد عرف اليوم أن تجارة الاسكندرية بها قسم للاقتصاد والعلوم السياسية. فبشرنى بذلك، وقال لى «ابسط ياعم» «خلاص اتحلت» غير أننى تشددت فى الرفض، فسألنى حائرًا، ألست تريد دراسة السياسة؟ وهذا القسم يفى بالغرض؟ لماذا إذن الرفض؟

فوجدتنى مستفيضًا، أعلن عليه خطتى، بأننى أريد أن أعيش فى القاهرة، فهى مركز السلطة السياسية، وبالتالى مركز الحركة السياسية، ويجب أن آتوجه للمركز مباشرة، فالوضوح الذى يدفعنى نحو الهدف المركزى، يجعل من اختيارى، أمرًا إجباريًا، واستسلم لى شقيقى، وقال داكنت خايف عليك من القاهرة فقط، الآن أضفت لخوفى خوفًا آخر، «لأنك هتدخل سكة إحنا مش أدها».

ومر يوم أو بعض يوم، وجاءنى شقيقى متهللاً وقال: «العملية اتحلت من باب واسع» ادخل الفنية العسكرية، أهم بياخدو ٧٠٪ فقط وأنت مجموعك كبير، وبذلك نضرب عصفورين بحجر واحد، تروح

القاهرة، ولكن ستكوّن فى الداخلى «سكن الطلبة المقيمين فيه أثناء الدراسة» مما يشعرنى بالأمان.. ثانيا هتبقى مهندس، وانت كنت عايز تبقى مهندس قبل ماتعرف كلية السياسة دى. ثالثا الجيش ياعم هو الطريق المضمون لتوصيلك للحكم، فالبلد يحكمها العسكريون، والسياسة طريقها الجيش. وأردف أخى: «وأنا من ناحيتى مستعد للمصاريف من جنيه لميه». وفوجىء أخى برفضى، بل فوجىء بحشرجة صوتى، وبزفرات تتابعت من صدرى، اختلجت بها عبرات كادت تقذف بالدمع من عيونى: وقلت له: أنا كائن مدنى لن أعمل بالدين، ولن أكون رجل دين، كما أننى لن أعمل بالعسكرية ولن أكون رجلاً عسكريًا، فقط أنا رجل سياسة. وانفعل علىَ أخى، وعلا صوته وأخذ يقول: ليه ماهو الدين أصل كل شىء، الدين هو الأخلاق، والرسول عليه الصلاة والسلام كان أعدل الحكام، والسياسة طول عمرها هى والدين حاجة واحدة، ولكنى لم أتساهل، ورددت عليه السياسة سياسة، والدين دين، السياسة هى فن وعلم ممارسة السلطة العامة فى محيط المجتمع والناس، أما الدين فهو الذى ينظم علاقة الانسان بربه، وعلاقات الانسان بالانسان فى حدود المعاملات الخلقية والاجتماعية الشخصية، وعندما تختلط السلطة العامة بالدين، تبقى مصيبة، ساعتها لن تعرف أين تبدأ هذه وأين تنتهى هذه؟، والحاكم ساعتها يقول لك، أنا مبعوث الاله، وأردفت: أنت تعرف، أن رجال الكنيسة كانوا مقسمين الجنة، ويبيعونها للناس بالقراريط فى هيئة صكوك غفران. فابتسم أخى، وقال: أنت يا أخى مخك ناشف، ولايستطيع أحد أن يجادلك، ومع ذلك فأنت على حق، الدين للديان، والوطن للناس، حتى أبوك كان بيقولى ان من شعارات ثورة سعد زغلول: الدين

لله والوطن للجميع، وأرذف ياعم أذهب غدا لمكتب التنسيق، وأدخل زى ما أنت عايز، بس بشرط، تدخل المدينة الجامعية، علشان ماتركبش مواصلات، ولما تحب تزور شقيقاتك فى بيتوهن يوم الجمعة ابقى خد تاكسى على حسابى. غمرنى السرور ساعتها. وأحسست أننى بدأت الخطوة الأولى فى طريق الألف ميل، ولكنها الخطوة الصحيحة، وذهبت الى مكتبى وجلست أكتب اسمى مقرونا بأننى طالب فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ورحت أرتب ملابسى للسفر لسحب الأوراق والتقدم بها الى مكتب التنسيق للقبول بالجامعات.

[٥]
وتواصلت استعداداتى لأضع قدمى على طريق السياسة:

حينما تسلمت الخطاب، الذى يرشحنى كطالب بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية هيأت نفسى لطريق صعب وشاق، وتذكرت كيف أن الرئيس جمال عبدالناصر رد على أسئلة أحد الصحفيين، عندما سأله هل تتمنى أن يكون ابنك سياسيًا، وكيف أصابته قشعريرة وهو يرد: لا أتمنى ذلك لابنى، فحياتى الشخصية كلها معاناة، ولا أتمناها لأبنائى. وأخذت جملة الشيخ محمد عبده تتردد على خاطرى «لعن الله السياسة....».

غير أننى كنت أدفع مخاوفى، بل اعتبرت أن اجابة جمال عبدالناصر، نقطة سوداء فى ثوب المحبة البيضاء الذى يلفنى نحوه، فأمام مصالح الأوطان والشعوب يجب ألاَّ نبخل بشىء حتى بالأولاد والأنجال. وأذكر أننى ذهبت الى الاسكندرية وتعاملت ولأول مرة

بنفسى مع أرقى المحلات بها حسب معلوماتى بذلك، حيث ذهبت الى شركة هانو بالمنشية، واخترت ملابس تليق بانتقالى للقاهرة، وبالإقدام على مهمة عمرى، وحزمت حقيبتى، وانتقلت إلى القاهرة، وزودنى شقيقى بمبلغ لم أحلم فى يوم من الأيام أن أمتلكه «عشرين جنيها» وكان هذا المبلغ أكبر من راتب شهر لخريج جامعى.

ومن على البعد أتذكر نفسى، وأنا أتنقل بين مبنى المدينة الجامعية، ومبنى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بملحق كلية الحقوق داخل الحرم الجامعى لجامعة القاهرة، وبين المبنى الإدارى للكلية فى شارع نهضة مصر خلف مبنى كلية الهندسة، وكأننى عصفور أبوالفصاد يخطر على مرج شاسع، لاتراه من بعيد، فهو نقطة فى بحر أخضر سندسى ممتد، غير أنك إذا اقتربت منه، وجدته وقد خف فى خطوه، يسير قفزاً، وهو يستر بحركته تلك صغر حجمه وضآلته، ويستر برفعه رأسه وبخيلائه ضعفه، ويتحدى بصوته الحاد ذى النغمات المرتبة ضجيج المدينة العالى والقادم من بعيد. وكم امتلأت رأسى بالأفكار، وكم ارتبطت الأحلام بحركة البشر من حولى، فهناك صوت ينبعث من داخلى، ولكنه لايجروء على المرور من بين شفتى، يقول للصبية والشباب، الذين يمرحون فى الساحة الواسعة أمام الجامعة، أكثروا من لهوكم فالحياة حق لكم، ولاتخشوا شيئا، فلسوف نجعل من مصر، جنة الله فى أرضه، وتترامى الى مسامعى الإذاعة وهى تنقل كلمات الثائر الشعبى بيرم التونسى فى لحن الشيخ زكريا أحمد الخالد: ياحلاوة الدنيا ياحلاوة، خلوها حلوة ياجدعان، خلوها غنوة يابنات». وتصبح كل المسام مفتوحة لتشرب الشيء الجديد الذى أنتظره، أن أبدأ بصقل اختيارى بالعلم حتى أكون جديراً بما اخترته.

[٦]
وظهرت الأقنعة

بدأ العام الدراسى ١٩٦٤ / ١٩٦٥ وبدأت خطواتى معه سريعة ومتلهفة لمعرفة الكثير، وأذكر سهر الليالى، والسهاد الذى غزا حياتى لأول.. بل ولآخر مرة، انتظر التوجه إلى قاعة المحاضرات، وكأن شوقى، شوق عجوز طاعن فى السن لزيارة الحرم الشريف، بيت الله فى مكة، وقبر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فى المدينة، وأخذت أحسب كل التفاتة، وكل خطوة سوف أخطوها داخل الحرم الجامعى، وأصبحت كالوتر المشدود، ينتظر لمسة فنان، ليخرج أحسن الألحان. ومنذ أول محاضرة لى وكانت فى «مدخل العلوم السياسية» وكان يدرس هذه المادة الأستاذان «خيرى عيسى - بطرس بطرس غالى» بدأ رذاذ من الماء البارد يتطاير، فيصطدم بصفيحى الساخن، فيحدث صوتاً، ويتبخر فى ثانية، ولكن هيهات له أن يقوم بتبريد هذا الصفيح الملتهب، لقد كتبت كل المراجع التى أشار إليها الأستاذ، وذهبت من فورى إلى سور الأزبكية، وأحضرت أكثر من كتاب، ومن فورى رجعت الى المدينة الجامعية، وأخذت أتصفح الكتب، ووددت لو أن لى نظرة تصويرية تستوعب كل ما تقع عليه عينى فى برهة، لأنتهى من معرفة كل ما فى هذه الكتب فى هذه الليلة الأولى.. ومنذ اليوم الأول، وفى كل محاضرة على سبيل الحصر، برزت كسائل وكمحاور. وفى المحاضرة الأولى التى ألقاها علينا الدكتور بطرس غالى، التقت إشارة تداخلت معها بالسؤال عن المسألة الملاجيشية، ووضعت إطار المشكلة كمقدمة للسؤال والطلبة من حولى يتهامسون «ايه هى ملاجاش؟» فيجيب آخر هزرا «دى واضح

إنها حاجة بتتاكل» ويضحك الجميع. ويرد على بطرس غالى: «احنا هنا مش جايين نتناقش فى السياسة، إحنا جايين نتعلم سياسة»، وتساءلت: وأنا أريد أن أتعلم سياسة، فمشاكل افريقيا ملتهبة، وأريد اجابة تحلل لى ما أتابعه من تفاصيل الأخبار من خلال المذياع. فيقول: ده مش موضوعنا.

وتتوالى أسئلتى الحائرة فى كل المحاضرات، وأسمع نفس الاجابات السابقة، وتتوالى أيام العام الدراسى الأول، وتتحول ذرات الرزاز المتطاير، إلى شلالات من المياه الباردة، ويتحول صفيحى الساخن، إلى هيكل يقاوم تراكم الثلج الزاحف، الذى لايبغى فقط تبريدالسطح، ولكن النفاذ لتبريد القلب... ولكن هيهات.

وفى غمرة هذا الصراع، ومع توالى أيام عامى الدراسى الأول بالجامعة، بدأ سطحى الخارجى يبرد، ولم أعد أسأل، ولكن أخذت أفكر، وأميل الى التقوقع على الذات وبخاصة داخل قاعة المحاضرات، وإن كنت أحاول بعث حيويتى ونشاطى فى العلاقات الاجتماعية، وأضيف عليها ماكنت بدأته فى قريتى لاكتساب المشاركين لى فى أهمية الفكر والحركة السياسية التى تخدم الوطن، وذلك من اقامتى لحياتى اليومية فى المدينة الجامعية، غير أن النتائج كانت هزيلة وشديدة التواضع، وأخذت أستحث الأيام لتمر بسرعة، حتى تأتى اجازة الصيف فى نهاية العام، وأرجع الى قريتى، وأدخل حياتى الواسعة هناك، سواء فى ساعات انفتاحها التى تحفل بجلسات الفكر والنقاش والتسلية ورواية القصص والحكايات الواقعية والنوادر.... الخ، أو سواء فى ساعات دخولى صومعتى ومعى جهاز الراديو للمتابعة التفصيلية لما يدور فى العالم، وأخذت أضيف لهذا النظام ضرورة تحليل مسيرة هذا

العام الجامعى الأول، وتقييم حركتى.

وجاءت الإجازة، وأمسكت بالقلم، وسطرت كراسة كاملة تضمنت تفاصيل المذكرات التى كتبتها عن سنتى الدراسية الأولى بالجامعة يوما بيوم. وللأسف ضاعت هذه الكراسة منى، غير أن أفكارها وخطوطها العامة لم تضع من رأسى حتى الآن، لقد توصلت الى أن السياسة التى عرفتها فى واقع الحياة، غير السياسة التى أرادوا تدريسها لى، وقابلت فى الطلبة، زملائى، أناس يفهمون ممارسة السياسة بصورة تختلف عما تصورته عنها. إذن أخذ الوضوح يتراجع، وأخذ التشويش والخلط يتقدم ويزحف، وظهرت أمامى السياسة ذات الأقنعة، وذلك على النحو التالى:-

أولا: ماهى السياسة، وماهو الاقتصاد كما يدرَّس؟

السياسة كما فهمتها بتجربتى الذاتية الحية، هى علم وفن ممارسة السلطة العامة لتحقيق المصالح العامة.. والمصالح العامة، تختلف بل وتتناقض وتتصارع باختلاف من تمثلهم فمصالح إقليم مستعمر ومحتل تختلف عن مصالح الدولة التى تستعمره أو تحتله، ومصالح العمال والفلاحين وباقى المنتجين فى الوطن ذاته، تختلف عن مصالح من يملكون، ويتحصلون على الثروة نتيجة ملكيتهم هذه، رغم أنهم لايعملون نظير هذه الحصة الكبيرة. والسياسة كعلم - على هذا النحو - هى التى تبحث كيف تؤمن السلطة لمصالح الأغلبية، فإذا كانت بأيديهم، كيف تمكنهم من الحفاظ عليها، وإقامة التوازن بين المصالح الداخلية بينهم، نتيجة التناقضات الثانوية، التى تنشأ فى خط الحياة الطبيعية بينهم، لتمكينهم من حشد قوتهم ضد العدو الحقيقى. وإذا كانت السلطة بأيدى القلة من الأعداء. فكيف تهيىء للكثرة أن تؤول إليهم، وغالبا ما يكون ذلك بالثورة. وعليه، وكما فهمت من خلال

تجربتى الذاتية أيضا، فالاقتصاد هو الذى يبحث فى كيفية زيادة ثروة الأمة، وإعادة توزيعها حسب العمل، على اعتبار أن العمل هو منتج هذه الثروة، وإذا كان المنتجون محرومين من نتيجة جهدهم، فلابد من إصلاح هذا الوضع، وإذا كان المالكون يأخذون مالايستحقون فلابد من منعهم من ذلك. حتى تستقيم الأمور، وتأخذ العدالة مجراها فى المجتمع، ويتم حشد الجهود لزيادة الإنتاج، وتنمية وتطوير ثروة المجتمع، أى ثروة الوطن، أو الأمة.

كان هذا فهمى، فكان شوقى لمعرفة كيف يتم ذلك، غير أن ما كان يدرس لى فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية أمراً مختلفاً، بل وشديد الاختلاف. ففى دائرة المفاهيم الكلية، لايتم النطق ببنت شفة ترسم لى الطريق. فالسياسة لديهم «هى فن الممكن»، والاقتصاد لديهم «هو علم الندرة» أى العلم الذى يبحث فى كيفية مقابلة الامكانات القليلة، بالاحتياجات الكثيرة.

والسياسة التى هى فن الممكن، لاتعنى لمن يكون الفن، فالسلطة حقيقة مجردة، لاتهمهم طبيعتها، ولكن يهمهم فقط وفى أحسن الأحوال، كيف تسير، فأبو علم السياسة، وآباء الديمقراطية هم الأغريق أمثال أفلاطون وأرسطو. ولكن السياسة لمن؟ وحكم الشعب لمن؟ هل للطبقة القليلة المسيطرة، والتى هى ضد الكثرة المحرومة، والتى لاتسمى شعباً، هذا لايهم، فالديمقراطية هى حكم الشعب، أما مسألة تطور مفهوم الشعب، مسألة غير مطروقة. ومصر بتاريخها الضارب فى أعمق أعماق التاريخ، ليست محل بحث، فتاريخ السياسة كفكر وكعلم يبدأ مع الأغريق. هكذا تقول الأسماء الأكاديمية الأوربية، التى يجب أن نحفظها عن ظهر قلب، فبمقدار ذكر هذه الأسماء، وكتابتها بالحروف

اللاتينية، ومعرفة ماذا يقولون، تكون أكاديميا.

وفى عامى الدراسى الأول بالجامعة، قام الدكتور سعيد النجار بتدريس «مبادىء علم الاقتصاد» لنا، وكان الدكتور سعيد النجار، أستاذًا نجمًا بكل ما تشير إليه قضية النجومية فى عصرنا الراهن. فكان الطلبة يتهافتون على حضور محاضراته، وقد لاحظت أن المدرج يمتلىء بأكبر من العدد المعتاد حضوره أثناء محاضرته، كما لاحظت حضور وجوه جديدة، ولما سألت علمت أن الطلبة من كلية الحقوق، ومن كلية التجارة تأتى لمتابعة محاضرة الدكتور سعيد، والرجل يتمتع بجاذبية وحضور يتفوق على الحضور المسرحى لأكبر الممثلين المشهورين آنذاك، وكنت أرى الوجوه وهى تتابع محاضرته، وكأنها دخلت فى حالة من الاندماج والتقمص، لم أرها فى الأيام والشهور التالية فى جمهور المسرح القومى، فها هى عضلات الوجه تنقبض، وهاهى تنفرج. وتجد الكآبة والابتسام على الوجوه، وكأنهما طفلان يلعبان لعبة الاستغماية، يظهران لبعضهما، ويختفيان من بعضهما فى تداخل لين وبسيط.

ومع ذلك كنت أخرج من محاضرة الدكتور سعيد النجار، وكأن العارض قد ركبنى (حسب تعبير أمى) والعارض هو الشىء الذى يعترضك فيحولك عن طبيعتك، وهذا القول كان يفترض الطبيعة الهادئة والسلسة، والعارض هو الذى يبدلك، حتى تشتعل نارًا وهياجًا «وكانت أمى تقول الواد ركبه العارض» كناية عن الهياج والغضب الشديد - وأحيانا كانت تسبنى فتقول: «روح جتك العارض» أى أذهب لعل العارض يركبك - أى يُصِبْكَ الغضب والهياج. ولم يكن الغضب يتملكنى فى محاضرة الدكتور سعيد النجار، لأن الرجل يختلف معى، فالاختلاف لايسبب العارض لى. ولكن لأننى أرى الرجل يجتزئ

الحقيقة حتى يطمسها، ويقدمها لك مطموسة، على أنها الشمس الساطعة، فالرجل رغم أنه رأسمالى التفكير، فإننى لم أكن اشتراكيا حتى هذه الفترة، ولكن ما كان يغضبنى أن الرجل يتغاضى عن تحديد الرأسمالية، وتحديد الاشتراكية، ويعطيك شيئا على أنه الحقيقة المحايدة، فنجده تركيبة جزئية ومبتسرة لاهى الحقيقة، ،ولاهى العلم.

وأذكر كيف امتدت المعارك بينى وبين زميلى فى الدراسة، وفى السكن فى حجرة واحدة فى المدينة الجامعية، وهو أستاذ اقتصاد الآن فى نفس الكلية، وكنت أردد دوما أن الدكتور سعيد النجار يجتزئ العلم، ويجتزئ الحقيقة، وليته يقدم الرأسمالية باعتبارها الحقيقة الاقتصادية، فيسهل لنا أن نتفق أو نختلف معه، ولكنه يصر على أن يقدم لنا هذا الجزء على أنه الحقيقة، وعلى الرغم من أن معلوماتى، لاتمكننى من معرفة الحقيقة، فاننى متأكد، أنه لايقدم الحقيقة العلمية. فكان صديقى يستشيط غضبا، ويؤنبنى، كيف لطالب مبتدأ مثلك أن يمتلك حق التقييم العلمى، لمثل هذا الاستاذ الجهبذ، الذى يسعى الجميع إليه، والذى يتمتع بالسلاسة والقبول.

وكنت أقول: أنه يردد مثله الشهير عن الوفرة والندرة كمحدد للقيمة ويضرب مثلا بوجودك على حافة نهر حيث وفرة المياه، فتكون بلا ثمن، ولكن تصور معى ياصديقى، أننى معك هناك على حافة النهر هذه، وبما أنى فلاح، وأنت اسكندرانى متأفف دائما، إن أنا ارتميت على الشاطىء أعب من الماء عبًا، وأنت ترفض ذلك، فاشترطت عليك حتى أنزل المياه، وأملأ الآنية لك، أن تعطينى عشرة قروش، فهل ستدفعها لى؟ فيرد علىَّ متعجلا، طبعًا، أهين قرشى ولا أهين نفسى. إذن الماء على حافة النهر أصبح بثمن رغم أنه متوافر. إذن القيمة تتحدد ليس بالوفرة

أو بالندرة، ولكن بالعمل المنتج لها، ويتعالى الصراخ والشجار حتى نتوافق على النوم بهدوء، أو المذاكرة حتى لايتطور تصايحنا إلى معركة بالأيدى... وتتوالى الأيام على هذا النحو.

وهكذا مر عامى الدراسى الأول فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، لأتعلم سياسة ملساء، واقتصادا أملس، لايمكن الامساك بهما، سياسة يقال عنها إنها فن الممكن، ولكنها لم تشر إلى الواقع المصرى أو العربى أو الدولى، ولو ببنت شفة، واقتصاد يدرّس الندرة ويبحث فى التوزيع على أسس فنية فقط، ولا ينظر أو يفكر فى إنتاج القيم، وتكوين ثروة المجتمع.

ثانياً: السياسة ليست مهنة النضال، ولكنها مهنة البحث عن الوجاهة والحظوة

التفتت أنظار الطلبة لى منذ اليوم الأول فى الجامعة، فأنا طالب محاور أنهض فى كل محاضرة، وأوجه الأسئلة للأساتذة، وفى البداية اختلف الطلبة فى تقييمى وفهمى، فمعظم الطلاب أصابهم غيظًا مكتومًا منى، وصنفونى على أننى صنف من الناس أحب الظهور، وأحاول لفت الأنظار الىّ. واشتط آخرون وصنفونى على أننى أهوى الاستعراض بالمعلومات، وادعاء الثقافة، غير أن غالبيتهم تراجع عن هذا التقييم عندما عرض علَى البعض الترشيح فى انتخابات اتحاد الطلبة، ولكنى رفضت، وازدادوا تفهمًا لى عندما اكتشفوا عمق عاطفتى الوطنية، وفهمى للسياسة، ولجديتى فى هذا المجال.

وعندما بدأت المناقشات الحميمة بيننا كطلبة، بدأ السؤال التقليدى يطرح نفسه، لماذا كلية الاقتصاد والعلوم السياسية؟ وقبل أن أرصد الاجابات، كانت الخريطة الاجتماعية لطلبة الكلية خريطة غير طبيعية

أو غير معتادة، فالغالبية تنتمى لأسر من الوجهاء أو النبلاء، ونجوم المجتمع، من كبار الموظفين والضباط، والأقلية كانت من أبناء الأسر المتوسطة، والفقراء نادرون.

لذلك كانت غالبية الاجابات عن سؤالنا، أريد أن أكون سفيراً، لأن السلك الدبلوماسى قرين الوجاهة والنفوذ والدخل المحترم، أما أبناء المتوسطين والفقراء فكانت إجاباتهم حائرة، فمنهم من يقول أنا دخلت الكلية علشان مجموعى كبير وبخاصة من كان قسمهم هو القسم الأدبى فى دراسة الثانوية العامة، وتراهم يندمون لدخولهم الكلية، بعدما عرفوها ومنهم من حدد هدفه فى أن يصير معيداً ومنتمياً لسلك التدريس بالكلية أو الجامعة، ومنهم من يقول، «أنا عايز أبقى صحفى أو إعلامى» وهذه الكلية تقربنى من ذلك، عدا قلة كانت ذات ميول سياسية، وشاع بيننا كطلبة من هذا النوع قولتان: الأولى: تهكمية وتقول، أنا بقى لا أنفع أن أكون سفيراً، ذلك إن احنا ولاد ناس غلابة، وأحسن وضع لمثلنا أن يكون: «صفيرا متقطعا»، والثانية: كانت تعليقا من زميل لنا كان أول الثانوية العامة قسم أدبى، قال يا أخى أنا لاحظت المدرج كثيرا، فوجدت المثل البلدى محققاً، أى أن: «البيض الفاسد بيتدحرج على بعضه»، وشكلنا فريقًا للبحث عن أصل المثل، ووصلنا الى أن الدجاجة الأم، أى الحاضنة لاتستطيع أن تضع كل جسمها ليغطى كل البيض، وحتى عندما تفرد جناحيها، لاتلمسه كله، وتبقى مساحة من البيض لايطولها دفء الأم الحاضنة لاتخرج كتاكيت، وفى إحدى المرات، صاح زميل، ليه يا أخى، اخترت هذا المثل؟ هناك مرادف له «الطيور على أشكالها تقع». غير أن الجميع أقر بوجود مترادفات كثيرة لهذا المثل، لكن الصيغة الأدق، والأكثر تعبيرا عن واقع الحال هى المثل

الأول، «أى أن البيض الفاسد بيتدحرج على بعضه».

ولكن الشيء الذى اكتشفته، من اجابات معظم الطلبة الزملاء، أن هناك معنى لمهنة السياسة غير المعنى الذى أفهمه، فالسياسة عندى عملية نضالية لتثبيت سلطة قائمة، إذا كانت تعبر عن مصالح الأغلبية أو الأقلية حسب انتماء المناضل، وهذا النضال يمتد لتحقيق مهام عديدة، تتطلبها تلك المصالح. أو أن السياسة نضال من أجل إصلاح السلطة العامة، عندما تتنكب طريقها فى إقامة التوازن المصلحى للحلف الطبقى أو الاجتماعى؛ التى تعبر عنه هذه السلطة، أو أن السياسة هى عملية نضالية لتغيير السلطة العامة، عندما تصطدم بمصالح الأغلبية، وتعبر فقط عن مصالح الأقلية، وهذا النضال الأخير قد يساوى النضال من أجل الثورة. والسلطة فى هذا الفهم للسياسة، تعنى أنها تكليف وكفاح، وليست تشريفًا ووجاهة وسطوة.

غير أننى رأيت من معظم زملاء الدراسة، مفهوما آخر، فالسلطة العامة، حق موروث لطبقة معينة، والوراثة السياسية لاترتبط بالنظام الملكى فحسب ولكنها تمتد الى وراثة عامة وشاملة، موضوعها السلطة العامة، التى تهدف إلى اقرار هذا الإرث الطبيعى، فى الوجاهة والحظوة والثروة. وعلى الرغم من أن أبناء هذه الطبقة كانوا لايتعاطفون مع سلطة ونظام ثورة ٢٣ يوليو بقيادة جمال عبدالناصر، فإن خبرتهم بالسلطة، كمصدر للثروة والوجاهة والنفوذ، كان يتسع بالسلطة العامة، ليجعل منها هرما إداريا موروثا، لايهم من يعلو فوقه، فمن يسكن فى القمة قد يملك بعض التوجيه، ولكن جسم الهرم العتيد، قادر على الحركة الذاتية، خارج حدود هذا التوجيه القيادى، بل إنه قادر فى النهاية، على أن يمتلك اتجاهًا، يجعل من يعلو الهرم، منساقًا إليه،

مستسلمًا لآلياته، منصاعًا له، بل ومندمجا فيه.

وعى عقلى الغض هذه الحقيقة، فى عامى الدراسى الأول فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وربطت لماذا الاصرار على مصطلح النخبة السياسية؟، ولماذا تضم هذه الكلية تركيبة اجتماعية غير معتادة؟، فالهرم الاجتماعى للطلبة مقلوب، والأغنياء كثرة، والفقراء قلة، وأدركت لماذا تصر الكلية على تدريس فكر القلة، على أنه الحقيقة العلمية، وأنه الاتجاه الاكاديمى، وأدركت أن السياسة، على هذا النحو، تحتم وجود فكر له سدنة، ونظام أشبه بالنظام الكهنوتى، وعليه فهى علم الخاصة، بل خاصة الخاصة، وعليه فالمهم فيها ألا تثير سؤال لماذا؟ فقط عليك أن تثير سؤال كيف؟ أى كيف تمسك بالسلطة؟ وكيف تحافظ عليها؟، وكيف توظفها لخدمة هذا أو ذاك؟ وكيف وأنت توظفها، تحصل على حصتك؟، وكيف هذه، لاتشغل نفسها بالأسباب والعلل، ولا بالعلم، ولا بالأكاديمية، فقط هى تعرف من أين تؤكل الكتف، أى كيف يتم التهام الفريسة.

وأنا فى وحدتى هذه، عصفت بى الأفكار، وتحولت صومعتى مسرحًا لإنجاز مهمتين: الأولى المتابعة الاخبارية لمعظم نشرات الأخبار الناطقة بالعربية.

الثانية: تسطير همومى وأفكارى.

غير أنى قاومت حالة الاحباط التى بدأت تتسلل إلىَّ، وأخذت أبحث فى ذكريات عامى الدراسى الأول فى الكلية عن الايجابيات، ووجدت أن أهم هذه الايجابيات تتركز فى: إقامة علاقات حميمة مع بعض الزملاء، بعضها يمتد إلىَّ الآن. - الدأب والمتابعة الحصرية فى حضور كل الندوات التى عقدت فى الكلية، وفى الجامعة حسب معرفتى بها - مافتحته أمامى بعض المواد من معارف وتحديداً، المدخل إلى القانون،

والجغرافيا الاقتصادية أى الموارد الاقتصادية. وقررت أن أعلو على نفسى، وأن أمارس حياتى المعتادة، وتعددت جلسات المصطبة من جديد، وانغمست فى الحياة الثقافية الثرية لبسطاء قريتنا. ورأيت صحة هذا القول: «راحت السكرة وجاءت الفكرة» فأخذت أضع خطة جديدة للعام الدراسى التالى، تنشط ايجابيات السنة الأولى، وساعدنى على ذلك. أن فرصتى فى دخول المدينة الجامعية قد ضاعت، فعلى الرغم من حصولى على تقدير امتياز وجيد جدا لست مواد من ثمانى هى مواد العام الأول، فإننى رسبت في مادة اللغة الانجليزية، وبقدر حزنى بل وبكائى، لأنها أول وآخر تجربة رسوب دراسى لى، إلا أن شيئا فرحا كان يجتاحنى، وهو أننى لن أدخل المدينة الجامعية. وسأكون حراً فى حياتى، وتكتمل صورتى المدنية، التى لاحياة لى خارجها.

ومع ذلك قل اشتياقى لبداية السنة الدراسية، وكثرت قراءاتى، وازدادت جلساتى مع الأصدقاء، نناقش مسائل الوطن، وأنقل لهم تجربتى المحبطة. ويبلغ صخبنا منتهاه عند هذا الحد. وذلك لأنهم أخذوا يقارنون الوضع بين حالتين: إجازة صيف عام ١٩٦٤، وإجازة صيف عام ١٩٦٥ بالنسبة لى. وأقارن أنا الآخر بين رؤيتين للسياسة عرفتهما، واقتنع أن السياسة تلبس أقنعة، وأعيد تفهم قولة الإمام محمد عبده، والتمس الحكمة لجمال عبدالناصر فى قولته لتوريث السياسة لبنيه، ولكن خيارى يظل ثابتاً للسياسة على النهج النضالى، وأجد ولأول مرة مجالا للنضال العملى قد فتح أمامى، فكثيراً، ما ندمت على أننى ولدت متأخراً، فقد انتهى عصر ما قبل الثورة بمتطلباته النضالية الحادة، وكنت أحس بعدم الرضا، لأن النضال لامعنى له الآن على النهج المثير، ولكن أخيراً تيقنت أن النضال للمحافظة على السلطة لصالح الأغلبية لايقل عن النضال من أجل الوصول إليها.

الفصل الثانى
الانخراط والمشاركة السياسية بتلقائية

حتى نهاية الصفحات السابقة، ظلت تجربتى السياسية غير منظمة أو غير مؤطرة سواء على مستوى النظرية أو على مستوى التطبيق، وقد آن لهذا الموقف أن يتطور ليسلم نفسه لمرحلة جديدة، أتلامس فيها مع الواقع السياسى الجارى حينئذ.

وفى هذه المرحلة الجديدة ظلت البراءة هى تصورى الوحيد عن السياسة، وظهرت السياسة ذات الأقنعة تطل برأسها علىّ، لتضغط على التصور البرىء، وليتضح لى أن البراءة تقابلها الأقنعة فى السياسة، وأن السياسة لها أكثر من نهج للسير بين البراءة وبين والمؤامرة، بين الوضوح وبين التعقيد والخلط والتشويش، بين الصراحة والشفافية وبين الكذب والخداع.

إن هذه الأبعاد التى أطلت على، للسياسة: تصاحبت بمعايشة متلامسة، ذلك أن السياسة انتقلت بى من نطاق الفكرة، إلى نطاق الممارسة، ومن صومعة الذات إلى حقل الواقع المعاش والثرى، ورغم ذلك ظلت البراءة السياسة هى كل تصورى عن السياسة، فلما أصدمت بوجود سياسة غير بريئة ماكنت بعد قد قررت الدخول إلى آتون الصراع السياسى، فدخولى كان مجرد انخراط تلقائى، فكما كان تكوينى تلقائياً حسب مابينت الصفحات السابقة، فإن مشاركتى السياسة، ومدخلى العملى للسياسة تشكل على أساس تلقائى أيضا، بمعنى أن ارادتى السياسة لم تكن قد تكونت بعد، وقدرتى على الاختيار

لم تكن قد تجسدت بعد، ومن ثم ارتبطت مشاركتى السياسية على أسس تلقائية، غير أن تلك التلقائية علمتنى أن المدخل التلقائى لايعنى أنه يفتقد التطور المرتبط بالاختيار، غير أن هذا التطور كان لابد أن يجرى أمامى على أرض الواقع لكى أدركه، حتى تتحدد الأسس الموضوعية التى تحكم عملية الاختيار المطلوبة تلك. وبين تلقائية المشاركة والتطور إلى مرحلة الاختيار تطول الأحداث والأيام لترسم صورة السياسة بين الواقع المعقد والحلم البرىء، وهذا ماترسمه الصفحات التالية:-

[٧]
ودخلت ميدان السياسة

بدأت عامى الجامعى الثانى فى العام الدراسى ١٩٦٥ / ١٩٦٦ ومر هذا العام بشراء بالغ علىّ حتى يمكن القول أنه العام الذى بدأت فيه دخول الميدان السياسى سواء فى مجال الفكر والنظرية أو فى مجال الممارسة والكفاحية، وذلك على النحو التالى:-

أ- ففى المجال الأول، أخذت دراستى فى قسم العلوم السياسية، تفتح بعض الثغرات أمامى فى الجدار الأكاديمى الذى استقر فى ذهنى باعتباره ستارة أو قناعا يريد اخفاء الحقيقة السياسية ويريد تخريج أناس، يمكن تأهيلهم لوظيفة مساعد معمل أو فنى بحث يحافظ على أن تظل السلطة العامة مجلبة للثروة والسطوة والحظوة. وارتبطت هذه الثغرات فى هذا الجدار بثلاثة أسماء: الدكتور عز الدين فودة، الذى أخذ يدرّس لنا القانون الدولى ومشكلاته وهو يعلم أن العالم يضطرب بصراع حاد

بين الاستعمار وحركة التحرر الوطني، والدكتور عز استاذ متمكن يتمتع بالقدرة المنطقية، والتبسيطية الشديدة وأخذ يلمس ببراعة هذا الصراع الضارى وأثره على القانون الدولى والمشكلات الدولية - أي أثره على النظام الدولى عموما -أى أن الرجل لمس كبد حقيقة النظام الدولى السائد آنذاك.

والدكتور سمعان بطرس، وقد درّس لنا وعلى مدى أعوام ثلاثة تاريخ العلاقات الدولية ومتابعاتها، وقد أبرز لنا الرجل أن اختلاف الجغرافيا السياسية أو تشابهها تحكم الصراعات الدولية، وأفهمنا أن المصالح الدولية هى بطبيعتها مصالح مختلفة ومحل صراع. وعلى الرغم من التواضع الشديد لهذا الرجل وعدم البروز كمحاضر. فإنه برز كباحث متسق البنيان الفكرى، وعى أثر الجغرافيا السياسية كمحدد لمصالح الأمم فى الصراع السياسى الدولى.

والدكتور حامد ربيع. وقد درّس لنا مواد تدور حول محور النظرية السياسية لمدة ثلاثة أعوام، وعلى الرغم من اضطراب البنيان الفكرى للرجل، وعلى الرغم من أنه يعد الأب الشرعى لنظرية النخبة السياسية فى المدرسة السياسية العربية وعلى الرغم من أن هنرى كيسنجر كان مثله الأعلى الذى يترسم خطاه فى أهمية تثبيت فنى السياسة كمستشارى للأمن القومى، وأهمية ايجاد منصب مستشار الأمن القومى ذاته، فإنه ساعدنى فى النفاذ لفهم جوهر السياسة؛ وتبين البعد المعرفى «الابستمولوجى» لها. ولو بإثارة فكرى، فالرجل عرض لنا الفكر السياسى الاجتماعى لبعض علماء المسلمين، وبخاصة ابن خلدون وأوضح أن العصبية «أى الرابطة المجتمعية لمجتمع مازال فى مرحلة التطور الأول التى تقع بين رابطة علاقات الدم، ورابطة علاقات

الإقليم أو القوم» هى محدد للصراع والتطور السياسى، ومفسر للحركة الاجتماعية - السياسية أو أساسها الصراعى.

وتكلم الرجل عن ماركس وأهميته، وعلى الرغم من أنه أشبعه تهكماً وهدماً وتجريحاً، فإنه بين وأوضح تماسكه الفكرى والنظرى والتحليلى، وأنه هو الذى عمم أثر التطور الاقتصادى الاجتماعى بما يفرزه من صراع طبقى على الحركة والتطور المجتمعى والسياسى والاقتصادى، وأنه حدد نظرية الصراع الطبقى باعتبارها دافعاً للصراع بل للحركة والتطور الاجتماعى الاقتصادى، ومن ثم التطور السياسى. كما أن الدكتو حامد درس لنا فى إحدى السنوات «الاتصال الجماهيرى» وعلى الرغم من أنه صور الحركة الجماهيرية باعتبارها حركة غوغاء تحكمها نفسية القطيع «أى المجموعات الحيوانية» وأن النخبة لابد لها أن تعرف ذلك حتى تتحكم فيها، وتوجهها فإن هذا أوضح لى بالمعنى المخالف أن التراكم الأخير أو التحرك الأخير الذى يشكل الحد الفاصل بين الحياة المعتادة والتحول أو الانقلاب الثورى هو تراكم وتحرك يقع بأيدى الجماهير.

لقد فتح د.حامد ربيع أمامى ثغرة واسعة فى فكرة وفكر النخبة السياسية على نمط المدرسة السائدة فى أمريكا حينما ترك لى مساحة تحتاج لبحث وإجابة، هى أهمية الوعى وعلاقته بالثقافة كمحدد للحركة الاجتماعية الجماهيرية، وأذكر تجربة شخصية ارتبطت بهذا الموضوع فى نهاية سنة ١٩٦٧ ،أخذ الدكتور حامد يفيض فى شرح نظرية «حركة القطيع» وجعل من السود فى أمريكا مثلاً مفصلاً لإبراز الفكر الأمريكى السياسى فى هذا الصدد، وأخذ يوضح كيف أن الرجل الأسود يعد سبباً فى بروز تلك النظرية، وواصل ذكره لوقائع محددة

فهذا أسود مارس جريمة الاغتصاب على بيضاء، فتحول فقراء البيض إلى قطيع هائج يدمر ويحرق كل مافى طريقه فى حى الزنوج بمنهاتن «حى فى مدينة نيويورك»، وتواصل فى استنتاجاته بأن العنف الجماعى هو ناتج حركة الفقراء على اعتبار أن الطبقة العاملة ذات طبيعة فاشية ووجدتنى انتفض واقفا وتحولت الكلمات على شفتى إلى زخات متتابعة من صواريخ الكاتيوشا، بل وتحول فمى إلى منصة اطلاق فى أكمل حالات صلاحيتها، وبدا عقلى كأنه مقاتل بارع يدير سلاحه بوعى وبراعة، وقلت للرجل كيف لك أن تقلب الحقيقة على هذا النحو، الفقراء والطبقة العاملة يضطرون أحيانا لممارسة العنف الجماعى، وهذا عنف راد أوعنف دفاعى لمواجهة عنف هجومى ساحق ومسيطر ومحطم لذلك فهذا العنف المبادر هو الذى يتصف بالفاشية لأنه ينطلق من أرضية الإحساس بالتفوق وبأحقية الاخضاع والتحطيم والسيطرة على من يمارس ضدهم، وأن العنف الدفاعى يتم للمحافظة على الذات والمصالح العامة وهو فى أكثر الأوصاف شططا هو عنف ثورى، والعنف الثورى عدوه الاساسى النزعة الفاشية، وأحس الرجل بارتباك شديد سببه هجومى المباغت والذى اقترن بتطاول واضح من قبلى، وبلباقة احتوت تطاولي من جهته غير أنه لم يملك أن يصمد لتحليلى فأجاب أنا: أقوم بشرح نظرية أمريكية، فقلت له إنك تقدمها فى إطار أنها حقيقة أو مسلمة ولم تشر ولو من طرف خفى أنك تتناولها تناولاً نقدياً.

وصمت الرجل وواصل محاضرته، وطلبنى بعد انتهاء المحاضرة وعنفنى وهددنى وطلب منى عدم حضور دروسه غير أن قوة حجتى جعلتنا نصل لحل وسط، أن أقبل مايقوله ولا أعلق، ولايهم درجة قناعتى

به أو رفضه، فلى ما أعتقد، غير أنى رددت بأن هناك خطوطًا حمراء فلا يجب التهكم على المفاهيم العامة المستقرة كالجماهير والشعب والطبقة العامة، ووافق. غير أن الرجل ظل يتذكر هذه الواقعة، التى كما أتصور قد ولدت لديه مشاعر وخلجات متعارضة تراوحت بين الإعجاب بمتابعتي لمادته وشجاعتي فى النقاش وقوة حجتى وبين الرفض والغضب منى لتطاولى عليه شخصيا وهزيمتي له منطقيا لقد ظل يتذكر هذه الواقعة، وفى أول لقاء تم لى معه فى احتفال بيوم الخريجين، بعد ذلك بخمس سنوات وكنت أصحب معى زوجتى أشبعنى تهكمًا وأفاض علىّ نقدا وتبكيتا، وعلى الرغم من ذلك فقد تحسن فكر الرجل كثيراً قبل وفاته، وعالج بدقة قضايا الصراع العربى - الصهيونى واتجاهات الحملة الاستعمارية لتفتيت الوحدة الوطنية المصرية وطبيعة التحرك التآمرى الاستعمارى فى هذا الصدد.

ب-وفى عامى الدراسى الثاني بالكلية أى فى سنة ١٩٦٥ / سنة ١٩٦٦ تنوعت قراءاتى وانتقلت معارفى السياسية من المرحلة السماعية إلى المرحلة الإطلاعية فحتى هذا العام كانت معظم معلوماتى ومعارفى السياسية مكتسبة أساسا من الإذاعات المسموعة وأن جهاز الراديو كان وسيلتي الأساسية فى المعارف السياسية، غير أن مرحلة الاطلاع والقراءة، وبروز المجلات والكتب كوسيلة معرفية أساسية بالنسبة لى فى المعرفة السياسية بدأت سنة ١٩٦٥، وفى سنة ١٩٦٥ اغتنت الحياة الثقافية السياسية فى مصر بطريقة حدية، أى أن سنة ١٩٦٥ تعتبر حدا ثقافياً سياسياً فاصلاً، ففى هذه السنة صدرت ثلاث دوريات شديدة الأهمية بالنسبة لجيلينا: الدورية الأولى. مجلة السياسة الدولية وهى مجلة فصلية تصدر عن مؤسسة الأهرام ومنذ صدورها حتى

انتخابه سكرتيراً عاما للأمم المتحدة ظل الدكتور بطرس غالى رئيساً لتحريرها حتى فى سنوات شغله لمنصب وزير الدولة للشئون الخارجية والذى استمر فيه لأكثر من ١٣ عاما، وقد عكست هذه المجلة الطابع القانونى والتنظيمى للعلاقات الدولية وإن ارتبط بروزها فى الحياة العامة بالعلاقة التابعة للسلطة المصرية، فعكست في فتراتها الأولى أهمية حركة عدم الانحياز فى السياسة الدولية وأهمية إصلاح التنظيم الدولى المتمثل فى منظمة الأمم المتحدة لصالح دور أكبر لدول عدم الانحياز، وأهمية إصلاح النظام العالمى لصالح سد الثغرة الناتجة عن اختلاله والذى يدفع بالاغنياء كى يزدادوا غنى وبالفقراء كي يزدادوا فقرا. وأبرزت المشكلات الناجمة عن المرحلة الاستعمارية فى القارات الثلاث أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. (بعد ذلك وففى فترات تالية تبنت فكر النخبة ودور قوى الشمال فى النظام العالمى ومفاهيم الأمن القومى وحقوق الإنسان ومشكلات الأقليات والقوميات حسب النهج الغربى عموما والأمريكى خصوصا فى الدراسات السياسية، واختلف تناولها لقضايا الصراع العربى الاسرائيلى حسب توجه السلطة المصرية حتى أسلم الدكتور بطرس غالى رئاسة تحريرها لرجل تعرفت عليه فى سنة ١٩٦٥ وظل صديقا حميما لى حتى اليوم رغم تقلبه الفكرى والسياسى ورغم اصرارى الشخصى على اتباع ذات الخط الذى انتهجته من يوم معرفتى به حتى الآن، وهو الدكتور أسامة الغزالى حرب.

الدورية الثانية : ظهرت فى سنة ١٩٦٥ هى «مجلة الفكر المعاصر» وكان يرأس تحريرها الدكتور زكى نجيب محمود، وكانت تصدر عن الأهرام أيضا، وأهم مالفتت نظرى إليه هذه المجلة هو الاهتمام بالفلسفة والقضايا النظرية وتتبع الفروق بين المدارس الفكرية والنظرية المختلفة،

ورغم معاداة الدكتور زكي نجيب محمود للماركسية وتبنيه الوضعية المنطقية فإنه فتح لي مجالاً ضرورياً للقراءات والدراسات الفلسفية .

الدورية الثالثة : مجلة الطليعة وكانت تصدر عن الأهرام وهي مجلة شهرية رأس تحريرها الاستاذ : لطفي الخولي، وظلت هذه المجلة تصدر بانتظام حتى أوقفها الرئيس أنور السادات سنة ١٩٧٨ على ما أذكر وحاولت الصدور مرة أخرى غير أنها لم تستمر ، وهذه المجلة تعتبر الأم الفكرية والسياسية لي وهي من أكبر الاساتذة في حياتي الفكرية والسياسية ، وتعرفت من خلالها على أهم كتّاب الاشتراكية العلمية في مصر ، وفيما بعد ترافقت مع كثير من هؤلاء في مسيرة الكفاح الوطني والديمقراطي والطبقي ، ومع ذلك لن أنسى الدور الاستاذي لهذه المجلة وكتابها في صياغة فكري السياسي ، ولاشك أنني معها وبها دخلت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية التي كنت أتصورها وأبغيها ، فقد تابعت من خلالها كل قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية وقضايا العالم من منظور وطني تحرري ، وقضايا الأمة العربية وهي التي خطت الحدود الفاصلة للتصنيف العلمي والعملي للقضايا السياسية أمامي ؛ والذي مايزال صالحا حتى الآن بل أراه سوف يستمر لفترة ،وهو أن قضايا السياسة في مصر تتمحور حول :-

* المحور الوطني -القومي بآفاقة العالمية وبما يحويه من قضايا الأمن القومي وقضايا التحرر الوطني وقضايا الصراع العربي - الصهيوني ، وقضايا العلاقات الدولية وآفاق البعد الجغرافي -السياسي ، والبعد المحدد لطبيعة الرابطة أو الجامعة السياسية لمصر عبر مراحل تاريخها . . الخ

* المحور الاقتصادي - الاجتماعي والذي يبرز قضايا الصراع الطبقي

وقضايا التنمية وقضايا الضرورات الاجتماعية كالرعاية الصحية، والتعليمية وقضايا الخدمات وقضايا الاقتصاد والدخل والتوزيع والإنتاج.. الخ.

* المحور الثالث وهو المحور السياسى- الديمقراطى، والذى يتناول شكل النظام السياسى وشكل الديمقراطية وطبيعتها الطبقية وآليات السلطة. وقضايا النضال الدستورى وسيادة القانون وتوزيع السلطات وأوضاعها الرقابية وقضايا تداول السلطة والشكل الإدارى للدولة أو السلطة.. الخ.

وحينما أذكر دور هذه الدوريات وأثرها الثقافى والسياسى علىَّ وعلى جيلى لابد أن ننوه بالدور البارز للكاتب السياسى البارع محمد حسنين هيكل، لما كان لجهده الإدارى والتنظيمى فى اصدار هذه الدوريات عن المؤسسة الصحفية التى كان يرأسها ويديرها هذا أولا وثانيا لكونه أهم كتّاب مصر السياسيين فى تناول البعد المرتبط بالمحور الجغرافى - السياسى وهو بعد صانع لطبيعة السياسة المصرية وكيف كان لهذا الرجل من فضل فى بناء معارفى السياسية، وأهمية البعد الجغرافى السياسى كبعد معرفى أى كمحدد جوهرى لموضوع السياسة عموما بالنسبة لأى وحدة اجتماعية، وخصوصا بالنسبة لمصر عبر مراحل تطورها المجتمعى على مدى التاريخ، ذلك البعد الذى يتطابق حاليا مع البعد القومى المبنى على تطور الرابطة المجتمعية إلى رابطة الأمة من المصرية القديمة حتى العربية المعاصرة.

جـ- فى المجال الواقعى مجال الممارسة والكفاح.

كما سبق وأشرت يعتبر العام الدراسى ١٩٦٥ / ١٩٦٦ هو البداية الفعلية لدخولى ميدان السياسة العملية والكفاحية، ففى نهاية سنة

١٩٦٥ وجدت اسمىٰ ضمن قائمة مكونة من تسعة أشخاص معلقة فى فناء الكلية بضرورة التوجه للإدارة وعندما ذهبت قابلنا العميد الأستاذ الدكتور محمد زكى شافعى، وهو رجل يتسم بعمق التوجه الوطنى الديمقراطى، وقد كان يدرّس لى مادة «النقود والبنوك» فى هذا العام. أى عامى الثانى فى الكلية. وكنت أرى فى معالجاته العلمية منهجاً وطنياً، وروحاً بحثية متوازنة تطرح الظاهرة الاقتصادية فى أبعادها الكلية، وإن كانت إطروحاته هادئة وغير محركة. وأفهمنا أننا سنتوجه غدا لمهمة سياسية حيث يجب أن نلتحق بمعسكر إعداد القادة للشباب فى حلوان، وكان خبر هذا المعسكر أخذ ينتشر ويتردد فقد تلاقى الرئيس جمال عبدالناصر فيه أمس مع الدارسين به فى لقاء نشرته الصحف وقد تضمن حوارات حية لقضايا الوطن آنذاك، وعرفنا من العميد أن كليتنا شاركت بثلاث آنسات فى الدورة التى انتهت بالأمس، وقابلت الزملاء ونظمنا طريقة ذهابنا، وقد توزع التسعة كالآتى: أربعة من الصف الرابع هم:- مصطفى الفقى - محمد عبد الشفيع عيسى - خالد الكومى- محمد عز الدين. وأربعة من الصف الأول هم: أسامة الغزالى حرب، أحمد يوسف أحمد، عبدالقادر شهيب، عثمان محمد عثمان وكان هؤلاء الأربعة قد سجلوا بروزا واضحا فى الكلية حيث أصدروا مجلة حائط جادة وثرية أسموها اللواء السابع ذلك أن دفعتهم هى الدفعة السابعة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» وليس مصادفة أن يبرز منهم صحفيان لامعان هما د. أسامة الغزالى، وعبدالقارد شهيب، وأستاذان وباحثان مهمان هما د. أحمد يوسف ود. عثمان محمد عثمان.

وأنا الوحيد الذى رشحت من الصف الثانى بالكلية، مع العلم أن

أنستين من الثلاث كانتا من الصف الثانى وهما : عفاف على عزت ، وأمل رياض الشاذلى الأولى باحثة والثانية صحفية ومترجمة ولم يرشح من الصف الثالث أى فرد .

وقبل متابعة هذا الأمر علىَّ أن أذكر أن فى تاريخ كل كلية هناك دفعات تسجل نشاطا أعلى من الأخرى، وقد تلامست مع دفعتين من أنشط النشطاء فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، الدفعة الأولى هى الدفعة الرابعة والتى تخرجت سنة ١٩٦٦ ، والدفعة االسابعة والتى تخرجت سنة ١٩٦٩ على عكس دفعتى أى السادسة والتى تخرجت سنة ١٩٦٨ والدفعة السابقة علىَّ.

عندما بدأت دورة معهد حلوان للشباب فى ديسمبر سنة ١٩٦٥ وجدت فيما يحدث ضالتى فهاهى السياسة التى أبحث عن دراستها تتجسد أمامى قضايا نظرية وقضايا تطبيقية، ولكن يتم تناولها جميعا بمنهج علمى صحيح منهج لايجتزأ ولايبتسر الأشياء دون ماحاجة أو دون ما تنبيه إلى أننا بصدد حالة تجريد بحثية، بل وجدت محاضرة مهمة سطرها الدكتور حسين كامل بهاء الدين عن المنهج العلمى عرفنا فيها بطرق وأدوات البحث العلمى وبقوانين الحركة وكيفية استخدامها تطبيقيا فى مجال الفكر . ومحاضرة مهمة عن تاريخ الاشتراكية فى مصر للدكتور محمد الخفيف . وثالثة ورابعة حتى السابعة، وقد أذهلنى أن معظم هذه المحاضرات السياسية المعمقة لأساتذة غير أساتذة العلوم السياسية، فهذا طبيب وذلك صيدلى، وهذا مهندس وذاك عسكرى وزادت دهشتى عندما وجدت أن أكثر الدارسين اهتماما بالسياسة من خارج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ودخلنا مجموعة يوجه النقاش فيها الأستاذ والصديق فيما بعد عبدالغفار شكر يعاونه موجه آخر هو

الأستاذ محمد عبدالحكم «يعيش فى بريطانيا الآن»، لقد ساعدتنى لقطتى الأولى «أى القضية التى التقيتها من فورى» وهى أن السياسة التى أبحث عنها توجد خارج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية أن أبدو وكأننى بحر مائج هائج تحول فى حالات المد لإخراج كل مافى جوفه، وهز محيطه بأكبر مايكون الاهتزاز، فقد سجل الجميع أننى أنشط فرد فى المعسكر الذى تعددت مجموعاته الفرعية لحوالى ١٢ مجموعة، لقد حاورت ماأستطيع الحوار، وتساءلت ما استطيع التساؤل، وانتقدت مالايعجبنى فيما يسود وأثنيت على ما يشدنى، وأذكر أنه فى الأمسية الأخيرة لوجودنا فى هذا المعسكر تحلقت مجموعة كليتنا وكان ضوء القمر أخاذا تداعبه سحابات انتظمت فى طابور طويل، تخنق نوره تارة، فيسحبنا ظلها إلي حواف ظلمة الليل البهيم، ويتحداها بنوره تارة أخرى فيظهرها وكأنها ثوب شفاف يحوط جسداً مرمرياً لحسناء خجول، فى إطار هذا الجو الشاعرى لم تستسلم عاطفتى السياسية ولم تسحبنى للهدوء أو الاندماج فى ثنيات هذه الصورة الطبيعية الجميلة التى اكتملت رتوشها بحفيف أشجار الصفصاف والكافور العالية والتى بدت وكأنها صف من الجنود يحرس المعسكر من أى خطر يتسلل من التلة المجاورة.. وأخذت أناقش وأجادل واستعيد التاريخ، وتصورت نفسى وقد جلست خلف عجلة القيادة لكاسحة ألغام تمسح حقلا ملغوما لاتستطيع أن تكف فيه عن سماع التفجرات والهزات، وقاطعنى الزميل مصطفى الفقى وقد فتح فاه مشدوها وطلب الانصات وأخذ يقول الحقوا ياجماعة الواد أحمد شرف عنده اسهال فكرى حاد، لازم نوقفه غير أن حالتى استعصت عليه وعلى زملائى الآخرين، فتركتهم وانضممت لمجموعة زملاء من جامعة عين شمس منهم أصدقاء

أعزاء لى حتى الآن.

وانخرطت فى صفوف منظمة الشباب الاشتراكى منذ ذلك التاريخ.

د- فى العام الدراسى ١٩٦٥ / ١٩٦٦ ذابت تلال الجليد التى ترسبت فى مجرى الحياة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فتعددت الندوات لقادة الفكر والسياسة من خارج الجامعة وظهرت عدة مجلات حائط فى فناء الكلية «الموجودة فى ملحق كلية الحقوق حتى نهاية تخرجى أى نهاية العام الدراسى ٦٧ / ١٩٦٨» وقابلت أسماء تركت بصماتها علىّ مثل: لطفى الخولى، إبراهيم عامر ، وسيم خالد، الشيخ محمد أبوزهرة، موسى صبرى، أحمد سعيد، تماضر توفيق، كمال رفعت، خالد الحسن ...الخ

وتخلقت فى الكلية جمعية الفكر الاشتراكى وقد لعب الأستاذ على الدين هلال. دورا كبيرا فى تأسيسها وبرز فى رئاستها: مصطفى الفقى، نادية سالم أحمد شرف، أسامة الغزالى واذكر أن جماعة الفكر الاشتراكى هذه أخذت تدرس مايجرى فى مصر هل هو اشتراكية عربية، أم تطبيق عربى للاشتراكية، واحتدم الحوار بين الطلبة والمتناظرين من خارج الجامعة، وفى الندوات ، وكانت الآنسة هدى جمال عبدالناصر عضواً نشطاً فى هذه الجماعة، ويبدو أنها وضعت ذلك الخلاف العصى أمام والدها، وفى إحدى خطبه سنة ١٩٦٦ ناقش جمال عبدالناصر الأمر، وقال إن الاشتراكية العلمية نظرية واحدة، وهى فكرة عالمية من حيث مكوناتها النظرية والاشتراكية ليست نظريات ذات طبيعة قومية، ولكن هناك تطبيقات محلية وقومية لنظرية الاشتراكية العلمية، وعليه فما يجرى فى مصر هو تطبيق عربى للاشتراكية.

وأذكر أن فريق منظمة الشباب بالكلية، والذى ذكرت معظم اسمائه، كان قد نشط نشاطا ملحوظا فى إطار هذه الجماعة وفى إطار الصحافة التى تعلق على الجدران، بخاصة أن المعيد بالكلية على الدين هلال كان ضمن المجموعة، التى أخذت تُعد إعدادا مكثفا لفترة زادت على العام فيما يعرف بدورات الكوادر أو الرواد ، وهى المجموعة التى شكلت القوام الرئيسى لما عرف فيما بعد باسم هيئة التوجيه فى المنظمة وقادة الأنشطة الفعلية بها.

وأذكر أن مناقشات تلك الفترة قد عجلت بعملية الاستقطاب الفكرى والسياسى فى إطار مجموعة المنظمة بكلية الاقتصاد فقد أظهر الحوار المشتد حول الاشتراكية العربية، أم التطبيق العربى للاشتراكية. تمايز الزميل محمد عبدالشفيع عيسى الذى اتضحت نزعته القومية الواضحة وأصبح اشتراكيا قوميا، وارتبطت به عدة أسماء اذكر منها الزميل محمد عبدالعزيز السخاوى، كما أظهرت المناقشات تبلورى أنا فى اتجاه مدرسة الاشتراكية العلمية، وبدأ الجميع يصفوننى بالاتجاه الماركسى، ونظرا لأنى لم أكن قد قرأت فى الماركسية، ولا أعرف عنها غير الهجمات الشرسة عليها من المناهج الدراسية، وأن صورتها فى ذهنى كانت أقرب إلى الصورة الشائعة والتى يدفع الكثيرون فى تقديمها بالباطل، بأنها تعادى الدين كنت أفزع من الإشارة لى أو القول عنى بأنى ماركسى، وبعد فترة بدأت أقبل هذا الوصف بشرط أن أقول إننى ماركسى مسلم، بل عندما عرفت أن هناك مفكرين جزائريين يشغلون أنفسهم بالتوفيق بين الاشتراكية والإسلام كالمفكر مالك بن نبى رحت أبحث عما يكتبون. فى هذا الجو بدأت أتعرف على سلسلة كتب دراسات فى الفكر الاشتراكى والتى كانت تصدر عن الهيئة العامة

للكتاب، وهى سلسلة اشتهرت بالجلدة الخضراء. كما تبلورت فى الكلية مجموعة ثالثة وسطية.. وقد تابع هذه الظاهرة أحد الأصدقاء وكان ضمن وفدنا الأول لمنظمة الشباب فى النصف الأول من سنة ١٩٦٨، وقال يبدو أن مجموعتنا « أى التسعة الذين ذهبوا لمعسكر الشباب بحلوان». سوف يخرج منهم قادة لثلاث مدارس حركية وفكرية فى الواقع السياسى المصرى القادم:

محمد عبدالشفيع عيسى زعيماً للاتجاه القومى- أحمد شرف زعيما للاتجاه الماركسى - مصطفى الفقى زعيماً للاتجاه البرجماتى وأردف أى الواقعى التقريرى، فرد عليه آخر تقصد الانتهازى ....؟ فضحكنا.

قبل أن ينتهى العام الدراسى ٦٥ / ١٩٦٦ كان الزميل محمد عبدالشفيع عيسى قد ضاق ذرعا بجماعة الفكر الاشتراكى هذه، لذلك قام بتكوين جماعة جديدة سميت جماعة الوعى القومى، ولا أنسى أن هذه الجماعة فتحت لى علاقات واسعة بشخصيات هذا التيار آنذاك، عبدالله الريماوى وهو وزير خارجية أردنى سابق، وكان يعيش فى مصر لاجئاً سياسيا، ثم الدكتور عصمت سيف الدولة، الذى أخذنا ندرس كتابه عن نظرية الاشتراكية العربية ونتابع مقولته حول جدل الإنسان وليس المادية -الجدلية. بل وأتحمس لهذه المقولة عاطفياً فقراءاتى مازالت هزيلة فى الاشتراكية. وكنت أتلفت حولى، فأجد بروزا أكبر للبعد القومى، وهو يصارع البعد الاشتراكى ولا أتلامس مع أبعاد أخرى.

هـ- كان من أهم الآثار التى تركها معسكر حلوان فى نفسى هو اكتشاف أن السياسة مساحتها الواسعة خارج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وذلك على صعيدين: الأول فكرى والثانى حركى وكفاحى.

واكتشفت أن مجموعة المهمومين بقضايا الوطن وبالمعارف الثقافية والسياسية العامة، يوجدون خارج الكلية. وتوثقت علاقاتى بمجموعة من طلاب جامعة عين شمس وتحديدا من كلية الهندسة بها، وأهم ما أشار به علىّ هؤلاء الأصدقاء ضرورة الغوص فى خضم الحركة الثقافية والسياسية فى المجتمع وخارج حدود الجامعة، ولعبت المجموعة التى تهتم بالآداب والفنون دورا مؤثراً فى إرشادى للبؤر المتاجحة بالنشاط الثقافى، والتى امتدت عبر متابعة المسرح القومى ومسارح الدولة وندوات الرأى والفكر خارج الجامعة وبعض المقاهى التى تموج بحياة زاخرة من الثقافة والسياسة، وأهمها مقهى « ريش» بشارع طلعت حرب ومقهى «ايسائيفتش» بميدان التحرير، وقهوة « الفيشاوى » بالحسين.

ومنذ بداية سنة ١٩٦٦ بدأت أرجلى تعرف الطريق لهذه الأماكن، وكم شدنى المسرح لقد شاهدت بعض العروض سبع مرات، وأذكر من بينها « مسرحية الانسان الطيب» لبريخت» وكانت تقدم على خشبة المسرح القومى، وحضرت جميع جلسات الحوار التى تشوبه روح المرح والدعابة، والجو الخفيف مع الأستاذ نجيب محفوظ على مقهى ريش، وتعرفت على الشعراء، وتابعت مأساة الحلاج على مسرح دار الأوبرا، وكدت أحفظها بالنص وأخذت أردد كلمات صلاح جاهين فى أغنيات مسرحية الانسان الطيب: « سبعة أحصنة كانت تعمل للميجور، ووراء الكل حصان ثامن يتمخطر السبعة سود، والثامن أبيض ناصع، وعلى السبعة يقع كل الشغل والثامن على الكل يتآمر».. « قيل لحاكم ذات مرة... برد الشتاء أضنى الرعية... فقراء فهم لايستدفئون ... قال... إذن فلتحضروا لهم بطانية .... طولها بالتمام والكمال ألف ذراع وعرضها تسعماية، كى تغطى المدينة شبرا شبرا وبذا تكون المسألة منتهية.».

مع هذه البداية رحت أمنهج قراءاتى. فلابد من القراءة بخطة، وقرأت إحسان عبدالقدوس،ويوسف السباعى، ثم قرأت نجيب محفوظ ويوسف إدريس ورحت أقرأ فى الأدب العالمى وعرفت تورجنيف وهمنجواى، وعرفت ديستوفسكى وتولستوى، وعرفت أرسكين تشلدرز، وفيكتور هوجو وعرفت بول ايلوار، وسارتر، وسيمون بوليفار، وكافكا وكازنتزاكسى، وأذكر فى تتابعات هذه المرحلة أننى تعرفت على جيل جديد من الأدباء المصريين أمثال: يحيى الطاهر عبدالله ، إبراهيم عبدالمجيد، وشعراء أمثال محمد سيف، وزين العابدين فؤاد، محمد نجيب شهاب الدين، وأسامة الغزولى وخليل كلفت، وحسين على حسين، الخ مع رهط كثير من الأسماء. وقد سطر هؤلاء الشباب لى قوائم بالقراءات عجزت عن متابعتها، واذكر أنه فى الجزء الثانى من عام ١٩٦٦ أخذت مجموعات الشباب من المثقفين اليساريين تضيق بي ذرعا وذلك لسببين:

الأول: أننى أصبحت عضواً باللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكى لدى إعلان المنظمة فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٦٦ ومن ثم أخذوا ينظرون لى، وكأننى رجل سلطة ومن ثم شخص لا أمان له.

الثانى: عدم القدرة على المتابعة العميقة لبرنامج القراءات بخاصة أنه متخبط من حيث الاتجاهات ومن حيث الموضوعات ويعلى المدخل الفكرى على المدخل العملى والواقعى فى الفهم السياسى والثقافى عموما.

ومما لاشك فيه أن هذه النظرة وهذا التوجه جعلنى أرفض الانسياق فى هذا الطريق، بل جعلنى أرفض أن أكون مثقفا على هذا النهج، وكما صدمت فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، باعتبارها لاتلبى حاجتى

العملية للثقافة والمعارف السياسية الواضحة صدمت فى توجه ماعرف آنذاك بمجموعات اليسار الجديد، بل وجدت نفسى إن كانت هذه الماركسية فلامعنى لها عندى ولاحاجة لى بها، وإن كانت هى الوجودية فأنا أرفضها، وإن كانت هى فلسفة التمرد، فأنا لست متمردا بل أنا شخص تركيبته الأساسية تركيبة نظامية مدنية. وكان أشد ما أغاظنى فى مجموعة اليسار الجديد هى تمردهم السلوكى على قيم المجتمع، ولكن علىَّ أن أسجل أننى استفدت أمرين من مخالطتهم:

الأول: كسر الحاجز المحافظ لدى شخصية الريفى فىَّ والقدرة على الشجاعة الاجتماعية وتحولت قولة «لاحياء فى الدين» «ولاحياء فى العلم» إلى منهج سلوكى أفادنى كثيراً.

الثانى: أهمية الثقافة المتعددة الأبعاد، وأهمية القراءات المنهجة فى تكوين التراكم المعرفى.

غير أن نهاية سنة ١٩٦٦ أى نهاية الجزء الأول من عامي الدراسى الثالث فى الجامعة قد جاءت وحسمت ضرورة قطع صلتى بهذه المجموعات التى تنتمي لليسار الجديد والتى توزعت بعد ذلك على اتجاهات متعددة سياسياً وتنظيمياً وضقت بهم ذرعا، وضقت بتخبطهم الفكرى والمنهجى والسلوكى بخاصة أن منافذ حياتى كانت قد بدأت تتعدد وتتسع من أمامى.

و- أصبحت منظمة الشباب الاشتراكى ساحة نشاطى الأساسى، فمع بداية سنة ١٩٦٦، أصبح ترددى على الدور التاسع فى مبنى الاتحاد الاشتراكى على النيل يوميا ثم تحول إلى الزمالك، وكثرت لقاءاتى مع شباب المنظمة واتسعت وتشعبت عبر كليات جامعة القاهرة وجامعة عين شمس بكلياتها المتعددة، بل وأقمت علاقات بشباب العمال

والفلاحين والطلبة من غير الجامعيين، والتف بى بعض الزملاء وكان هناك طالب بصيدلة القاهرة قد بالغ فى التقرب منى. وفى أمسية عادية، وفى وقت متأخر جاء لى هذا الزميل، وارتسمت على ملامحه كل أبعاد التوتر والقلق، وأخذ يكلمنى عن مؤامرة شيوعية على نظام الحكم (نظام عبدالناصر) وقد هدأت من روعه : وقلت له: هات ماعندك. وأخذ يحكى عن تحركات عادية لأشخاص اشتهر عنهم أنهم قادة شيوعيون ممن يعملون بمهنة الصيدلة. قلت له مجيبا، ماتقوله ليس كما تتدعى، فالوقائع شىء عادى تماما قم يارجل ونم واهدأ.

وبعد يومين جاء لى هذا الزميل مرة أخرى، وحالة إعلان الحرب تفضح ملامحه، وقلت له للمرة الثانية أنا لا أرى خطراً فيما تحكى، واقترح على لماذا لا تذهب وتبلغ قيادة المنظمة بذلك؟ بخاصة أنهم يتصلون بزملاء من كلية الصيدلة، وإردف، وأنت تعلم أنه لا يسمح التحرك لنا تنظيميا خارج الاطار التنظيمى لمنظمة الشباب قلت له إذن حدد وقائع التحرك المخالف وأذهب وخاطب قيادة المنظمة.

وغاب الزميل ليوم أو بعض يوم، وجاء إلىَ وقال لى: أنا كنت علمى وصياغتى الأدبية ضعيفة، تعال نكتب تقريراً، فقلت له، أنا كنت «علمى» فى الثانوية العامة أنا الآخر، وأنا لم أشاهد ولم أحتك بما تقول، وبالتالى لن اكتبه خيرا منك، فأصر زميلى هذا على أن نكتب هذا التقرير معاً، فارتبت منه كثيراً وكدت أن أدير معه معركة، فتراجع بعض الشئ وقال: سوف أكتبه أنا هذه الليلة، وغدا نجلس نصيغه ونقدمه باسمك، فانتفضت فزعاً، وقلت له هذا ليس أسلوبى ولن أكون مثل هذا الرجل، فذهب وفى اليوم التالى جاء هذا الزميل ومعه وقائع باهته، لاتعدو شيئا، وأصر على أن أعيد صياغتها، فتكفلت بصياغة

المقدمة المستمدة من مبادىء العمل التنظيمى كما درسناها فى المنظمة، ونقلنا ما ادعاه من وقائع مخالفة وأصر أن أمضى معه فكتبت الصياغة العامة من عندى أما الوقائع فهى من عند عاطف جمال الدين.

وذهبنا إلى المنظمة ووجدت هذا الزميل يعرف طريقه جيداً، لذلك عندما قابلت الدكتور عادل عبدالفتاح القائم بأعمال مسئول التنظيم أكدت عليه، أنه لا صلة لى بالوقائع المرتبطة بهذه الورقة، وأنا أرفض أسلوب التقارير، وأرى أن التربية السياسية السليمة هى تلك التى تقوم على المواجهة للأخطاء والنضال ضدها دون الاستقواء بالسلطات التنظيمية، وتفهم الرجل كلامى وقال هذا عين الصواب غير أنه أكد على أهمية الالتزام بالقواعد التنظيمية، وأهمية محاربة الاتجاهات الخارجية عليه. وتوالت الأنشطة والتى توزعت على قراءة النشرات التنظيمية للمنظمة وللاتحاد الاشتراكى والأنشطة الشبابية، وفى إبريل تم استدعائى لقيادة المنظمة ورشحونى لدورة من مستوى أعلى ولكن امتحانات العام الدراسى كانت على الأبواب فتم تأجيلها، ولكنى وجدت اختلاطا مكثفا وتقريبا لى من قيادات المنظمة وطلب منى أن أوثق علاقاتى أكثر بقيادة المنظمة بعد انتهاء الامتحانات وألا أذهب لقضاء الاجازة الصيفية فى قريتى، وفى ٢٠ يوليو سنة ١٩٦٦ وفى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة حضر الرئيس جمال عبدالناصر وأُعلنت منظمة الشباب الاشتراكى وتم إعلان أسماء اللجنة المركزية لها بالاختيار من ٥٢ عضوا وجدتنى منهم ومن كليتى وجدت مصطفى الفقى والآنسة عزة وهبى من الدفعة التالية لى ومن الأسماء المعروفة كانت تضم اللجنة د. حسين كامل بهاء الدين- ومحمود شريف- د. مفيد شهاب - د. عبدالأحد جمال الدين- أ. عبدالغفار

شكر- د. عادل عبدالفتاح- د. على فهمى خاطر- د. أحمد شوقى العقباوى- أ. سمير حمزه- م. بهاء عبدالفتاح- أ. صالح محمد صالح- م. صالح سمره- أ. جمعة الغرباوى - أ. كمال قشيش- أ. على الدين صالح- م.هاشم العشيرى-م.عزت عبدالنبى- أ. عباس الدندراوى - د. مجدى عرفه- د. حسين الشبينى - - أ. راغب نوار- أ. فاروق متولى-م. عبدالمنعم وهدان- م. أسامة أبوعامر- أ. جمعة عبده حسن - رشيق رفعت..... الخ.

وكانت هذه القيادة خليطاً من الأساتذة الجامعيين غلب عليهم أساتذة أو بمعنى أدق مدرسى كلية الطب والصيدلة ومن الطلبة ومن العمال ومن الفلاحين ومن شباب المهنيين، وكنت أنا ضمن أصغر خمسة أعضاء سنا فكنت دون العشرين عاما بثمانية شهور.

وانتظمت اجتماعات اللجنة المركزية بحضور السيد على صبرى دائما، وبرئاسة د. حسين كامل بهاء الدين كرئيس للمنظمة، وأصبح أمينا للشباب بالاتحاد الاشتراكى. وفى كل الاجتماعات كانت حيوتى ونشاطى مثيرتين للانتباه.

وعندما أعود بالذاكرة إلى الإجازة الصيفية سنة ١٩٦٦ بل وإلى النصف الثانى من عام ١٩٦٦ أجده عاما شديد الأهمية بالنسبة لتكوينى كسياسى.

كانت شهور النصف الثانى من سنة ١٩٦٦ شهوراً ساخنة تماما فى صياغة فكرى وحركتى السياسية ويمكن أن أقف بالقارىء عند عدة محطات مهمة شكلت ملامح تجربتى على النحو التالى:-

* المحطة الأولى: معكر الشباب بأبى قير بالاسكندرية:

فى أغسطس سنة ١٩٦٦ توالت دورتى المرحلة الثانية والثالثة لمجموعة كبيرة من الشباب فى المنظمة، وعلى الرغم من أنى قد أخترت سابقا فى اللجنة المركزية فإننى لم أكن أتممت المراحل الضرورية الثلاث التى تربطك على مستوى الكادر فى تنظيمات منظمة الشباب الاشتراكى، وكانت تجربة غنية. فلأول مرة أعيش بل يعيش الشباب المصرى تجربة الحياة المشتركة بين الشباب والفتيات فى معسكر واحد لمدة لاتقل عن شهر ونصف الشهر وكان لهذه التجربة كل الأبعاد التى تفرش الأرض للتقدم الاجتماعى فوجدنا أنفسنا شباباً وشابات فى وضع المسئولية، وفى وضع يفرض ضرورة التعامل الراقى، فعلى الرغم من أن الغالبية فى سن الزواج، فإن روح الأسرة الواحدة، ظلت هى السائدة والطاغية، وأذكر أن شقيقى الأكبر قد جاء لزيارتى، وقد انبهر بهذا النضج، السلوكى للفتيان وللفتيات، وصار هذا الأمر مضرب الأمثال فى قريتنا لفترة طويلة، أما عن الجانب الفكرى، فقد تألق الشباب، واتضح أهمية المناخ الذى يتمكن من تفجير طاقات هذا الشعب الابداعية، فالشباب من الجنسين لايخشون توجيه النقد اللاذع للتجربة السياسية الناصرية، والمبادرات الإصلاحية تتوالى، وكأنها زخات المطر التى تنشر الخضرة وتحيى الأرض بعد مواتها، والطاقات تتألق سياسياً فى الخيام أثناء فترات المحاضرات صباحاً ومساءً والابداعات الفنية والاجتماعية والثقافية تغنى المعسكر، وتلونه بكل ألوان الزهور التى تفرش الحدائق فى عيد شم النسيم.

وأذكر أن صراعاً بدا واضحاً بين اتجاهين: اتجاه رسمى يريد صب كل الجهود فى صياغات بيروقراطية، وأبنية صماء، واتجاه ثورى ينادى بأن

التنظيم ليس مقدساً فى ذاته، وأنه مجرد وسيلة لخدمة أهداف وخطط معينة، وأن الانضباط يتولد عن الاختيار الطوعى بصورة تتعالى على هذا الانضباط الذى تولده الطاعة العمياء والسلوك المسيطر والجبرى.

وأذكر مثلاً واضحاً يبين عمق هذا الصراع. قررت إدارة المعسكر عمل بروفة لإحداث انقلاب على السلطة الرسمية فى الدولة، وقسمت المعسكر إلى فريقين:

الأول يمثل السلطة الرسمية. والثانى يمثل من سيدبرون الانقلاب غير أن هذا الأمر استفزنى أنا وبعض الزملاء، وانتأينا بأنفسنا عن هذه التمثيلية السيئة، وكونا جميعاً فريقاً ثالثاً بدأ يرصد الأمور، وعندما حانت ساعة الصفر، رصدنا التخبط، وآلت إلينا كل الأمور من الفريقين الرسمى والانقلابى.

ورحت أضغط بهذه الخبرة على القيادة الرسمية للمعسكر بأهمية الموقف الديمقراطى وأهمية المشاركة السياسية، وكسر حلقات الموات البيروقراطى، غير أننى وجدت أذنا صماء وقهقات مرتفعة لم تع شيئا مما حدث.

*** المحطة الثانية مؤتمر المبعوثين المصريين الدارسين بالخارج**

وقد عقد فى مدينة الاسكندرية فى سبتمبر سنة ١٩٦٦، وقد كلفت مع عديد من الزملاء من القيادات العليا والوسطى من منظمة الشباب بمرافقة وفود المبعوثين، وكانت فرصة مهمة لى أن أعيش لأول مرة وعن قرب جو السياسة ذات الأقنعة، فهناك تعليمات مشددة لنا بضرورة الانتباه للوفود القادمة من الدول الاشتراكية وبالذات القادمة من الاتحاد السوفييتى، ذلك أن هناك خوفاً شديد، من أن يكونوا قد تحولوا إلى ماركسيين. وهناك تنبيه أخر بضرورة الانتباه للوفد العائد من فرنسا،

ذلك أن فرنسا بلد يموج بالتيارات السياسية المتنوعة والاتجاه الصهيوني يخترق يسارها بصورة واضحة، والخوف من تأثر شبابنا بذلك. ولكم انزعجت من مثل هذه التنبيهات بخاصة أن هذه الوفود من الدارسين المصريين القادمة من هذه الدول بالذات كانت أقرب الوفود فى طرحها إلى الحيوية وإبراز جوانب نقدية مهمة فى التجربة الناصرية.

واذكر أن جمال عبدالناصر حينما حضر المؤتمر فى مدرجات كلية الآداب جامعة الاسكندرية كانت هذه الوفود هى الأنشط فى الحوار، وهى الأبرز فى تسليط الأضواء على المشاكل المصرية والجوانب النقدية للتجربة، ولن أنسى اندماج الرئيس فى السماع لهم وانفعاله بما يسمع، كما لن أنسى شجاعة هؤلاء الشباب ومشاعر ملكية الوطن والاحساس بالمسئولية العامة تظلل أقوالهم وتحركاتهم غير أنه بقدر التواصل بين القائد و النشطاء منهم كان الانزعاج بادياً على وجوه بيروقراطية، وكان الإحساس متوتراً بأن هناك ثمة تطاولات على الرئيس وعلى التجربة الثورية الخاصة لمصرنا.

وعندما كنت أخلو بنفسى فى حجرتى بالمدينة الجامعية بالشاطبى كان عقلى يفترش فضاء الحجرة بعديد من الأسئلة الحائرة، لماذا الاصرار على أن يكون الجميع مجرد نموذج واحد «إستامبا» لا يملك الصلاحية إلا إذا برز خاتم عليه يلصقه به بعض المسئولين؟ لماذا لا يتبنى الجميع الشعار الخالد الذى عرفتنا به مجلة الطليعة للقائد الصينى المظفر «ماوتس تونج» والذى يقول «دع مائة زهرة تتفتح»؟

لماذا كل هذا الانزعاج من الماركسية؟ أليست هى الاشتراكية العلمية، والرئيس جمال عبدالناصر يسلم بذلك ويؤكد أننا نطبق الاشتراكية

العلمية بطريقتنا القومية الخاصة فقط؟ لماذا يتم التوجس من النشطاء والمهمومين بمشاكل الوطن والقادرين على كشف سلبيات التجربة؟ بينما يحظى كل أملس مسطح بالاهتمام؟ بل لماذا تفتح كل الأبواب لأصحاب الرطانة اللزجة عن حب الوطن وعن كمال التجربة؟ هل السياسة ذات الأقنعة هي السياسة فقط؟ لماذا تحاصرني مثل هذه السياسة فتقيم سداً خفياً في نفسي بيني وبين كلية الاقتصاد والعلوم السياسية؟

وهل مثل هذا السد الذى بدأ فى التكون بينى وبين المنظمة حتمياً؟ هل كنت ساذجاً إلى هذه الدرجة عندما تسرعت فى إدانة عبارة عمر الشيخ محمد عبده والتى تلعن السياسة؟ وهل هناك سياسة أخرى لاتلبس أقنعة؟ وكيف لي بمعرفتها نظريا وعمليا؟ لماذا يبدو الرئيس جمال عبدالناصر محباً للحوار؟ ولماذا يبدو القادة من حوله كارهين لهذا الحوار؟ هل هو توزيع أدوار؟ أو وأنه الفرق بين فهمين للسياسة؟

لقد تشعبت الأسئلة وأذكر من على البعد أن مؤتمر المبعوثين كان فاتحة عهدى ببروز هذه الأسئلة لتحتل مساحة مهمة فى حياتى، كما أنه كان بداية تجربة عميقة علمتنى القدرة على فرز الغث من السمين على أساس الجوهر وعدم الاكتفاء بالمظهر وأسوق فى هذا الصدد واقعتين:-

الأولى اجتماعية محضة: فقد لفت نظرى بل لفت نظر الجميع سيدة شابة كانت تدرس الزراعة تتصرف بحرية وسلاسة غير معتادة فى ملبسها وفى محاوراتها، وكم استفزتنا فى البداية فمظهرها يوحى ببروز غير المألوف، وبدت لى أنها تطبق القول الشعبى «ماشيه على حل شعرها» تطبيقاً مدرسياً، وشاءت الظروف أن اقترب منها فإذا بى

أعرف أن زوجها معها فى الوفد، وإذا بى اكتشف فيها نقاء واستقامة عز على أن أراهما فى غيرها من أدعياء الفضيلة، فالوضوح هو سمتها بل لا اكون مغاليا إذا علمت أنه غايتها ولن أنسى ما حييت هذا النموذج، وكيف تأثرت به سلوكيا أنها معلمتى الأولى لأهمية الصراحة والوضوح وعدم الالتواء، انها د. خديجة التى لا أذكر بقية اسمها وزوجها الرصين الهادئ الوجه الآخر للسواء د. يوسف الذى لا أذكر بقية اسمه، ولكن ظل هذا الزوج يعيش معى معلماً حتى الآن. وأقصد بالزوج الاثنان معا الزوج والزوجة.

الثانية سياسية: توطدت علاقتى بأعضاء الوفد القادم من فرنسا بعد أن كانت شهرته قد بلغت عنان السماء لحواراته النقدية مع الرئيس والتى بدت قمة فى التطاول على الزعامة التاريخية وعلى التجربة الفذة فى رأى البعض وإذا بى اكتشف أن النقد يعكس موقفاً عميق الحب للوطن وشديد التمسك بالتجربة الاشتراكية وواسع الاطلاع على التجارب الثورية فى العالم وعلى ايجابياتها وسلبياتها.

ودخلت فى مقارنات خاصة بى وأعملت هذا المنهج المقارن فى معملى الخاص الذى اتسع لعلاقات متعددة؛ ووجدت أن هؤلاء الناقدين هم أخلص الخلصاء للوطن وللسياسات القائمة، بينما المتصايحون بالحب والتأييد الأعمى يفتقدون أى رؤية علمية غير أن أبصارهم شاخصة صوب السلطة التى تساوى لديهم الحظوة والجاه والنجومية، وتجدهم يسترسلون فى أحلام محض شخصية إذا تركتهم على سجيتهم أفاضوا فى سرد تفاصيلها بعد عودتهم من بعثاتهم العلمية وكم تحقق ذلك الآن لمثلهم.

* المحطة الثالثة :

حرصت قبل بداية العام الدراسى الثالث لى فى الجامعة أن أذهب لتحديد موقفى التجنيدى، فأنا الأن تعديت سن التاسعة عشر وحق علىَّ ذلك بخاصة أننى سوف أذهب لمجرد عمل خطوة اجرائية بعدها سوف أحصل على التأجيل لمواصلة دراستى الجامعية، وبعد انقضاء مؤتمر المبعوثين وقبل أن أذهب للقاهرة كان علىّ إنجاز هذه المهمة وفى ذات صباح من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٦ قدمت نفسى لمنطقة تجنيد الاسكندرية فى معسكر مصطفى كامل بالاسكندرية وتصادف هذا اليوم مع يوم الفرز لشباب مركز المحلة الكبرى من محافظة الغربية، وانضممت لعملية الفرز هذه، ووجدت ثلاث حالات مشابهة لحالتى تعارفنا معاً وكانوا طلابا بعلوم الاسكندرية، وبعد مرور دقائق وجدت نفسى وكأن آلة الزمن قد نقلتنا إلى العصر المملوكى فلا أرى غير الضرب ولا أسمع إلا السب ، وانقسم محيطى إلى نوعين من البشر ، كتلة من الشباب الريفى تحولت فجأة إلى قطيع من الأغنام يسوقها جزارون غلاظ إلى ساحة المذبح الشهير فى القاهرة، ومجموعة من صغار الضباط وصف الضباط بدت وكأنها مجموعة فرت من مستشفى المجانين لا تعرف غير الهياج والهلوسة والتشنج وذهلت مما رأيت وأخذت أغرز أظافرى فى جسمى لأتأكد أننى لست واقعاً تحت سطوة كابوس فى المنام، ورحت أسأل زملاء هذا اليوم لماذا كل هذا؟ هل ترون ما أرى؟ وكانت اجاباتهم سهلة وبسيطة وهل ترى فيما يجرى شيئا خارج المألوف؟ غير أنى فعلا كنت أرى فيما يجرى غير المألوف وغير المفروض وغير المقبول وهممت اكثر من مرة للتدخل لوقف مايجرى وتبديله باحترام حقوق الانسان بالمعنى الدارج سياسياً اليوم،

غير أن زملاء ذلك اليوم ظلوا يهدئون من روعي ويناشدونني بعدم إثارة المشاكل فغاية الأمر حضورنا اليوم وإن كثرت سيكون الغد ونأخذ شهادة تأجيل موقفنا من التجنيد لبعد التخرج، وتكاتفت عليَّ عوامل المفاجأة وقلة الحيلة والرغبه، في انهاء التجربة والخوف من المجهول وأوصلتني كل هذ العوامل إلى حالة من العجز، زادت من همي ورسمت بل حفرت على وجهي نقوش الكآبة والحزن، وبعد الساعة الثانية سمح لي ولمن معي من الطلبة بالرجوع إلى المنازل على أن نحضر غدا وأبقيت باقي الدفعة للمبيت في المعسكر.

عندما رأني شقيقي أدرك عمق حزني من الوهلة الأولى وسألني فسردت عليه وقائع هذا الصباح وما إن انهيت قصتي حتى أمطرني بوابل من السباب واللوم والتقريع بل وختم كلامه ولأول وآخر مرة أسمعها منه ليتك ما عدت إليَّ هكذا، فقد كان الترام أولى بك وكان أهون على أن استلمك مفروما عن أن أراك هكذا وأردف أي سياسة تلك التي تريدها؟ أليست السياسة هي الدفاع عن المظلومين؟ هل فرحت بكونك مركزياً في السلطة ونسيت واجبك في إغاثة الملهوف؟

اغرورقت عيني بالدموع وانسحبت خجلا من نفسي وأخذت جهاز الراديو ودخلت حجرتي ولم أحس بنفسي ألا وقد أفقت من نوم كابوسي عميق، وظننت أنني تأخرت عن الذهاب للمدرسة، ومن صوت المذياع بجانبي أدركت أن الساعة ماتزال الثامنة مساءاً وأن العشية ما لبثت تزحف.

لم أنم تلك الليلة ووضعت عشرات التصورات لمسارات أحداث صباح الغد، وقررت المواجهة، وفعلا دخلت المعسكر وأنا أحاول الاحتكاك، فوجئت بأن صف الضباط يتحاشون الاحتكاك معي وانسحبنا أنا

والطلبة الثلاثة وجلسنا فوق سور منخفض ولم يلتفت لنا أحد، وعندما انتصفت الشمس فى كبد السماء واشتدت حرارتها أمر صف الضباط الشباب بالجلوس القرفصاء فى هذه المحرقة، وبعد مرور عشرات الدقائق مرت كأنها الدهر قام أحد الشباب وأخرج علبة سجائره وهم بطلب اشعال سيجارة، وإذا بالزبانية ينهالون ضرباً وسباً على هذا الشاب ومن فورى قفزت من على السور وطلبت منهم الرحمة فهذا شاب مصرى مثلهم ريفى مثل أغلبهم أو من فقراء المدينة مثلهم فلماذا هذا التعذيب، وقلت لهم ماذا تريدون؟ أن كنتم تريدون الطاعة فالاقناع خيروسيلة للحصول على الطاعة؟ فلما لاتجربون ذلك؟ واستدار الجميع لى وهموا بعصيهم نحوى فأسرعت بتهديدهم بالاتصال بالقيادة العليا فجاء كبيرهم وهو برتبة مساعد واقتادنى إلى حجرة ملازم أول ووجدت شاباً مستغرقاً ومندمجاً فى مكالمة غرامية، فأمرنى المساعد بالسكوت حتى يفرغ ولأننى لم أمكنه من استمرار اندماجه هاج وماج وأنهى المكالمة وقال صائحا ماذا تريد؟ قلت أنا لا أريد غير تطبيق العدل والقانون؟

وذهلت من أول اجابة رد بها علىَّ أنت بتكلمنى بالنحوى ياروح أمك؟

وأمر الصول بالتصرف معى نظرت إلى المساعد وحذرته من أى عنف معى.

واستسلم الرجل وظل هادئاً فجن جنون الملازم، وقام وصفعنى وكان جسمى أقوى من جسمه فقمت بشل حركته ووجدتنى أنفجر بخطبة عصماء عن العدالة والاشتراكية ووحدة المصريين أبناء البلد وهاج الملازم وأخذ يدخل هو الآخر فى الصياح بسب الاشتراكية وجمال عبدالناصر والبلد، والشعب وتدخل رائد وأخذ يهدأ من روعى ولم أهدأ

قبل أن أفرغ من مطولتي.

وقام هذا الرائد بانهاء اجراءاتي لدى استضافته لي بمكتبه بسرعة شديدة.

ذهبت من فوري إلى مبنى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي بمحافظة الاسكندرية وكان الأمين العام لها شقيق الرئيس جمال عبدالناصر ولم أجده واستمرت خطبتي ومناداتي بضرورة التصدي للعبث بحياة أبناء هذا الشعب.

وخف الى الزميل حسين الوشاحي أمين شباب الاسكندرية، وكان عضوا باللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكي وأخذني إلى مكتبه وعرف بالقصة فطلب مني الهدوء وضرورة تسوية هذه الأزمة ودياً، ذلك أن مدير منطقة التجنيد عديله وطلبه على الهاتف وعرف أن توتراً شبابياً حدث أثناء تلك الواقعة صباح اليوم، وأنه يريد منه أن أذهب إليه غدا حتى تتم تسوية المسألة بهدوء وأخذ حسين يلح عليّ في ضرورة التسوية الهادئة حتى آخذ حقي، فقلت له إن الأمر ليس أمراً شخصياً ولكنه صميم العمل السياسي وأصم أذنه وقال اذهب لسيادة العقيد غداً وسيسوى الأمر كما تريد.

في صباح اليوم التالي قابلت مساعداً من قريتنا في الحافلة أعلمني أن المنطقة الشمالية العسكرية شدت طوارئ، وأنه جاء فقط ليأخذ حاجياته وهو الآن يعود لتوه بعد أن أخبر أهله بأنه قد لاينزل مبيته اليومي لفترة وأنه علم أن حكايتي هي السبب فإذاعة اسرائيل تحدثت عن تمرد عسكري في الاسكندرية والدنيا مقلوبة واللواء الزواوي قائد المنطقة الشمالية تم استدعاؤه من اجازته.

كنت في هذا الصباح أرتدي قميصاً أسود به نقط بيضاء أظهرني

وكأننى شاب أسعى لقضاء وقت لطيف على البلاج «الشاطئ الصالح للسياحة» وما أن طلبت مقابلة العقيد إبراهيم خيرى حتى انتفض الرجل وخف لاستقبالى، وأخذ يحملق فَّى ويقول هوأنت السبب فى هذه المشكلة الكبيرة، بعدها بدقيقة جاء زميل له من منطقة تجنيد التل الكبير وأخذ يكلمه ويسرله ولكن بصوت مسموع عن أزمة تلوح فى الأفق وعن دور هذا الشباب فيها.

بعد ذلك دخلت لمقابلة قائد المنطقة الشمالية العسكرية بالنيابة ووجدت عميداً ارتحت له ولاستقباله الصادق لى ولاستنكاره لما حدث معى غير أن رجلا مدنيا «كان يرتدى ملابس مدنية» نحيف الجسم قال باستعلاء أنا لايوجد عندى ضابط هكذا فوجدت العميد منتفضا يقدم لى اللواء «سليمان الزواوى» قائد المنطقة واحتدم النقاش بيننا اللواء يريد أن يطوينى ويخيفنى، وأنا حددت له أنى لا أسعى لرد اعتبار شخصى ولكن أنا أطالب بالتحقيق فى هذا التعنت والتعسف السائد فى معسكر الاستقبال، وذكرت له كيف يكون المشير عبدالحكيم عامر رئيساً للجنة تصفية الاقطاع وما يمارس تحت رئاسته هو الاقطاع بعينه بل إنه العبودية، وتراجع سيادة اللواء سريعاً وقال سوف نحضر هذا الضابط الذى تقول عنه وسوف نجعله يقبل رأسك فأجبت بحسم ما أتيت هنا ليقبل رأس رجل مثلى، ولكن لأننى سياسى أى أعمل بالعام وهالنى هذا التعسف والظلم ولابد من تصحيح الأوضاع.

واضطرب المجلس وأخذت استدعى من حجرة إلى أخرى .. هذه حجرة نائب الأحكام وهذه حجرة وكيل النيابة وهذه حجرة قائد منطقة التجنيد، وهذه حجرة مسئول العلاقات العامة والروح المعنوية....الخ.

وبعد صراع استمر لأكثر من عشر ساعات لم أتراجع خطوة واحدة

عن موقفى وأدركت أنهم يقبلون كل اقترحاتى عدا قولاً واحداً وهو ضرورة ابلاغ مكتب المشير بهذه الواقعة، وفى المساء حدثت تسوية تم بموجبها أن تنتقل قيادة المنطقة الشمالية العسكرية إلى مبنى أمانة الاتحاد الاشتراكى بالاسكندرية لتعتذر للشعب فى شخصى ولتدعو الاتحاد الاشتراكى للإشراف على معسكر الاستقبال حتى يتم التجنيد للشباب.

وعندما صاحبت حوالى ثمانية من الضباط من الرتب المتتالية إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى بالمنشية تقلص كل من فى المبنى من الخوف والهلع وتصور الغالبية أن انقلاباً عسكرياً قد وقع على السلطة، وعندما أدرك الجميع حقيقة الموقف تزاحم الجميع لمراقبة مايجرى فى مكتب الاستاذ الليثى عبدالناصر الذى لم يكن حاضراً، وشهد الجميع من خلال فتحات الباب مايجرى من اتفاقات بيننا، وأصر الوفد العسكرى أن اتعهد بعدم ابلاغ القيادات العليا، وعندما تعنت التزم بذلك عنى الاستاذ حسين الوشاحى وخرج الوفد إلى حيث أتى، وخرجت إلى ردهة المبنى العتيق وأذكر أن اللجنة المركزية للشباب اجتمعت فى أول اكتوبر فى القاهرة، وحكى حسين الوشاحى وقائع ليلة الانقلاب العسكرى الحقيقى والتف الجميع حولى كل يستفسر ويتصايح هل حقا نقلت الجيش لينا؟ ولماذا تشددت هكذا، هل تظن أنك أو أننا نمتلك قوة؟ داجهل بالموقف؟ أبدا دى شجاعة وإصرار على الحق؟ حق أيه يا أبو حق؟

عندما رجعت عشية هذا المساء الى قريتى وجدت أخى وقد استبد به القلق وحينما رأنى اهتاج عاطفياً وكاد أن يطلب مغفرتى لدعوته على بالأمس عاجلته بأن قصصت عليه ما جرى وانشرحت أساريره وقال

أهوكده تبقى ابن الشيخ عبدالحميد شرف احنا لا نحب الظلم وعيش كريم أو موت كريم، تسللت إلى حجرتى وتعلقت أمام ناظرى صورة ذلك العميد دمث الخلق- واسترجعت معلومة قيلت لى عنه : إنه يحمل درجة الدكتوراة العسكرية وأنه يحمل نيشاناً عسكريًا من الاتحاد السوفيتى، وخوفا من أن يتحول ذكاؤه ويقوده إلى الجنون جاءوا به إلى هنا ليستريح !! وفكرت وتساءلت ترى ليستريح أم ليريح؟ وأخذت استرجع اصرارى وأنا أردد لا يموت حق وراءه مطالب.

* المحطة الرابعة:

فى العشرة أيام الأخيرة من شهر اكتوبر سنة ١٩٦٦، كلفت ضمن مجموعة من الزملاء وعلى ضوء تجربتنا الناجحة فى مؤتمر المبعوثين أن نتجه إلى فندق البرج فوق نقابة المعلمين لمرافقة الوفود الافريقية التى ستشارك فى ندوة نظمتها مجلتى: الطليعة القاهرية، ومجلة السلم والاشتراكية الدولية التى تصدر من براغ تحت عنوان «إفريقيا- ثورة التحرر الوطنى والاشتراكية» وكانت مجموعتنا برئاسة الأستاذ صلاح الشرنوبى وهو عضو لجنة مركزية للمنظمة، وكنت أنا الشخص الثانى بعده ونظراً لأهميتنا السياسية خصصنا للمتابعة السياسية للوفود وللندوة وكانت الندوة، ممتدة بين يومى ٢٤ الى ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٦٦، وشارك فى أعمالها حوالى ٣٨ حزباً وطنياً وتقدمياً من معظم بلاد القارة الافريقية، وكان على الندوة أن تناقش موضوعين رئيسيين الأول «كفاح القارة الافريقية ضد الاستعمار الجديد» وكانت مجلة الطليعة هى المعنية والمنظمة لهذا الموضوع.

الثانى: طرق وظروف التطور التقدمى للبلدان الافريقية والتزمت مجلة السلم والاشتراكية الدولية به.

ومنذ الوهلة الأولى صدمت بقوة الماركسية داخل افريقيا فمعظم المشاركين ينتمون للفكر الماركسي وتصدر مداخلاتهم عن وعي عميق بقضايا التحرر الوطني ومقاومة الاستعمار والاشتراكية.

وكانت صدمتي الثانية هي أنني اكتشفت وجود أحزاب شيوعية في البلاد العربية وأذكر من على البعد كيف أن الرفيق «على يعطه» الأمين العام لحزب التقدم والاشتراكية المغربي وهو الحزب الشيوعي المغربي كان نجم الندوة الساطع رئيسا للجلسات ومتداخلا ومحاورا وحريصا على اللقاءات الجانبية.

وعلى مدى المحاورات والمداخلات ارتسمت أمامي السياسة وهي تلبس القناع فالجهد الرسمي في المنظمة يهيل التراب على الماركسية ويصور الشيوعيين وكأنهم مجموعة من الدمى تتحرك على مسرح للعرائس تمسك بخيوطها قوى خارجية ومسرحياتهم هذه لايخرجها إلا تكنيك وحيد هو المؤامرة، فهذا يحكي لك كيف أن الشيوعيين ينتشرون في كافة الأرجاء وعلى لسانهم نفس الكلام وبنفس العبارات تراهم في القاهرة قوى منمنمة «لاتستطيع أن تفهم كنهها» «كأنهم يأجوج ومأجوج» «أو كأنهم جيوش من النمل لهم خلايا» هذا التصور الغامض ينتقل بك إلى أماكن أخرى نجدهم في كفرالشيخ وهكذا.. وكذلك هي في أسيوط هكذا.....الخ.

وفعلا ظل الشيوعيون في مخيلتي كيانات هلامية غامضة حتى من قابلتهم على قهوة «ايسائيفتش» كانوا يسبون الشيوعيين باعتبارهم جيشاً من الخونة للطبقة العامة لأنهم حلوا حزب الطبقة العاملة طواعية، .ظللت أراقب الموقف من داخل الندوة وأنا ممزق بين صورتين، صورة في مخيلتي وصورة أراها في الواقع أمامي حيث أتابع مثقفين

يفهمون جيدا قضايا الاستعمار والتحرر الوطنى ويتكلمون فى التنمية وفى العلاقات الدولية بطريقة مقنعة وأخذت أعلل النفس هؤلاء فى النهاية غرباء وأجانب وقد تكون الصورة المزروعة فى مخيلتى تخص الشيوعيين المصريين وحدهم.

وفى أمسية اليوم الثالث قدم لطفى الخولى رجلا اسمه زكى مراد «بأنه الزعيم الشيوعى المصرى البارز الذى واجه السجون فى العهد الملكى والعهد الجمهورى، ومع ذلك لم يحد عن قناعاته بل راح يؤكد تلك القناعات هو وبعض رفاقه وهم تحت التعذيب بأن حركة الجيش يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، هى إحدى حلقات ثورة التحرر الوطنى المصرية وهى جزء من الثورة الوطنية- الديمقراطية المصرية»؛ واستطرد لطفى الخولى يؤكد: وفى حين كانت بعض المدارس الماركسية التقليدية تصم حركة الجيش بالدكتاتورية العسكرية كان زكى مراد ورفاقة يؤكدون طابعها الوطنى التحررى وطابعها الديمقراطى بعد تصفيتها للعلاقات الاقطاعية فى مصر إليكم شيوعى مصرى من نسيج خاص يتناول عرض بحثه عن البعد الوطنى الديمقراطى لحركة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

كان لطفى الخولى كلما استطرد فى تقديمه السابق أحس أنه يتعمد صب الزيت على نارى المتأججة، ورحت أتمتم يا للجرأة بل يا للفجور: وكدت أقف منفجراً لمصادرة هذا التطاول!! ووجدت الزميل صلاح الشرنوبى وهو واحد ممن بنى الصورة التى فى مخيلتى عن الشيوعيين- يرجونى أن أهدأ فلا بد من متابعة هذا الأمر حتى النهاية.

وفى برهة لمحت رجلا أسود ممشوقا باسم الوجه تطفح ملامحه ببشر فياض يخطو إلى منصة المؤتمر ووسط جو فرض عليه هو البهجة

بتعليقاته الضاحكة راح يسرد تاريخ الضباط الأحرار، ويشرح ويحلل انتماءاتهم الطبقية واتجاهاتهم الفكرية، وكلما استرسل الرجل فى كلامه أجد نارى المأججة بالغضب تحولت إلى برد وسلام، وملك الرجل كل انتباهى فى حين كانت الوفود تضج بالمقاطعات والخلافات، فالرجل يتحدى القناعات السائدة، ويقول: إنه يمكن لمثل هذا الانقلاب العسكرى أن يكون بداية ثورة وطنية تحررية ذات طبيعة ديمقراطية بمعنى أخذ يشرحه بأن الديمقراطية تعنى فى تطور المجتمعات اسقاط علاقات ماقبل الرأسمالية وتحرير عبيد الأرض من الأقنان وتحويلهم إلى حرية التعاقد والعمل المأجور، وأن ثورة ٢٣ يوليو فى مصر وجهت ضربات قاصمة للاقطاع وعلاقات ماقبل الرأسمالية، وحررت الفلاح المصرى من وضعه شبه القنانى، أى من صيغة الفلاح القرارى، وحولته لرجل حر يمتلك حق الهجرة للمدينة والسعى إلى العمل المأجور ورفعت شعارها الخالد «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد» وواصل الرجل تحديه لمستمعيه وقال «من قال إن الديمقراطية هى فقط الحريات السياسية إن الحريات السياسية، جناح لها أما جناحها الثانى بل أساسها المادى هى الحرية الاقتصادية- الإجتماعية».

وأذكر أن المحاضرة تحولت إلى فوضى من كثرة المقاطعات والرجل مازال باشاً فكهاً مسترسلاً فى الشرح والتحليل، وعندما انتهى الرجل من كلامه وجدت أن موقفى تحول إلى النقيض تماما، فما سمعته من هذا الرجل هو الكلام الذى أبحث عنه، وهذا التحليل الذى شرحه وهو ما ذهبت إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية كى أعرف كيف أتوصل إليه، بل وعندما لم تشبعنى الكلية وتعلق أملى بالمنظمة لم أسمع مثل هذا الشرح السلس الذى يستخدم الاستقراء منهجا، فهو ينطلق من

مقدمات الواقع ويصل إلى نتائج لها فعل القوانين العلمية : إنها علاقات عليه تربط ظواهر واضحة.

بعد المشاحنات والتوترات التى سادت القاعة عقب القاء هذا البحث أعجبت بالرجل أيما أعجاب، فبالإضافة إلى ماقاله أعجبت بشجاعته فى التصدى للتهجمات المتتابعة عليه ووجدته مازال باسم الثغر تكشف أسنانه البيضاء عمق لونه النحاسى الغامق وتظهر بشرته السمراء هذه مدى بياض أسنانه وحميمية ابتسامته، ووجدتنى أخف نحوه وأتسلل إليه وأطلب منه «أريد أن أتعرف بك أكثر» وقدمت له نفسى وطلب منى أن نخرج معاً.

بدأت حديثى معه عن مدى استفزازى حالة تقديمه لالقاء مداخلته فى الندوة وأوضحت له مدى تغير نظرتى إليه الآن غير أنى أود أستمرار الحوار وخرجنا ووقفنا أمام حديقة الأندلس، وطالت وقفتنا وعبرنا كوبرى قصرالنيل وتاهت أرجلنا فى شوارع جاردن سيتى، ثم انتقلنا إلى المنيرة ونظرنا فى الساعة فوجدنا أننا قضينا اكثر من أربع ساعات، ودعانى أن أذهب لتناول الشاى معه فى منزله ووجدتنى أدخل منزله ولم أنس أننى دخلت فى هذا المساء من بوابة للتاريخ المصرى لم أسمع عنها من قبل، فالرجل أخذ يحكى لى تاريخ الحركة الوطنية التحررية المصرية منذ ثورة عرابى سنة ١٨٨١، وربط السياسى بالاجتماعى بالاقتصادى، وسمعت كلاماً وعرفت اسماء لم أعرف بها من قبل، وحتى كتب عبدالرحمن الرافعى التى عكفت على دراستها فى عامى الدراسى الأول بالكلية بدأت لى جزئية ومبتسرة ولاتغطى إلا زاوية واحدة من التاريخ الوطنى المصرى التحررى فى العصر الحديث.

وتعددت لقاءاتى وتتابعت مع زكى مراد منذ ذلك اليوم وعرفنى

بأقرب الناس إليه رفيق طفولته ورفيق دوبه الكفاحي وصديق عمره محمد خليل قاسم، وفي كل لقاء مع هذا أو مع ذاك كان التاريخ الوطني تاريخ الحركة الوطنية المصرية هو مجال حديثنا الأساسي، وفي يوم من الأيام سألت زكي مراد لقد وجدت فيك وفي محمد خليل قاسم صورة حميمية لرجال شيوعيين عكس الصورة التي كانت في ذهني، والتي تشكلت من الكلية والمنظمة أولا وتثبتت لدى عندما قابلت مجموعات شباب اليسار الجديد على «مقاهي ريش وايزائيفتش»؟ فلماذا هل أنت وصديقك نموذجان خاصان أو عامان؟ أي هل تمتلكان تفردا أو أن غالبية الشيوعيين على شاكلتكما؟

أجاب على ذلك وهو يقول الشيوعيون أو الاشتراكيون العلميون صنفان من الناس.

صنف دخل الاشتراكية من باب المكتبة وكقارىء لمعارف تتسم بالبناء المنطقي.

والرصانة العلمية فاقتنع فكريا بالماركسية وعليه صار نصوصيا كمن يقتنع بعقيدة نظرية ذلك أن سواء البنية الفكرية ومقولاتها هي الأساس عنده.

وصنف أخر لم تكن معاناته معاناة ثقافية أو فكرية بل معاناة واقعية فهو يرصد الواقع ويرصد حركة المجتمع فعندما صادف الماركسية ونظرية الاشتراكية العلمية وجد توافقا بينها وبين حركة الواقع والحركة الشيوعية المصرية لم تخلُ من وجود الصنفين فقد وجد لدينا شيوعيون من أبناء الطبقة الاقطاعية لبت الماركسية معاناتهم النظرية والفكرية باتساقها وإحكام بنيتها الفكرية فاعتقدوا بها وراحوا يقيسون الواقع عليها، ولا يستخدمون الطريقة العكسية والشباب

والذين تتحدث عنهم هذا حالهم أيضا ، فلقد دخلوا الشيوعية من باب التناسق والهارمونى الفكرى واسقطوا نظرياتهم على الواقع وقاسوا الواقع بمقاييس النظرية ولم يستخدموا العكس أى قياس النظرية بمقاييس الواقع وأردف لذلك لن أعجب إذا علمت منك ومن أخرين أن حكمهم على اعتقاوك بالاشتراكية يقاس بكم كتاب قرأت ، بل لقد سمعت أن بعضهم غالى وعقد امتحانات تحريرية فى بعض الكتب وسألت الرجل هل قرأت الماركسية؟ وأخذ يضحك ويقول تعرف أنا ظللت اكثر من عشر سنوات غير قادر على فهم الخمسين صفحة الأولى من كتاب رأس المال لكارل ماركس ، ووجدت من نصحنى وقال لى لماذا تحشر نفسك فى هذا الركن الضيق افهم واقعك الأول واقرأ فى اتجاهات متعددة وفعلاً وبعد قراءات التاريخ والأدب والاحتكاك بالحركة الوطنية استطعت أن أقرأ رأس المال كله فيما لا يزيد على ثلاثة أشهر .

وسألته هل يعنى ذلك أنك تنصحنى باتباع هذا النهج فرد على محمد خليل قاسم سوف يساعدك كثيراً فى منهجه قراءاتك الأدبية والتاريخية العامة ، أما أنا فسوف أقدم لك مادة تاريخية حية أى خبروية عن تجربة الحركة الوطنية المصرية كحركة وطنية ديمقراطية فى العصر الحديث ، وسوف أسهب فيها منذ الأربعينيات وسألته ولكن هل هناك مراجع محايدة؟

أجاب وهل هناك مادة تاريخية محايدة اقرأ كل الاتجاهات ولا تخش شيئا .

قلت أفهم من ذلك أنك لايهمك أن أكون شيوعيًا؟

أجاب الرجل من يكن وطنياً صادقاً سوف يكن قد قطع أكثر من نصف الطريق إلى الشيوعية ، إن الشيوعية ليست مستهدفة فى ذاتها

ولكنها نظرية نريد أن نخدم بها بلادنا نخدم بها وطننا وأهلنا وروابطنا القومية والعالمية.

على ضوء هذه المعانى بدأت أتيقن أن السياسة دائما تلبس القناع لذلك بدأ الشك يصير طريقا ومنهجا لى فى التفكير ومتابعة الحياة السياسية، لقد قررت أن أتخلى عن بعض سذاجتى حتى أتمكن من فهم الواقع ورحت أضحك من نفسى لقد تصورت فى يوم ما أننى يمكننى أن أتعلم السياسة من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وكذّب الواقع تصوراتى فلماذا أيضا أتصور أن منظمة الشباب هى مفتاح المعرفة الوحيد لى إلى السياسة لابد لى من الأخذ بأسلوب تنوع المعرفة ولن أخشى شيئا.

* المحطة الخامسة:

فى النصف الثانى من شهر ديسمبر سنة ١٩٦٦ وكان يوافق شهر رمضان المعظم استدعانى الدكتور حسين كامل بهاء الدين أمين الشباب ورئيس المنظمة إلى مكتبه وجلس معى بحضور الدكتور عادل عبدالفتاح سكرتير التنظيم فى جلسة حوار طويلة حول قضايا الوطن، وأخذ يتكلم عن ثورة يوليو وأهمية صيانة خطها السياسى وأهمية وجود جيل جديد لابد أن يتميز بطابعه الخاص الذى يعكس به الطابع الخاص للثورة فى مرحلتها الراهنة كتجربة اشتراكية متميزة، وبالأخص عن الاشتراكية الماركسية فاشتراكيتنا تؤمن بالأديان والرسالات السماوية كثورات انسانية خالدة، وتؤمن بالملكية الخاصة وحق التملك الخاص، وتؤمن بوجود رأسمالية وطنية غير مستغلة كما أن اشتراكيتنا تؤمن بالقومية باعتبارها مفهوماً سياسياً راقياً، وأوضح أهمية أن نلتزم بهذه المفاهيم العامة فالبلاد تحفل بالقوى المضادة من كل اتجاه، هناك بقايا

القوى الرجعية المتعفنة من الطبقات البائدة الاقطاعية والاحتكارية والرأسمالية المستغلة، وهناك محاولات التسلل من قبل الاخوان المسلمين الذين يتاجرون بالدين وهم يتعاونون مع الاستعمار ويسعون لتحقيق أهدافه بالرغم من ادعاءاتهم أنهم ضد الحضارة الأوربية الحديثة، وهناك الشيوعيون وهم يريدون أن يجرونا إلى اشتراكيتهم التى لاتصلح لبلادنا بموقفها المعادى للدين وللملكية الخاصة وللقومية العربية، وعليه يجب على الكادر الواعى المدافع عن الثورة أن يفهم دائرة الأعداء هذه ولا ينخدع بأى من هذه الاتجاهات فاتجاهنا الثورى واضح، وعلى الرغم من أننى كنت أتابع الدكتور حسين وأهز رأسى لإظهار توافقى معه كان كيانى بالداخل يهتز من هول اتساع دائرة الأعداء وكان هناك تساءل يتكون فى ركن ما بداخل عقلى ووجدانى! هل نستطيع وصف كل هؤلاء بالأعداء؟ وما معيار الفرز؟ هل هو الاختلاف الفكرى؟ أو اختلاف المصالح؟ أليس من الحنكة تضييق القاعدة المعادية؟ حتى يسهل القتال على جبهة واحدة؟ بعد أن اكمل د. حسين تحليله أكد على بضرورة حضورى صباح الغد فى التاسعة صباحا لمهمة ذات طبيعة سرية وأهمية أن لا أسرب أى شئ عن موعد حضورى غداً لأى كائن مهما كان.

بعد تناولى طعام السحور رحت أدعو نفسى لساعتين أو ثلاث من النوم غير أن السهد كحل عيونى، وفى الصباح الباكر قمت وارتديت أحسن ماعندى من ملابس وقررت الخروج إلى الشارع وأسلمت رجلى للتجوال حتى وصلت إلى شاطئ النيل، ووجدت أن الوقت مازال مبكرا فجلست على أريكة خشبية وسرحت مع منظر الطبيعة الأخاذ، فقد أرسلت الشمس خيوط الذهب وحطت بها على صفحة النيل وتحركت

نسمات الصبح الباردة لتجعل من إحدى العمارات خلف طبقة خفيفة من الضباب، وكأنها إحدى بنات أسرتى وقد وقفت لتنشر خيوط القطن وشلاته التى رفعتها من اناء به سائل غليظ من الماء والدقيق المطبوخ لتجففه الشمس قبل أن يدخل إلى النول الخشبى لأبى ويشده ليبدأ عملية نسيجه كسداة تتداخل مع اللحمة التى تلتف على بكرة داخل مكوكه الخشبى، وسط الاستغراق فى هذه الصورة التى اعادتنى لقريتى افقت على متابعة قارب خشبى صغير لصياد فقير مع أسرته وكأن لسعة البرد التى اعترتنى كشفت لى فقر حاله وطول صبره فى السعى وراء الرزق الحلال، وشيئا فشيئا بدأ الشارع يضج بالحركة حتى اقتربت الساعة من التاسعة فدخلت مبنى الاتحاد الاشتراكى، وتوجهت إلى مكتب الدكتور حسين كامل بهاء الدين، بعد فترة قصيرة جاء الرجل وطلب من الدكتور عادل عبد الفتاح إغلاق باب الحجرة، وقال فى ثلاثتنا سنتوجه الآن لمقابلة السيد / على صبرى فى اجتماع على درجة عالية من الأهمية ويجب أن يظل فى طى الكتمان.

عندما استقبلنا السيد / على صبرى أفهمنا أن هذا اجتماع مخصص للوحدة القيادية العليا لقطاع الشباب فى التنظيم الطليعى، وراح يؤكد أهمية هذا الاجتماع ويؤكد أهمية الحاضرين فيه ومدى ثقة النظام فيهم، وخصنى بأكبر مساحة من الكلام نظرا لصغر سنى وأهمية هذا العامل فى إعداد قيادات تحتل أعلى المناصب فى الدولة، وتفتح أمامها أوسع الأبواب للوظائف العليا السياسية عندئذ طلبت مداخلة فأذن لى فقلت لست طالب سلطة أو منصب أو وظيفة ولكنى فقط طالب كفاح ونضال من أجل الوطن ومن أجل الدفاع عن حقوق أبنائه وأننى طالب تضحية بالغالى والنفيس من أجل هذا الهدف.

وقاطعنيَ الرجل وقال ليس هناك تضارب بين الرغبة فى التضحية وحيازة السلطة المنصب والوظيفة بل والامتيازات فمن يخدم الشعب يقدمه الشعب ليحتل أول الصفوف وأفسدت استمرارية الاجتماع بمناقشة فقهية حول أن السلطة مفسدة والنضال لابد أن يتجرد من الامتيازات حتى يكون نضالاً من أجل وجه الله والوطن والشعب.

وفى أكثر من مرة حاول السيد على صبرى اقناعى غير أنى كنت قد تعديت حدود السيطرة على نفسى، ذلك أن حالة صدق نضالى جعلتنى أتوجس خيفة مما يعرض على بل وجدتنى أستفيض فى أن أبرهن على أن هذا الشكل السرى للعمل يتماثل مع رفضى للمناصب وأهمية الفصل بين المهمة الثورية بأبعادها الكفاحية والرقابية؛ ومهام الإدارة والوظائف بأبعادها التسلطية والنفعية.

ونهرنى السيد على صبرى ونظر إليَ الدكتور حسين كامل بهاء الدين وأدركت أنه قال له بلغة العيون لقد أخطأت الاختيار غير أن تلك اللغة جعلتنى أزداد إصرارا على موقفى وانتهى الاجتماع بأسرع مما قدرله.

وطلب الدكتور حسين كامل منى الانتظار واختلى بالدكتور عادل عبدالفتاح بعد فترة جاء لى د. عادل وهو فى أشد حالات الغضب وقال ايه اللى أنت هببته ده؟ إنت تزايد علينا وعلى السيد النائب، وأجبت أنا فقط أردت أن أتوافق مع نفسى تتوافق ازاى بتوافق هو إحنا فى حالة دروشه واللايه؟ يا راجل أفق! واسترسل طبعا انس هذا الاجتماع بتاتا واحنا سوف نستأنفه بعد اجتماع اللجنة المركزية للشباب الذى سيبدأ بعد العيد مباشرة، وعلى فكرة فى هذا الاجتماع لديك مهمة محددة فقلت له خيراً قال أنت تعرف فلان قلت نعم أعرفه قال المطلوب منك

أن تقوم بعملية فضحه وتشريحه لأنه أتى أعمالا خطرة وخارج الخط السياسى، سألته وما مدى صلتى بهذه الأعمال؟ أجاب واحد سيقوم بمواجهته وأنت من موقع المحايد سوف تحلل مدى خطورة هذه الأعمال حتى نصدر قرارا بفصله أو توقيع عقوبة تنظيمية أخرى عليه.

خرجت منسحباً وأنا أجر أرجلى وأجر معها أذيال الخيبة وعقلى يشتعل بالسؤال هل لغشيم مثلى حظ فى أن يكون فى يوم من الأيام سياسياً؟

ونما إصرار بداخلى حتى صار شجرة راسخة فروعها عروق دمى وأغصانها وساقها عظامى وورقها عضلاتى ولحمى، أبوه السياسة ليست مهنة البحث عن المغانم. السياسة هى الدفاع عن الوطن ومصالح أولاده حقا السلطة أداة صلاح وخير ويجب ألا تكون أداة لجلب المنفعة الشخصية والحظوة والسطوة، وتذكرت قولنا فى الكلية فعلا أنا لا أصلح إلا أن أكون صفيراً متقطعاً لذلك أحسست براحة كبيرة وقررت بداخلى لن انفذ ما طلب منى فى الاجتماع القادم، وجاء الاجتماع القادم للجنة المركزية وكان هناك حدث سياسى يؤرقنى ذلك أن اسرائيل قامت فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٦٦ باعتداء واسع على قرية السموع فى منطقة الخليل بالضفة الغربية لنهر الأردن، ومر عدوانها بدون أى فعل صغر أو كبر واقتصر الأمر على الصراخ العالى، وكنت قد قررت أننى سوف أفجر هذه القضية فى الاجتماع وأطلب من السيد / على صبرى أن يحدد لنا استراتيجيتنا قبل اسرائيل، ولماذا اقتصر ردنا على الصراخ دون الفعل؟ فخير لنا أن نفعل شيئا ما وإلا فلنصمت!!

بعد القاء كلمة افتتاح الدورة الذى القاها على صبرى بدأت ألح فى طلب الكلمة، وكلما ألححت فى ذلك توتر الدكتور حسين بهاء الدين

وأصر على عدم اعطائى فرصتى للحديث ورفعت الجلسة للاستراحة وجاء الى عادل عبدالفتاح وقال: (أنت مجنون عايز تفجر الموضوع قبل أن يطرح. (قلت له ومين قال لك إن لى علاقة بهذا الموضوع.- رد على منفعلا هو ده مش تكليف. قلت له لا يكلف الله نفسا إلى وسعها.- قال يعنى ايه أجبت ده مش موضوعى سأل إذن لماذا تلح فى طلب الكلمة - أجبت لأنى أريد تناول موضوع العدوان الاسرائيلى على منطقة الخليل وتحديد الخطوط الاستراتيجية لموقفنا من اسرائيل رد على مبتسماً دا فعلا موضوع مهم كيف لم يلتفت أحد فينا إليه واستطرد متسائلاً : فقط هذا الموضوع؟ أجبت فقط.

بعد استئناف الجلسة أعطيت فرصة السؤال وطرحت قضية العدوان وأجاب على صبرى مؤكدا أن استراتيجيتنا تقوم على السيطرة على الموقف وبذل أقصى جهد فى الانضباط ومجاراة الفعل برد فعل يناسبه فى هذا الإطار، وعلى كل حال نحن أثرنا الموضوع فى المحافل الدولية على الرغم من أن الحكومة الأردنية تناسته.

أقنعنى هذا المنطق وقلت حقا السياسة هى فن الممكن، ولكن مالم يقنعنى هذا الهياج الإعلامى وهذا التصايح الكلامى الذى يسير فى واد غير وادينا الفعلى حقا انها السياسة والقناع أن تقول ما لا تفعل!!.

فى نهاية الجلسة أعلمنا بأن دورة الاجتماع ستطول لعدة أيام وأننا فى هذا المساء مدعوون لمتابعة عرض مسرحى على مسرح الجمهورية، كنا قد لاحظنا غياب بعض الزملاء عن الاجتماع، وفى مسرح الجمهورية ليلا تسربت إلينا أنباء القبض على مجموعة متآمرة من زملائنا تأمرت باعتبارها مجموعة شيوعية تتبنى خط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأنها أخذت من مقالات صلاح عيسى المعنونة بـ«الثورة بين

المسيروالمصير» المنشورة بجريدة الهدف إطار الهجوم على النظام الثورى وهذه المجموعة تتكون من خمسة من المركزيين هم: سمير حمزة - شوقى العقباوى- صالح سمره - صالح محمد صالح - بهاء عبدالفتاح.

فى صباح اليوم التالى دخل على صبرى الاجتماع متخليا عما ماعرف عنه من هدوء وروية وبدأ يلقى خطابا ناريا عن التآمر الشيوعى والشرر يتطاير من عينه قال مهددا لن يسمح أحد لكم ولن نسمح لأحد من الشباب أن يكون شيوعيا ، قد نلتمس بعض العذر لمن أعتقد فى الشيوعية سابقا ذلك أننا لم نكن قد بلورنا نظريتنا الثورية بعد هذه التى بلورها الميثاق الوطنى الذى أعلن فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٦٢ ، أما الآن ونحن نمتلك البديل الثورى لايحق لأحد من الشباب أن يكون شيوعيا وإلاسوف نضرب عليه بيد من حديد وأرغى الرجل وأزبد وهدد وتوعد.

سرت لدى قشعريرة تصاحبت بنوبة خوف استحضرت من ذاكرتى صورة الجنرال المغربى محمد أفقير الذى لم أشعر فى حياتى السياسية إلا بالخوف منه عندما قرأت فى صيف سنة ١٩٦٥ كتاب كتبه عنه سعد زغلول فؤاد ، غير أن هذه النوبة الخاطفة تحولت باصرار إلى قرار داخلى لابد لى أن أعرف ما تنهانا عنه وليجرى ما يجرى لى فليس هناك أثمن من معرفة الحقيقة ، وهذا التزيد فى الرفض مع هذا السلوك الذى تشوبه الشوائب لن يجتمعا إلا ضد الحق فلابد لى من ازاحة القناع..

لأول مرة وأنا لم أبرح مقعدى فى قاعة الاجتماعات بالمبنى الملحق بمبنى الاتحاد الاشتراكى المبنى الذى يحتله الآن الحزب الوطنى الديمقراطى كان قرارى لابد من معرفة الشيوعية تلك.

أسلمتنى هذه المحطات التى تحفل بالوقائع والمعانى فى نهاية سنة ١٩٦٦ ، إلى حالة لمست فيها بيدى ورأيت بأم عينى أن السياسة هى علم إدارة الصراعات العامة فى المجتمع ، وتكشفت الطبيعة الصراعية للسلطة العامة وللمصالح العامة داخليا وخارجيا وأدركت أن الإدارة التآمرية للسلطة أو الوصول لها بالتآمر ليس هو جوهر قضايا السلطة العامة فتستبدل الصراع الراقى أى صراع المصالح الاقتصادية الاجتماعية بصراع مفتعل جوهره التآمر ، والباس الشخصى لباس العام وتحويل المآرب والأغراض الذاتية وكأنها تعبر عن مصالح عامة وقضايا صراعية اقتصادية اجتماعية ، ولأول مرة أعاود التصدى الداخلى لقولة الشيخ محمدعبده «لعن الله السياسة» وأقول لنفسى هناك سياسة وإذا كان الشيخ محمدعبده لعن السياسة فقد لعن السياسة التى تبنى على إقرار التآمر والتى هى جوهرها تحقيق المصالح الذاتية والشخصية لفرد أو لمجموعة أفراد وادعاء أن هذه المصالح الذاتية تعبر عن مصالح عامة طبقية أو وطنية . . غير أن السياسة الراقية التى تدير الصراع حول المصالح العامة فى داخل الوطن وخارجه ، سياسة من نوع آخر انها سياسة وإدارة السلطة لتحقيق المصالح العامة على أساس المواجهة العلنية والصراحة والوضوح ، وهكذا نكون جنين هذه الفكرة فى أحشاء عقلى منذ ذلك اليوم وأخذ ينمو فى غمار معارك فكرية فرضتها على ممارساتى السياسية .

الفصل الثالث
الاختيار السياسى وإدراك الصراعات

ليس هناك ظرف أكثر ملاءمة لتحديد الخيارات، أكثر من ظرف بروز الصراعات والتناقضات، فلقد ارتبط الاختيار دائما بين المفاضلة بين أكثر من طريق أو نهج للوصول إلى المطلوب، وعندما تتحدد الصراعات سواء على أساس موضوعى، أى على أساس التصارع أو التضاد بين المصالح المختلفة، أى بين الموضوعات المختلفة، تتحدد الظروف الملائمة للاختيار الأساسى، أو الاستراتيجى، كذلك عندما تتعدد الأساليب والطرق للتعبير عن تنفيذ اختيار محدد ذات موضوع واحد، تتهيأ الظروف للاختيار على أسس تكتيكية، أى على مناهج وطرق التنفيذ، أو الوصول للغرض.

ومما لاشك فيه أن الصراعات بمحوريها هذين، أخذت تطل علَّى لرسم واقع الحياة السياسية أمامى فى الفترة محل المعايشة هذه.

فبعد أن اكتشفت أن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ليست هى بغيتى فى تعلم السياسة، التى تتماثل مع السياسة التلقائية، أو مع قيم تيار الوطنية العامة، الذى انتمى إليه، أدركت أيضا أن منظمة الشباب الاشتراكى عاجزة بدورها عن تقديم ما أطلبه، لى أو لغيرى من شباب مصر، وشيئا فشيئا أخذت هذه الحقيقة تتعاظم وتزداد درجة وضوحها لى. وجاءت أحداث الهزيمة القاسية فى يونيو سنة ١٩٦٧، لتجعل من هذا الاكتشاف، ليس مجرد اكتشاف فردى، بل جماعى، بل أخذ هذا الاكتشاف الجماعى، يجدد التيار العام للوطنية، ويتأهب لنقله إلى

مرحلة الاستقلالية، التى تكشف عن أصله وجوهره، بعد ذلك الخلط الذى ظهر فى مجرى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، ذلك أن هذا التيار التلقائى الذى تبلور بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فى مجرى حركة التحرير المصرية، والذى شهد قمته الأساسية فى أحداث فبراير ومارس سنة ١٩٤٦، حيث تجاوز الوضع الحزبى ليكون وضعاً تيارياً سياسياً عاماً، شاركت فيه طلائع سياسية من الاحزاب الحديثة، والقديمة، والحركات والتنظيمات الجماهيرية، وتزايد عنها، وامتد بحركته لأوسع من الحركة الحزبية فى مصر، وامتد هذا التيار حتى شهد قمته الثانية فى أحداث يناير سنة ١٩٥٢، ثم جاءت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وبعد سنة ١٩٥٦ بدا هذا التيار مؤلما لصالح السلطة فاقدا لاستقلاليته ومبادرته الجماهيرية التقليدية، وتوضح الصفحات التالية بروز ونشوء هذا الاستئناف لمجرى التيار التلقائى ولو من باب تجربتى الشخصية.

[٨]
وبدأت الصراع السياسى:

إذا كانت الفترة الواقعة بين ديسمبر سنة ١٩٦٥، ونهاية ديسمبر سنة ١٩٦٦، هى الفترة التى دخلت فيها ميدان السياسة العملية، فمنذ بداية سنة ١٩٦٧ دخلت السياسة على أساس صراعى.

وبدأت مسيرة الصراع السياسى، أى بدأت السياسة كما هى فعلا، فلقد انتهت تلك الفكرة العاطفية التى سيطرت على وجدانى، والتى تمازجت فيها السياسة بالحب الرومانسى للوطن، وتصورت فيها أن

السياسة هى الطريق الذى أعبر به عن هذا الحب المتوهج فى كيانى تلقائيا، غير أن الظواهر الإجتماعية والحياتية ليست قطعة جبن يتم قطعها بسكين مسنون، فتنفصل إلى قطعتين فى ذات الوقت.

تواصلت حياتى العملية سياسيا، وكانت أهم محطات هذه الفترة ما يلى:-

«أ»- فى الجامعة:

أخلت دفعة سنة ١٩٦٦ النشطة مكانها فى الكلية، وتركت فراغاً واضحاً، فقد تخرجت، ومن ثم غاب مصطفى الفقى ومحمد عبد الشفيع عيسى وخالد الكومى وحاتم القرنشاوى، ومدحت الشوربجى ونادية سالم ومحمد عزالدين، وفرض على أن أكون رأس النشاط الثقافى والسياسى فى الكلية، أصبحت رئيسيا لجمعية أو جماعة الفكر الاشتراكى، واكتظ برنامج الندوات والمحاضرات الخارجية، وفى صباح أحد الأيام كان الدكتور رفعت المحجوب، بصوته الجهورى، وطريقته المميزة فى القاء المحاضرات، حيث يستخدم اللغة الفصحى فى الالقاء، يحاضر لنا فى المادة القومية عن الاشتراكية، وبطريقة منبرية عفلقية «نسبة إلى ميشيل عفلق فى الحديث والتحاج السياسى، وهو مؤسس حزب البعث العربى الاشتراكى» كان د. رفعت المحجوب يتقصى جذور الفكرة الاشتراكية، وأذهلنى أن ينكب فى هذا الصباح على استعراض فكر «جوناثان بنثام» صاحب فكرة المنفعة، وأحد أعمدة المدرسة الرأسمالية الاقتصادية المجردة، كواحد من الرجال الذين ترتبط بهم جذور الفكرة الاشتراكية.، «وبنثام» هذا لم أسمع ولم أقرأ من أى جهة كانت، أن تجاسر أحد وقام بحشره ضمن زمرة الاشتراكيين، فالمدرسة النفعية حتى لاتدخل ضمن تركيبة المدرسة الكلاسيكية للاقتصاد

السياسى الرأسمالى والتى قد تكون قدمت أفكارا للمدرسة الاشتراكية فى الاقتصاد السياسى، مثل قانون القيمة أو غيره.

وكلما ارتفعت نبرات د. رفعت المحجوب الخطابية والحماسية، كلما زاد الضغط على أعصابى، حتى وصل لقوله: «أنه لا يمكن تصور تلازم الفقر والغنى مع بعضهما، ولا يمكن تصور الشقاء والسعادة وقد تجاورا، ولتتخيلوا معى ياسادة أن هناك جزيرة نائية تقع فى أعماق المحيط، يسكنها قوم يرفلون فى حلل السعادة القشيبة وقد حطت على شاطئهم سفينة محملة بقوم من الأشقياء، هل إذا نزلوا إلى الجزيرة سيستمر شعورهم بالشقاء والتعاسة، أو هل سيندمجون فى جو السعادة المسيطر على هذه الجزيرة؟ أغلب الظن ياسادة: أنهم سيندمجون فى السعادة التى تغمر أبناء هذه الجزيرة.. «وأردف»، ولتتصوروا معى ياسادة أن تلك الجزيرة المعزولة النائية كانت مسكنا لقوم من التعساء والفقراء، وحطت على شاطئها سفينة تحمل قوماً، أو جماعة من السعداء والأغنياء هل ستستمر سعادتهم..

وجدت أسهم نارية تنطلق من رجلى وتدفعنى للوقوف والتداخل بالحديث: «ياسيدى الأستاذ، بدلاً من السياحة فى بحر الخيال والأحلام، لنذهب إلى أى قرية أو أى مصنع سوف نرى على أرض الواقع تلازم الفقر والغنى، وتجاور السعادة والتعاسة، بل غالبا ما يكون أحد الأمرين دافعا وسببا لوجود الآخر، وتحديدا فإن سعادة الأغنياء هذه دائما ما يكون شرط تواجدها واستمرارها شقاء الفقراء وتعاستهم.»

فوجئ الدكتور رفعت المحجوب بمقاطعتى، وقد كان وكيلا للكلية، وفى الوقت نفسه أمين عام مكتب الجامعات فى الأمانة المركزية بالاتحاد الاشتراكى العربى، ومسئول فى لجنة الدعوة والفكر بها... فتح الرجل

حدقتيه من تحت زجاج نظارته، وقال لى أى اتجاه أنت، وما الذى دفعك للكلام، أنت ماركسى، أخرج من محاضرتى ولا تحضر ثانية بها. أجبت أنا أحاور سيادتك، وأرى أن مجرد وضع جوناثان بنشام فى مصادر الفكرة الاشتراكية استخفاف بالعلم وبنا، رد الرجل منفعلا، أخرج أيها الماركسى، فأنا أعلم أى أناس أنتم، مثيرون للشغب، وغوغائيون!!. قلت له: يا أستاذى أنا لست بماركسى وما جئت هنا لأحاورك فى الماركسية، أنت تدرّس لى مادة علمية، وهى منهج قومى «أى مقرر فى كل الكليات بالجامعة» «فكل السنوات الثالثة كانت تدرس الاشتراكية حتى فى كليات الهندسة، أى مثل مادة التربية الوطنية فى المرحلة الاعدادية والثانوية».. وكل ما أردت قوله هو مداخلة علمية، لى الحق فيها بصفتى طالبا، وحق إضافى بصفتى اشتراكى وفى مادة الاشتراكية المقررة كمنهج قومى. وأصر الدكتور رفعت على طردى، وفى لحظة وضع يده على الجرس وراح يستدعى الحرس الجامعى لإخراجى بالقوة من المحاضرة كان قائد الحرس الجامعى بكلية الإقتصاد نقيب شرطة، هو نجل محمد السباعى أى ابن مدير أمن القاهرة آنذاك، وكان ابن شقيق الكاتب الضابط يوسف السباعى، جاء هذا النقيب وأمرنى بتنفيذ أمر الاستاذ الدكتور، غير أن الأمر كان قد كبر فى مخى، ورفضت الخروج، وإذا كان ولابد فلن أغادر المكان إلا محمولا بالقوة، وتحلق حولى عدة عساكر شرطة وبدأت عملية إخراجى بالقوة، وانا أتشبث بالبنش «طاولات قاعدة المحاضرات المتتالية فى صفوف مدرجة» ودارت رحى معركة حية حسمها جرس نهاية المحاضرة، فخرج الدكتور رفعت وغادر القاعة قبلى، عندها جريت نحوه حتى التحقت به، وقلت له: إن كنت أمينا لمكتب الجامعات بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى، فأنا عضو

للجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكى، وإن كنت إستاذا ووكيلا للكلية فأنا طالب بها، وأرجو منك أن ينتهى صراعنا الآن... نظر الرجل إلىَّ شذراً وأسرع فى خطوه، وكأنه يخشى شيئا ما.

كنت أعرف واقعة محددة، وهى أن مصطفى الفقى، على طريقته، خمن أن الدكتور رفعت المحجوب «ماركسى» فأجاب فى الامتحان اجابات يفهم منها أنه هو الآخر ماركسى مثله، فأعطاه الدكتور رفعت صفرا فى الامتحان، ولم يتصحح هذا الامر إلا بتدخل العميد الدكتور محمد زكى شافعى فى الأمر وإلا كان تأخر تخرج الفقى لذلك كنت أخشى أن يكرر الدكتور رفعت المحجوب الأمر معى، بخاصة وأنه أستاذ مادتين فى عامى الثالث الجامعى: الأولى هى مادة «المالية العامة والضرائب»، والثانية هى مادة «الاشتراكية» لذلك أسلمت رجلى لخارج الجامعة، وذهبت من فورى إلى مقر المنظمة وهناك سردت القصة، وطالبت بحماية حقى كطالب.

فى طريق عودتى إلى المدينة الجامعية، وكنت قد دخلتها مرة أخرى، أخذت أردد بينى وبين نفسى، لماذا يصر الجميع عن أننى ماركسى أو شيوعى؟، وأنا حتى هذه اللحظة لم أقرأ كلمة واحدة فى أصول النظرية الماركسية. وعقدت العزم على التوجه لمقابلة محمد خليل قاسم فى منزله، وذهبت سيراً على الأقدام من الجامعة إلى حى بولاق الدكرور، وأنا أحمل عنوانا كتب على ورقة صغيرة فى يدى، ووجدت صعوبة بالغة فى الاستدلال على المنزل، المندس فى أعماق حارة فى منطقة أشبه بالمستنقع، وتواصلت معاناتى فى صعود سلم بلا حاجز «أى ليس له دربزين» وفى جو من الظلام الدامس، وعلى السطح وجدت شقة، أستأذنت ودخلتها لأول مرة، وأحسست أننى فى مكان يشيع ألفة

وبهجة، فأمامى محمد خليل قاسم يداعب صبية شوهاء، عرفت أنها شقيقته التى تعانى تخلفاً عقلياً، وراعنى أن الرجل يفيض بحنانه عليها كما لو أنه أمها، وليس مجرد شقيقها الاكبر، تلقانى الرجل بترحاب عميق، وسأل خير؟، قصصت عليه قصة يومى هذا، وقلت له مصراً، أريد كتب كارل ماركس، أريد أن أعرف ماهى الماركسية التى أتهم بها، وأنا لاعلاقة لى بها.

هدأ الرجل من روعى، وقال يا رجل لاتحفل بهذه الصغائر، وركز على دراستك، فقط واصل قراءاتك الأدبية والتاريخية، ويكفى عليك متابعة المجلات والدراسات وغير ذلك، بخاصة أن حياتك العملية زاخرة بالعلاقات، وأنت ابن أسرة كثيرة العدد، وأرى أن تحافظ على التزاماتك الاجتماعية، رفقاً بنفسك أيها الصديق ،وحتى يغير من حالتى النفسية، أخذ يشركنى فى مراجعة فصل من روايته «الشمندورة» وراح يحكى حياة القرية النوبية ويسترسل فى حكاية النوادر التى أحبها.

ب، فى منظمة الشباب الاشتراكى:

فى أجازة نصف السنة الدراسية لعام ١٩٦٦ / ١٩٦٧، عقدت دورة معسكر مشترك للشبيبة الجزائرية، شبيبة جبهة التحرير الوطنى الجزائرية مع وفد مختار من قيادات منظمة الشباب الاشتراكى فى مصر، وقد عقدت هذه الدورة فى معسكر الشباب بالهرم، فى أول طريق القاهرة- الفيوم. وقد كنت ضمن قوة هذه الدورة، وكانت تجربة شديدة الغنى، فلأول مرة كنت أحتك احتكاكاً حياتياً بغير المصريين، وكان للاحتكاك بالشباب الجزائرى مذاق خاص، فهم يتكلمون العربية بمعاناة شديدة، وبلهجة أقرب إلى الفرنسية منها إلى العربية. وكان هذا يثير لدينا الإحساس بغلظة الاستعمار الاستيطانى الفرنسى، ودوره فى

طمس الطابع القومى للشعوب، كما كان لهذه اللكنة الغربية بعد خفى يشعرك بأنك تتعامل مع كيانات مناضلة، تبذل جهداً خارقاً لمجرد التحدث بما يفترض أنه لغتها، فما إن ترى الشاب الجزائرى منفعلا، أو يريد التعبير عن نفسه، إلا وتجده مسترسلاً بلغة فرنسية سلسة وسهلة، ثم يكتشف نفسه، فيعاود المعاناة للتعبير بالعربية غير المفهومة.

عندما بدأت الدورة، احتدت الاشتباكات بين الفريقين. فالجزائريون يسخرون من تعبيرات مثل «الرأسمالية غير المستغلة» و«الاشتراكية القومية» والاشتراكية التى تقر وتعترف بالملكية الخاصة». ونحن لا نمتلك غير شعارات لا تستند على علم فى مثل هذه القضايا النظرية، لذلك نحاول جر الجزائريين إلى المعارك العملية، وقضايا السياسة الواقعية.

ولن أنسى يوم جاء الدكتور رفعت المحجوب لإلقاء محاضرة فى أصول الاقتصاد السياسى، وكيف أن الشباب الجزائرى فتحوا عليه النيران من كل جانب، وعلى الرغم من واقعتى القريبة معه، فإننى خففت لنجدته، ولكن دون جدوى، فلأول مرة أجدنى أمام منطق علمى متسق يقول: إن فائض القيمة هو معيار الاستغلال الرأسمالى، وأنه لاتوجد رأسمالية لاتحصل فائضا للقيمة، ولن أنسى أن هذه المقولات كانت خارج ادراكى وامكاناتى على متابعتها، وحاولت الاستعراض بما لدى من معلومات أكاديمية حول عناصر الإنتاج، وتضافر رأس المال مع الطبيعة وبواسطة العمل وإدارة التنظيم الرأسمالى الحديث فى إنتاج السلع والحاجيات، وكانت إجابتى تعرضنى للسخرية، فهذا يسألنى ماهو مولد القيم للسلعة؟ هل تعرف شيئا عن نظرية القيمة؟ فأرد أن العالم كله والاقتصاد ليس ماركسياً، وراعنى هول الحقيقة العلمية قال

لى شاب جزائرى، وما علاقة ماتقول بنظرية القيمة وهى نظرية وضعها أو اكتشف علاقاتها «دافيدريكاردو» وهو عالم اقتصاد كلاسيكى سبق ماركس، بل لقد سبقه «وليم بيتى» أى سبق ريكاردو فى الإشارة إلى بعض عناصرها قبل مائة عام أو اكثر.

كنت أسمع هذه الكلمات، وأحس بالخجل العلمى لإنتمائى لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، فلا يهم أن اكون مقتنعا أو غير مقتنع بما يقولون،ولكن المهم أو كان من المهم ان أعرف هذه القضايا، أو اعلم حتى بوجودها، ثم يدحضها من يريد أن يدحض نظرية، ويتحيز لأخرى. كنت أحاول فى كل مرة استدعى فيها ما درسته على يد الدكتور سعيد النجار، وان أصمد ولو لبرهة على أساس علمى، غير أن محاولاتى كانت جد فاشلة،فما درسته على يد الدكتور سعيد النجار فى الاقتصاد، جزء من علم، وليست أصول العلم، لاتغنى ولاتشبع.

انتهت هذه الدورة المشتركة، وقد جسدت ثغرة المعرفة الاقتصادية والسياسية، فى حياتى، وتأكد لى أن ما قدم لى كعلم اقتصاد وكعلم سياسة، شئ غير العلم، أنه علم مقنع، أى العلم الذى يلبس القناع، فهو ليس بعلم، أنه مجرد جزء من علم، ولكنه يلبس قناع العلم، ويقدم نفسه من تحت هذا القناع على إنه علم الاقتصاد، أو علم السياسة. إن العلم حينما لايلبى كل اشكاليات الواقع لايكون علماً كاملاً، ومالدى مجرد وهم علمى، أو فى أحسن الأحوال أجزاء من علم. ولابد من الدراسة المستقلة.

جـ فى مجرى الحياة العامة:

أسلمتنى إحدى الندوات العامة، إلى معرفة صديق سورى، أدخلنى من باب واسع إلى قوى التيار القومى العربى. وأصبح مقهى

«ايسائيفتش» فى ميدان التحرير، مساحة ساخنة للحوار مع قوى التيار القومى، والذى اشتهر بعد ذلك بالتيار الناصرى أو شباب الطليعة العربية وعرفت تضاريس ونتوءات هذا التيار، وفرقه المختلفة، بخاصة أن هذا التيار ازدهر فى المشرق العربى، وتحديدا فى سوريا ولبنان والأردن والعراق وفلسطين، ولم يكن له قوى موجودة فى الواقع المصرى السياسى، غير قوى رمزية مثل الدكتور عصمت سيف الدولة، ومحمد عبدالشفيع عيسى... وقلة من القيادات الأخرى لم احتك بها إلا فى مراحل تالية بعد سنوات منتصف السبعينيات. وكنت أتفق مع كثير من أفكار هذا التيار، واختلف أيضا مع كثير من أطروحاته وقضاياه، كما أنعشت جلسات المقهى علاقاتى بمجموعة اليسار الجديد، وإن كانت خلافاتى بهم بدأت فى التبلور، بخاصة أن قوى الفرز داخل تلك المجموعات بدأت تفعل فعلها، فتميزت الجماعات الماركسية فيهم عن الجماعات الوجودية والعبثية، فكرا وسلوكا، وحتى الجماعات الماركسية منهم أيضا أخذت تشهد هى الأخرى إنقساما وفرزا، فرق بين مجموعات ذات منطلقات فكرية متعددة.

وأيضا توطدت علاقاتى مع زكى مراد وخليل قاسم، بل فتح الأخير لى ميدانا واسعاً، حينما أخذ يشدنى لندوة أدبية أسبوعية، كانت تنعقد فى النادى النوبى العام بشارع الجمهورية، تعرفت من خلالها على أصدقاء مازلت على صلة الصداقة بهم حتى الأن. وفتح لى زكى مراد باباً واسعًا للحوار حول تاريخ الحركة الوطنية المصرية.

وهكذا جاءت استعدادات الحرب ونذرها منذ مايو وحتى يونيو سنة ١٩٦٧، وأنا غارق فى دوامة التيارات السياسية المختلفة فى مصر، سواء بصورتها الرسمية، أو بصورتها غير الرسمية. وبدأ البعد الصراعى

للسياسة يتجسد أمامى، فلم أعد ذلك الشخص الذى يتصور السياسة على أنها موقف أحادى الجانب، أو أنها عملية واضحة ومحسومة، تتساوى مع عاطفة حب الوطن، أو حتى مع مثالية رفض الظلم، بل بدأت أدرك أن السياسة سياستان، بل يمكن أن تكون أكثر، ذلك أن السياسة هى علم إدارة الصراعات الاقتصادية الاجتماعية، تلك الصراعات التى تعبر عن مصالح اجتماعية اقتصادية بعضها متقارب أو متطابق، وهذا البعض متناقض مع مصالح اجتماعية اقتصادية أخرى.

وأخذت الصورة شديدة النقاء، وشديدة المثالية لنظام الثورة، تظهر بها بعض البثور، التى تسحب أبعادا أخرى للصورة، غير أن ذلك لم يكبر ولم يصل إلى تغيير الوضع فى مخيلتى.

د، نذر العدوان الاسرائيلى فى يونيو سنة ١٩٦٧، وأيام الحرب الصعبة:

بدأت اسرائيل فى نصب فخاخ الحرب لمصر فى الشهور الأولى من سنة ١٩٦٧، وأخذت الضغوط تتزايد على مصر، مما دفع الرئيس جمال عبدالناصر أن يمارس حقا، كان قد تخلى عنه بنفسه، حينما جعل ميناء «شرم الشيخ» فى رأس المثلث المقلوب لشبه جزيرة سيناء، خاضعا لرقابة قوات الطوارئ الدولية، التى أشرفت على حرية المرور الاسرائيلى فى مضيق «تيران» المفضى إلى خليج العقبة. وعندما أعلنت مصر هذا الإجراء أى طلب سحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ، سيطرت علامات الفرح على وعلى جيلى، باعتبار أن حقا من حقوق السيادة الوطنية قد عاد الينا، ورغم أن الفرحة كانت طاغية علينا، إلا فإن ثمة شعوراً بعدم الرضا والتوجس، نما فى داخلى، فلأول مرة أعرف بوجود قوات طوارئ دولية تعطل حقاً سيادياً مصرياً، أو تحد منه.

واذكر أننى قابلت الأستاذ زكى مراد فى تلك الأيام، وحاولت أن

استفسر منه عن هذا الأمر، فوجدته قلقا بشئ آخر، إذ قال لى: خوفى أن مجرد استرداد هذا الحق السليب، سوف يشعل حرباً مع إسرائيل، وأخذ يشرح لى أن مجرد المساومة، والتخلى عن بعض الحقوق لحين ليست هى الخطأ، فلقد فعلها جمال عبدالناصر فى اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤، ومن قبله باشر هذا التاكتيك زعماء كثيرون على رأسهم لينين زعيم الثورة الاشتراكية فى روسيا سنة ١٩١٧، عندما تخلى عن نصف مساحة روسيا، التى عليها اكثر من نصف طاقتها الإنتاجية،حتى ينهى الحرب، ويتمكن من تثبيت السلطة الثورية، وبعدها يمكن إصلاح ما تخلى عنه فى اتفاقية «بريست ليتوفيسك» الشهيرة. وشرح لى كيف أن جمال عبدالناصر أصلح فى ١٩٥٦ ما كان تخلى عنه فى يونيو سنة ١٩٥٤، وكيف أصلح لينين، بعد انتصاره على الحرس الأبيض، ماكان قد سلم به فى اتفاقية «بريست ليتوفيسك» وأردف زكى مراد: والأمر الجوهرى أن تصلح ما قد اختل حينما تملك القدرة على ذلك، وإلا انتكس الأمر أكثر، فقلت للرجل: إذا كان هذا الخلل ترتب كأثر من آثار عدوان سنة ١٩٥٦، فقد نجح عبدالناصر ذاته فى أن يصلحه بتصديه لعدوان سنة ١٩٥٦ أى هذا الاختلال الذى رتبته اتفاقية الجلاء كما تقول، وكنت لم أسمع لهذا قط قبل اليوم، وهذا ما يجعلنى أقطع أنه قد آن الأوان لإصلاح الخلل الذى تسبب بصدد عدوان سنة ١٩٥٦.

غير أن زكى مراد كان شارد الذهن، وقد تحولت بسمته التقليدية إلى تقطيبة على الجبين، وقال: أنا أتوجس من أمر ما. قلت له ماذا؟ قال: إن اسرائيل هى التى دفعتنا لاتخاذ هذه الخطوة بالتحرش بالعدوان على سوريا وبوسائل عديدة، معنى ذلك أن الخطوة التى اتخذها الرئيس جمال عبدالناصر خطوة مفروضة عليه، وليست بنت تخطيط مسبق.

لم أشارك زكى مراد توجسه، وقلت له: ياراجل أنت ناسى المثل الشعبى «دبور وزن على خراب عشه». ابتسم الرجل، وقال ربنا يستر.

فارقت زكى مراد. وأنا كاره نبرته المتشائمة تلك بل لعلها المرة الوحيدة التى أتركه وأنا فاقد الحنين لرؤيته ثانية ومن فورى ذهبت إلى صديقى السورى محمد أمين الجدعان، سيراً على الأقدام فى منزله فى حى منيل الروضة وحاولت أن أضع امامه توجس صديقى زكى مراد، إلا أن «أمين» رفض هذا التوجس، وتعالت أصوات عواطفنا حتى طالت عنان السماء، ورحنا نحسب مستقبل الأيام القادمة. ونؤكد لأنفسنا إما أن ترضى اسرائيل بالقرار المصرى، ونكون قد كسبنا ما قد خسرناه مسبقا، مع العلم أن كل منا كان يخفى غضبه من عدم علمنا بهذا الأمر مسبقا، وإما أن ندخل الحرب وفى هذه الحالة تكون ساعة هزيمتها قد حلت، ورحنا نتكلم عن أكبر قوة فى الشرق الأوسط، أى القوة المصرية، فإذا أضفت اليها القوى السورية والقوى العربية الأخرى لبدا النصر وكأنه قطوف دانية، ما إن تمتد اليها أيدى العرب حتى تحصد عنبا وتمرا، وفاكهة وأبا. كان صوت عواطفنا أعلى من أى صوت آخر يريد أن يحتل أى مساحة فى تفكيرنا أو سلوكنا، لذلك صارت جلساتنا يومية، ومتابعتنا للأخبار تكاملية فى إتجاه واحد فقط هو تأكيد قوتنا، والنصر الأكيد الذى يزحف صوبنا، ونشفق على أنفسنا من قوة ارتطامه بنا، التى قد تجعل منا كيانات هشة، سوف تطير على الزوبعة التى سيحدثها.

وتوالت عملية ترددى على مقر منظمة الشباب، وكانت قد انتقلت إلى قصر فى شارع حسن صبرى بالزمالك، ورغم أن وقت الامتحان كان قد أزف، فإن متابعاتى السياسية، لم تهدأ ولم تفتر، وأسلمت نفسى

لتيار الأمل الجارف الذى يتجه نحو مصب النصر العظيم، ورحت أسبح فى اتجاه هذا التيار، وأنظر من علٍ، نحو أى شخص أو قول يثير توجسا أو تصورا معارضا، على أنه قشة تسبح ضد تيار جارف. كانت كلما زادت الطرقات ودقات طبول الحرب فى وسائل الإعلام زاد توهجى واندفاعى على سطح هذه اللجة العظيمة.

ومن داخل لجنة الامتحان، وفى صباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، وكنت أرد على أسئلة الدكتور رفعت المحجوب فى مادة الاشتراكية تحريرا، جاءت أنباء اندلاع الحرب، سابقت الزمن وسلمت ورقة الاجابة قبل موعد الانتهاء، مخالفا بذلك عادة لم أتخل عنها قط، إلا فى هذه المرة، وخرجت، ومن فورى ذهبت إلى المدينة الجامعية ومع صديقة سرنا على الأقدام حتى الزمالك، وأنا أسابق نفسى، حتى أسلم نفسى، لأى مهمة تطلبها القيادة. وعندما وصلت إلى مقر قيادة منظمة الشباب الاشتراكى. لم أجد أى مهمة، ولم أندم على تكبدى مشقة السير، نظرا لإنقطاع المواصلات العامة، وجلست حتى حل المساء، وسهرت حتى الصباح وأنا إلى جوار المذياع، ولم أذق لحظة نوم واحدة، ولم يغمض لى جفن، وكل فترة يصحو أحد الزملاء. ويسأل هل «دخل جنودنا تل أبيب» حتى نلحق بصلاة الفجر هناك، وأنا أنسج من خيالى ومن إبتهالاتى لله عزوجل صورة تلك الصلاة المشهودة لفجر الليلة فى تل أبيب وأعزى نفسى، بأن وجودى بالجسد ليس مع الجند، ولكن سوف أصلى معهم من هنا على صوت المذياع. وحلت صلاة الفجر ولم تذع من تل أبيب، فرحت أحيل حلمى على فجر الليلة القادمة، وهناك شئ ما داخلى، يقول، إحنا هنستنى لغاية فجر الغد، ياعم ربنا يخليها صلاة ظهر. أو عصر اليوم. .الخ

لم أغادر مقر منظمة الشباب فى الزمالك يوم ٦ يونيو، وتابعت المذياع فى ساعات السحر حتى الهزيع الأخير لتلك الليلة، وأنا اترقب فجر اليوم ودخول جنودنا لتل أبيب، وجاء فجر اليوم الثالث أى فجر الخميس ٨ يونيو سنة ١٩٦٧، وأن أقول «الثالثة ثابتة» ولا أنول رجائى، فى هذا اليوم كان قد أعلن تراجع قواتنا إلى خط الدفاع الثانى، ورغم أن حالتى كانت كحالة شخص يلعب لعبة الصراع بالأيدى المرتكزة على الكوع، وأننى وصلت إلى مرحلة تراجع يدى فى اتجاه الأرض، فإننى كنت استجمع كل قواى فى قبضتتى وأحاول دفع من يبارزنى، ولو إلى وضع التوازن الأول.

وفعلا ذهبت فى يوم الخميس ٨ يونيو إلى ساحة كلية الهندسة بجامعة عين شمس لأحاضر فى المعسكر الشبابى لتعلم الدفاع المدنى، وجعلت من نفسى جنرالا راح يشرح أهمية التراجع لاستجماع القوة حتى يحدث التقدم، وأخذت أبين الحكمة العسكرية لتراجعنا إلى خط الدفاع الثانى. وأخذ الزملاء ينضحون تشككاً وتوجساً، ولكن طاقة الأمل فى النصر التى صدرتها لديهم كانت قادرة على إرجاع الأمر إلى وضع التوازن. انتهيت من هذا اللقاء، وتوجهت للقاء أخر مماثل عقد لطلاب جامعة القاهرة فى المدرسة السعيدية، وتزيدت، فلقد قبلت فكرة التراجع من الخط الثانى إلى الخط الثالث بل والخط الرابع، ورحت أتكلم وقد تحولت إلى مدفع رشاش ذخيرته مصنوعة من سبيكة من الأمل فى النصر، والإصرار على أن النصر لا بديل عنه، ورفض فكرة الهزيمة، وكان التجاوب بالحماس أعلى من الصياح.

عدت إدراجى إلى مقر المنظمة، وبدأت الأخبار تنضح سما زعافا عن انكسار واضح لقواتنا، غير أننى اعتبرت هذه مجرد شائعات، ورفضت

فى هذا اليوم أن أسمع إلا اذاعتنا، وتخليت عن عادتى، فى سماع كل الإذاعات، لم أذق طعم النوم فى تلك الليلة، ولم يكن الأمر مجرد إجهاد، بل كنت أخاف النوم، فمنذ مايقرب من أسبوعين مضيا رأيت حلما أخذ يتجسد أمامى الآن كان حلمى مخيفا إلى درجة أننى صرخت فى نومى، حتى إننى ذهبت فى ذات اليوم إلى شقيقتى الكبرى، وهى سيدة تشتهر بالتقوى والصلاح، وسردته عليها وأنا أدمع .فقالت: خير، يبدو أن الحرب قادمة، كان حلمى عبارة عن دائرة بها فرسان نهر «سيد قشده» وقد أمسك، اثنان منهما بطرفى حبل كلا فى فمه، وكل من يمر عليهما يشنقاه بهذا الحبل، ورأيت الدائرة تحولت من خلفهما وكأنها بركة من اللحوم المسلوخة. ظل هذا الحلم شاخصا أمامى، وأنا أطارده، ولكنه منذ مساء الثامن من يونيو تحول أمامى إلى واقع مجسد، لذلك خفت من النوم. فى تلك الليلة، وظللت أبحث عن ونيس.

بدأ صباح الجمعة التاسع من يونيو، وقد انقبض قلبى، وضاقت علىَّ نفسى وأعلن أن الرئيس جمال عبدالناصر سوف يوجه خطابا متلفزا فى الساعة السادسة مساءً. وبدأت الإذاعة المصرية، تذيع أغانى وطنية تفيض شجنا وحزنا «وطنى وصباى وأحلامى.... وطنى وهواى وأيامى، ورضا أمى وحنان أبى. وبكى ولدى عند اللعب، هتف التاريخ به فصحا، ومضى وثبا ومشى مرحا»..... «مصر التى فى خاطرى وفى فمى، أحبها من كل روحى ودمى ياليت كل مؤمن يحبها، يحبها مثلى أنا. بنى الحمى والوطنى، من منكم يحبها مثلى أنا، نحبها من روحنا ونفتديها بالعزيز الاكرم»... الخ ذهبت عند الظهر لأصلى الجمعة بمسجد السيدة زينب، واتفقت مع ابن شقيقتى وهو يكبرنى بخمس سنوات. وكان عضوا بالمنظمة، أن نشاهد خطاب الرئيس عند

جار له يمتلك جهازا للتلفزيون، بدا اليوم جنائزيا بكل ما تصوره هذه الكلمة من معان وأبعاد، غير أن حركة دءوبة اشتعلت فى أركان نفسى تبحث عن أى خيط للأمل أتعلق به، لذلك رحت أردد كلماتى فى معسكرات الشباب أمس.

عندما أطل جمال عبدالناصر علينا من الشاشة الصغيرة، اعتصرنى منظره، فالرجل يبدو ضعيفا واهنا وظهرت ظلال على جهاز التليفزيون تظهره فى صورة من هو غير حليق الذقن وكأن مرض السكر قد أطبق عليه، وغطس ملامحة بكدمات غطت توهجه الدائم، لقد غامت عينا الرجل وفقدت بريقها الذى كان يطل عليك، وينفذ إلى أقصى ركن فيك، كان الانكسار واضحا على ملامح جمال، لذلك تاه فكرى فى أبعاده، حتى أصابنى الصمم لمتابعة الخطاب غير أننى أفقت على إعلانه برغبته فى التنحى عن القيادة، وتحمله للنتائج الكاملة التى تكشفها هذه النكسة، أو الهزيمة الثقيلة.

قفزت من على السلالم. ودخلت شقة شقيقتى، وأنا أهزى وأتصايح، وعندماعدت ناحية الباب للخروج، دق جرس الباب، ووجدت شابا حزينا جاء ينعى لنا والده، ويطلب من زوج أختى الإغاثة، لم أستمر فى سماع القصة وقفزت إلى الخارج.

[٩]
وعشت اليوم السياسى المثالى لحياتى حتى الآن:

يقع منزل شقيقتى فى نهاية شارع مجلس الأمة من ناحية شارع بورسعيد. عندما قفزت إلى الشارع اتجهت جرياً إلى ناحية مجلس الأمة

ووجدت الشعب المصرى وقد دخل فى مارثون «مسابقة للجرى الجماعى» معى، وما إن وصلنا إلى ميدان «لاظوغلى» حتى كانت نقطة لالتقاء خمسة فروع لهذا المارثون، توقف الناس قليلاً وانبعث صوت إلى مجلس الأمة فى هذا الاتجاه عندما وصلنا إلى مجلس الأمة، كان هناك مارثون كبير يعبر شارع قصر العينى فى اتجاه ميدان التحرير عندما صاح رجل إلى ميدان التحرير، ولابد من الذهاب إلى بيت الريس فى منشية البكرى. كان قد مر على انتهاء الخطاب حوالى عشر دقائق، وكان معدل الانسياب عالياً فى الشارع نظرا لأن الجميع كان ضمن هذا المارثون، ومن ثم وجدت الحافلات طريقا لها فى شارع قصر العينى حتى هذه اللحظة أو قف بعض الناس الحافلة واندفع إليها تيار من البشر فاق كل حمولة متصورة، ركب الناس من الأبواب ومن النوافذ واعتلى البعض سطح الحافلة حتى أن الحافلة صارت غير قادرة حتى على الزحف أو السير الهوينى، فى هذه اللحظة وجدت شاباً يرتدى جلباباً صعيدياً راح يستخدم صاج الحافلة وكأنه طبلة ينظم بها هتافاته، وجدتنى أقول له لابد أن نحافظ على مالنا انهال عليه الناس ضرباً كاد الرجل أن يموت.. لم تقو الحافلة على السير اضطرب الوضع.. تزايد تيار البشر حتى سد الشارع.

لم تجد الحافلة أو أى عربة طريقاً لها، توقفت الحافلة عند مبنى وزارة الشئون الاجتماعية أى قبل أن تدخل الميدان الذى لا يبعد إلا مائة متر أو مائتين عن مجلس الأمة، هاجت مشاعرى لأننى كنت سببا فى ضرب الرجل الذى كاد أن يموت، جلست على مدخل وزارة الشئون الاجتماعية ورحت أجهش بالبكاء بعد أن تماسكت اتجهت إلى الميدان وقد تباطأ معدل المشى نتيجة الزحام.

وجدت ميدان التحرير وكأن البشر تحولوا فيه إلى سرب من الجراد غطى مرج شاسع استغرق عبورى الميدان، اكثر من ساعة من الزمن، فى حوالى السابعة والنصف مساءً أصبحت أمام مبنى المتحف المصرى فى اتجاه المنفذ الموصل لمبنى الاتحاد الاشتراكى، عدلت عن فكرة التوجه لمنشية البكرى لأن معدل السير فى هذا البحر الهائج من البشر يحتاج عدة ساعات، وقررت التوجه للزمالك إلى مقر منظمة الشباب الاشتراكى، تصورت أن شارع كورنيش النيل سيكون هادئا غير أنى وجدت المارثون يعدو به فى الاتجاهين، دخلت فى المارثون المتجه نحو الزمالك أمام مبنى دار المعارف أخذنا نسمع أصوات انفجارات وطلقات مدفعية والتليفزيون فى البداية بدت متقطعة ولكن متتالية، بعد دقائق أصبحت عملية مستمرة ومتواصلة كان الظلام قد حط على القاهرة، احتمى المئات بمبنى الإذاعة والتليفزيون ذكرنا البعض أننا نستجير من الرمضاء بالنار أو من النار بالرمضاء «أى الرمال الساخنة فى عز الظهيرة فى الصحراء القاحلة» فمبنى الاذاعة والتليفزيون هدف فى حد ذاته أحسست بالحرب ساعتها وكم هى مدمرة ومخيفة، غير أن روح التحدى جعلتنى أطيل من وقفتى إلى جوار مبنى الاذاعة والتليفزيون، بعد أن قَلَّت أصوات الانفجارات واصلت السير إلى كوبرى أبو العلا عندما اقتربت منه جاءنى شعور بأن هذا الجسر التاريخى سوف يسقط حالا من ثقل المارة، وقد صاروا جسدا واحدا يشكل كتلة بشرية هائلة وصوتا واحدا مدويا: بالروح بالدم حنكمل المشوار احنا الشعب، احنا الشعب واخترناك من قلب الشعب عبدالناصر والله زمان ليه بتخاف من الأمريكان -ارفض ارفض يا زكريا، عبدالناصر ١٠٠٪.

فى التاسعة والربع مساءً وصلت مبنى المنظمة وجدتها خالية من

الحياة إلا من بعض الشباب من الإداريين، سألت هل هناك أوامر؟، رد واحد منهم أوامر ايه ياأخ الشعب الآن هو صاحب الآمر رنت هذه الكلمات فى أذنى وكأنها بلورت كل الأمور لى، فى برهة قابلت الأخ «جمعة الغرباوى» وهو عضو لجنة مركزية وقال لى أنا كنت حالا مع الدكتور عادل عبد الفتاح ونصحنى بالتوجه إلى ميدان التحرير لمراقبة أمن الميدان، ضحكت بصوت عال وقلت جرى لك ايه يارجل السلطة الآن فى إيد الشعب نظر إلى جمعه وقال هتروح معى؟! أجبته طبعا لابد أن نذهب الآن.

وصلنا حوالى الساعة العاشرة أمام مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وسمعنا مظاهرة تهتف بأصوات نسائية، اتجهنا إلى كوبرى قصر النيل وجدت مظاهرة حاشدة النساء والفتيات وقد التف حولها الشباب فى نوبات حراسة يقظة البنات تهتفن وقد اعتلت بعضهن على أكتاف الأخريات: عبدالناصر لاتهتم مصر بلدنا هى الهم- بالإصرار بالإصرار لازم نكتب الانتصار- بالروح بالدم هنكمل المشوار- دم اخواتنا مالوش ديه لازم نجيب النصر هديه يا أمريكا مصر أهيه، مش هنسلم ولا هنَّام عبدالناصر قوم قدام بينا يا ريس واحنا معاك احنا الشعب اللى اخترناك أحسست للحظات أننى أعيش أحداث ثورة سنة ١٩١٩، المظاهرات النسائية تسير بحمية الأمن السياسى والمرورى والاجتماعى والشخص فى أكثر حالات انضباطة وفاعليته، لم تقع عينى على مجرد فرد واحد يسعى لأمر خاص، الجميع ضمن الكتلة البشرية العاقلة، الكل يمارس السياسة بل أصبحت السياسة حرفة شعب بأكمله وعلم شعب بكله وكليله.

عبرت المظاهرة النسائية القادمة من الجيزة كوبرى قصر النيل،

ودخلت ميدان التحرير، بعدها مرت مظاهرة أخرى في نفس الاتجاه سرت معها أنا وزميلي جمعة الغرباوى بعد أن مررنا على مبنى جامعة الدول العربية، قررنا أن نقف أو نستريح فى الحديقة التى تقع على اليسار ذات المدرج والنافورة المبهرة التى تخلط الماء بالأنوار الملونة فى مناظر تشكل مادة الحديث الرئيسية لبنى جلدتى من القادمين من الريف والتى كانت مطفأة بالطبع، تحولت الحديقة الواسعة إلى «هايدبارك» مصرى الكل يهتف والكل يخطب والموضوع واحد يتمثل في رفض الهزيمة والإصرار على مواصلة الطريق حتى احراز الانتصار، وأن مفتاح كل هذا قيادة عبدالناصر، ولابد لجمال عبدالناصر أن يعدل عن قراره بالتنحى.

توزع الناس على مهام متعددة بعضهم يسير فى المظاهرات وبعضهم تحلّق للنقاش، الشوارع لا تحتمل أى وجود غير وجود البشر.. لامكان حتى لمرور دراجة لا وجود لجندى من الجيش أو الشرطة، الشعب ككيان مادى مدنى يمارس السياسة، هذه الكتل البشرية يحركها عقل جماعى يقظ يمتلك إرادة التحدى ويمارس أفعال التصدى لا تحركه نفسية «سيكلوجية» القطيع بل يتحرك بوعى لا يملكه كل أساتذة السياسة وكل علماء السياسة وكل قادة السياسة، حدد المهمة بدون لبس أو غموض.. رفض الهزيمة وعدم التفريط فى حقه فى المقاومة، رفض أى اسقاطات أو مبررات تلقى بالسبب على آخرين، وقام بتحديد من هو العدو ومن هو الصديق أخذ زمام المبادرة فى الدفاع عن مصالحه، استحضار جمال عبدالناصر وتجديد العقد الاجتماعى معه أن يقود الوطن لإعادة البناء ورفض الهزيمة، الشعب سيكون الحارس والشعب سيكون الفاعل لذلك لم يكن مصادفة أن ترفع هذه المظاهرات هذا

الشعار لأول مرة فى مصر : بالروح بالدم هنكمل المشوار.

حوالى الساعة الواحدة ليلاً قررت مع جمعه أن نعبر الميدان لقضاء حاجتنا فى مقهى «أسترا» ذهلت لكم السيدات الموجودات فى أبهى زينتهن وقد اشتدت المناقشات السياسية بينهن: الريس لازم يرجع- الحرب مش معركة واحدة- الحرب معارك- مرة تصيب ومرة تخيب- هو زكريا محيى الدين ميال لأمريكا- أمريكا ايه أمريكا هى سبب كل البلاوى- أمريكا شايله اسرائيل على كتفها أم وابنها.

الريس بيقول السفير الروسى جه وصحاه من النوم وقال له أوعى تضرب الأول- جه ضربه فى قلبه- لا شرقية ولا غربية- ليه واحنا لازم نبقى لوحدنا- العدو عدو الصديق صديق- طعنة الصديق أكثر ايلاما- الخطأ ليس طعنات - الشعب هيصلح كل حاجة - شايفين الناس عالم لا يأكلها حطب ولا نارعبد الناصر يا كبدى الهم كان مطبق خدوده- شفتى مظاهرات البنات- احنا لينا دور دايما فى الحركة الوطنية ما إحنا برده من الشعب....

عندما استغرقت فى المتابعة همس جمعه الغرباوى فى أذنى وقال دول غانيات يعنى ايه؟ بنات هوى. رددت يعنى الشعب كل هنا الليلة دى بحلوه ومره بكبيره وصغيره بصالحه وبطالحه، رد جمعة طبعا يا ابنى دا حدث العمر شفت البنت اللى كانت مرفوعة على الاعناق لما انكشف سترها الشباب اتصرف بوعى إزاى؟ أهم دول الشباب اللى بينتقدوه لأنه لايعرف غير معاكسة البنات.

عندما اقتربت الساعة من الثالثة صباحاً اقتربت من حلقة نشطة فى منطقة المجمع، النقاش كان محتدما حول الريس خلاص تراجع عن قراره يا ابنى قرار الشعب هو القرا لاراد لحكم الشعب، يا ترى الريس هيجى

الزاى الصبح إلى مجلس الأمة لازم يركب هليوكبتر، اعتقد لازم نروح بقى ياجماعة الفجر قرب يدن ليه احنا أقل من كل الناس دى، والله لن نرجع قبل أن يعلن الريس أنه رجع فى قراره، وهنام فين؟ على الأرض.. يا جدع تفرش صحيفة وتنام.

قرب الخامسة نظرت إلى الميدان الفسيح، وقد تحول لحجرة نوم شاسعة عندها تعاملت لأول مرة بجدية مع نص صلاح جاهين فى مسرحية الانسان الطيب فلنحضر لهم بطانية طولها بالتمام ألف ذراع وعرضها تسعمايه لنغطى الميدان شبرا شبرا- ابتسمت ورددت بينى وبين نفسى أن من يمتلك حرارة الإقدام والإصرار لا تملك نسمات السحر عليه إلا اثارة الانتعاش فى كيانه، وتذكرت شعر عمر الخيام بصوت أم كلثوم، أفق خفيف الظل هذا السحر.. نادى دع النوم وناجى الوتر.. فما أطال النوم عمرا.. ولا قصر فى الأعمار طول السهر!!

وأنا غارق فى ترديد لحن رياض السنباطى هذا هزت الميدان الساكن أصوات مظاهرة تهتف بلكنة صعيدية، نظرت صوبها وجدت تلا من عربات النقل الثقيل تفرغ حمولتها من مئات الأشخاص الذين اعتلوا أسطحها، تجمع هذا الحشد فى المنفذ بين المجمع ومسجد عمر مكرم وأخذوا يهتفون ويلوحون بعصيهم فى الهواء، بعد دقائق هدأت هذه الزوبعة وكأن أفرادها احترموا صمت النائمين.

تسللت فى اتجاه النيل وأمام المبنى الكلاسيكى لفندق سميراميس كان الخيط الأبيض قد خرج من الخيط الأسود، واسترسلت فى استرجاع دقائق هذه الليلة، وكيف كان حجمى خلية فى جسم عملاق، تنبهت لشقشقة العصافير ونظرت إلى السماء وجدت الصبح وقد أزاح أستار الليل وأطل بوجهه المشرق.. نظرت إلى صفحة النيل، تذكرت شعر

عمر الخيام من جديد وترجمة محمد السباعى له، واسترجعت لوحته التى رسمها بكلامه: «غرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس، سل سيف الفجر من غمد الغلس. وانبرى فى الشرق رام أرسلا أسهم الأنوار فى هام القلاع».

نظرت فوجدت هذه اللوحة الكلامية منفذة بطريقة حية أمامى استغرقت فى حالة صفاء روحى انتابتنى فشعريرة هزت جسدى أفقت على صوت مظاهرة حاشدة آتية من الدقى تعبر كوبرى قصر النيل إلى ميدان التحرير انضممت إليها لدى دخولها الميدان.. أشتعل الميدان بالهتاف تحول الجسد الجماهيرى العملاق الى كائن جبار.. بدأ ينقل رجله اليمين ليدخل شارع قصر العينى.، متجها إلى مجلس الأمة غير أن مقاساته الفارهة ثبتت خطوة وصرنا وكأننا إزاء صورة متحركة أوقفها المصور التليفزيونى على حركة معينة فأوقف حركتها وثبتها على جزء من الحركة ظلت هذه الوقفه مستمرة وإن كنت بين الفينة والأخرى تجد الجسد قد اهتز بحكم موجات ضاغطة غير أن العملاق لم يغير من وقفته هذه.. استمر العملاق على وقفته هذه أكثرمن خمس ساعات تيقنت كل خلية من خلايا الجسد الجماهيرى العملاق أنه لا مجال للحركة اطلاقا لموكب الرئيس بالسيارات، أخذ الجميع يحملق فى السماء لرؤية المروحية، وبدا أن كل فرد من الحشود وكأنه ينتظر الوقت ليخاطب جمال عبدالناصر بذاته وأن يسر له بشئ خاص فى الحادية عشرة صباحا حسم الأمر أن الرئيس حتى لن يتمكن من الحضور إلى مجلس الأمة بمروحية كان العملاق يتضخم ووقفته صارت عنيدة الأخبار تعلن عدول الرئيس عن قراره ونزوله على إرادة الشعب الرئيس يشكر الشعب على موقفه.

العملاق الجماهيرى بدأ يتململ لكنه مازال صلبا فى وقفته فى الواحدة ظهراً أو بعدها، اتضح أن مجلس الأمة اجتمع وأنهى اجتماعه، بدأت الجماهير تنصرف هادئة وادعة كأنها تيقنت من إنجاز مهمتها، فى مدى ساعتين أقفلت القاهرة وبدت شوارعها هادئة وخالية من المارة كأن الناس فى مساء يوم عيد الأضحى المبارك، تسللت إلى منزل شقيقتى أسلمت نفسى لنوم عميق لم أفق منه إلا فى صباح الأحد ١١ يونيو سنة ١٩٦٧، ذهبت إلى مقر المنظمة فى الزمالك وجدت الأمر وكأن عقده قد انفرط لا تلمس غير التخبط والخواء، بعد أيام مرت على ذات الشاكلة جلست فى إحدى الأمسيات جلسة الصداقة الأخيرة مع مصطفى الفقى.. راجعنا الأحداث رصدنا التخبط والضياع، وانفراط العقد.. سمعت قرار الفقى بالانسحاب لحياته الخاصة.. وضرورة انكبابه على العمل والدراسة بخاصة أنه دخل وزارة الخارجية وضع الزميل قدمه على الطريق حتى يكون سفيراً حقيقياً برر قراره باللاجدوى من حركته، ناقشته رفضت قراره بالنسبة لنفسى، أكدت له أن مساء الجمعة ٩ يونيو وصباح السبت ١٠ يونيو قد حدد لى فهمى للسياسة، ولن أعدل عن هذا الأمر حتى يتحقق أو أهلك دونه، أمتدت جلستنا وانتهت وكل منا قد حسم اختياره.

فى أيام استجمعت الأجهزة السياسية بما فى ذلك منظمة الشباب الاشتراكى تماسكها واستأنفت الجامعات الامتحانات وسارت الحياة سيرتها الأولى.

كانت النكسة قد ثبتت لدى منهج الشك فى كل شئ وأى شئ، وكانت أحداث يومى ٩، ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ قد اكملت دائرة المفاهيم السياسية فى حياتى وبين هذين الأمرين اضطربت حياتى

وتعكر صفوى.

تواصلت جلساتي مع أمين جدعان بعد أن أنهى دورة تدريبيه عسكرية، ورحنا نقتات المر والعذاب مع كل إطلالة على المستقبل، وعندما نفكر في كيفية ازالة آثار العدوان، لكم بكينا ومارسنا طقوسا أشبه بطقوس المسلمين الشيعة المرتبطة بعيد عاشوراء، وذهبت إلى زكى مراد بعد انقطاع ووجدت الرجل يؤكد دوره ومسئوليته عما حدث، تساءلت كيف؟ فقال إن حجم الفجيعة والهزيمة يرجح في جزء منه إلى اقدامنا على حل حزب الطبقة العاملة وذهلت وقلت له وهل تتصور أى أثر لك في الحياة العامة؟ أجاب الرجل: نحن موضوعيا جزء من الحلف الحاكم ولو تمسكنا بمنبرنا المستقل لاستطاع نقدنا أن يسلط الأضواء على المساحات المظلمة في الحياة السياسية لحلفنا السياسى تركت زكى مراد وذهبت لخليل قاسم وجدته أقل اكتئابا كلمنى عن الأمل وشرح لى أنه لاحياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة قولة مصطفى كامل الشهيرة، وفي ندوته تعددت اللقاءات بيني وبين الشاعر سمير عبدالباقي الذى أفاض في شرح خبراته النضالية وسط الفلاحين، كنت أحس كمن يرتقي درجة على سلم السياسة فهما وممارسة.

[١٠]
وأستوعبت الدرس:

بعد أن استقرت الأوضاع عقدت اللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكى آخر اجتماع حضرته فيها، وقد كان في سبتمبر سنة ١٩٦٧، ورأس الاجتماع السيد / على صبرى وكان الدكتور حسين

كامل بهاء الدين مازال رئيسا للمنظمة، وتحدث على صبرى حديثا ضافيا بنبرة هادئة وعاقلة شرح الرجل كيف أن الاقتصاد المصرى كان على حافة انطلاقة قوية، وكان يمكن أن يعبر حد الأمان بمراحل لو تتابعت خطة التنمية الخماسية الثانية حيث إن مضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات كانت فى حكم النفاذ غير أنه فرضت علينا معوقات كثيرة عطلت المرحلة الثانية فى الخطة، وقبل أن يفلت الأمر من أيدينا قررت القيادة حشد كل الجهود لدفع الاقتصاد على منحنى النمو لتجاوز النقطة الحرجة، ومن ثم كانت خطة الإنجاز الثلاثية باعتبارها الحل الوسط بين الخطة الخماسية واللاخطة، وخطة الانجاز الثلاثية كما تعلمون تغطى المدة من ٦٦ / ١٩٦٧ إلى ٦٩ / ١٩٧٠، وهذه الخطة تستهدف أمرا محددا هو وصول النمو التراكمى للاقتصاد لعبور نقطة تسمى النقطة الحرجة. عندها لا ينكسر منحنى النمو ثانية، وهى نقطة كالتى مر بها الاقتصاد اليابانى فى أوخر الأربعينيات وللأسف جاء هذا العدوان ليعطل دخولنا هذه المرحلة وليوقف عملية النمو التراكمى. فنحن الآن مضطرون لحشد كل مواردنا لتنمية قدراتنا لإزالة آثار العدوان. وتقريبا اقتصر هذا الاجتماع على هذا البيان الذى اتفق مع ما أعلن سابقا، فعقب عودة الرئيس جمال عبدالناصر للحكم شكل وزارة جديدة برئاسته. وقد اجتمعت لجنة الخطة والاقتصاد فى هذه الوزارة برئاسة زكريا محيى الدين واتخذت قرارها التالى :-

«استعرضت اللجنة طبيعة المرحلة الدقيقة التى تمر بها البلاد والمترتبة على العدوان الاستعمارى الصهيونى والضغوط الاقتصادية التى نتعرض لها بالاضافة إلى توقف الملاحة فى قناة السويس. وقد أعادت اللجنة تقييم الموقف الاقتصادى على ضوء المرحلة الدقيقة

الظارئة التى نمر بها، ومن توقعات مواردنا واستخداماتنا واحتياجاتنا المستقبلة، وقررت إعادة دراسة الميزانية العامة والميزانية النقدية وخطة الاستثمارت، وما يتطلبه ذلك من تعديلات وإجراءات نستطيع أن نواجه بها معركة طويلة وضارية فرضت علينا لتعطيل مسيرتنا» وبالرغم من أن هذا التحليل لاقى استحسانا عندى فإنه أثار ارتياباً لدى بأننا دخلنا إلى فخ منصوب ونحن لا ندرى، عندها تذكرت توجس زكى مراد الذى كنت قد رفضته بل الذى بسببه امتنعت عن مقابلته لمدة زادت على شهرين كان زكى مراد قد نشر مقالا فى الطليعة فى عدد اغسطس سنة ١٩٦٧ باسم «ماذا قالت ثورة ٩، ١٠ يونيو» نقل فيه درسا واضحا أن جمال عبدالناصر كقائد للثورة قد واجه أخطاء نظامه بعد حادثة الانفصال السورى عن الجمهورية العربية المتحدة فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ بأن القى بيانا فى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٦١، قال فيه جمال «نحن على نقطة من نقط التاريخ فاصلة وأشعر الآن أنه لابد لى أن أواجه معكم بشجاعة وشرف أخطاءنا التى يسرت للرجعية أنقضاضها وحصولها على رأس الجسر الذى حصلت عليه:

أولا وقعنا ضحية وهم خطير قادتنا إليه ثقة متزايدة فى النفس، كنا دائما نرفض المصالحة مع الاستعمار، ولكننا وقعنا فى خطأ المصالحة مع الرجعية...

ثانيا: وقعنا فى خطأ كبير لايقل أثره عن الوهم الخطير وهو عدم كفاية التنظيم الشعبى... فتحنا الطريق إلى الاتحاد القومى أمام قوى الرجعية وحولته إلى مجرد واجهه تنظيمية لا تحركها قوى الجماهير ومطالبها الحقيقية.

ثالثا: لم نبذل الجهد الكافى فى توعية الجماهير الواسعة بحقوقها وتعريفها بقدراتها وطاقاتها الكامنة على حماية هذه الحقوق...

رابعا: لم نستطع أن نطور جهاز الحكم إلى مستوى العمل الثورى... أصبحت مصالح الجماهير مسخرة لخدمة الجهاز الحكومى بكل ما فيه من خلل.

خامسا: الانتهازية والطبقية الاجتماعية وأحكامها... ولست أخفى عليكم أن أكثر ما كان يحز فى نفسى أيام معاركنا العظيمة، وفى ذرى انتصاراتنا الضخمة ما أحس به من صراع على السلطات والاختصاصات ومن أنانية وأثرة... ومن ابتعاد عن الأهداف الكبرى للجماهير اقترابا من أسباب فردية وشخصية ولابد لنا الآن من عملية تقييم كاملة تعيد صياغة مثل المجتمع الأخلاقية على نحو جديد اكثر ارتفاعا وأشد عمقا.» أورد زكى مراد هذا البيان واعتبره حساباً للذات من قبل الرئيس ونقداً للنظام.أتى أُكُله، وقد أخذ يعدد نتائج هذا المنهج، ودعا زكى مراد لوقفة مشابهة حيث قال: «وهكذا نستطيع أن نقرر أن الثورة قد تغلبت من قبل على نكسة خطيرة، وحين واجهت نفسها بشجاعة وشرف بالنقد الصريح أمكنها أن تسير فى طريقها الصاعد وتصمد لآلاف التيارات والضغوط العاتية العالمية والعربية والمحلية، ومع ذلك وبعد مسيرة خمس سنوات ليس عيبا أن نقرر أن بعض الأخطاء التى لم تعالج وبعض المشاكل التى تركت بدون حل قد فرضت آثارها على حركتنا الثورية فى هذه المعركة الأخيرة ووضعتنا من جديد أمام أحد حلين إما قبول الهزيمة وتصفية الثورة... وإما الاستمرار بكامل الجدية فى التخلص من الأخطاء وتدعيم الطريق الاشتراكى بكل متطلباته الضرورية على أرضية هذا المقال وعلى أرضية ما قاله الرئيس جمال عبدالناصر فى خطابه فى عيد الثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، العيد الخامس عشر حيث قال: «الشعب يطالب ببداية

جادة وحازمة تتفق مع جدية الظروف التى نواجهها وحزمها، وأنا مع الشعب فى هذا» على هذه الأرضية تعددت لقاءاتى مع زكى مراد وتعددت لقاءاتى مع أصدقاء أخرين وقد وجدت فى هذه اللقاءات بديلا عن جمود وبيروقراطية منظمة الشباب الاشتراكى.

وفى إطار هذه اللقاءات تم بروز صراع بيننا كشباب على أمر معين فقد رأى بعض الأصدقاء وعلى رأسهم الصديق معتز الحفناوى طالب هندسة عين شمس عضو لجنة محافظة القاهرة فى المنظمة ورئيس اتحاد طلاب جامعة عين شمس أن الموقف الصحيح أن نذهب للتطوع العسكرى فى قوات الدفاع الشعبى، ولف وراء هذا النهج مجموعة كبيرة غير أنى رفضت ذلك وقلت: إن الكفاح لا يكون عسكرياً فقط ولكن الكفاح السياسى أهم بخاصة أنه لم يبق أمامى غير شهور وأتخرج وأؤدى واجب الخدمة الوطنية فى القوات المسلحة، وأضفت حجة أخرى أهم وهى أن درس ٩، ١٠ يونيو لم تستوعبه القوى السياسية المنظمة فى الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب، وأن الفعل الجماهيرى المتقد حماسة وحمية أخذ يفتر على أيدى قوى البيروقراطية السياسية والقوى الزيلية من كتبة التقارير والممارسات السياسية الأمنية، وأنه قد آن الأوان لخوض معركة الديمقراطية على أساس من استقلالية الحركة التنظيمية الفعلية للشباب وتنوعها وإعمال قضية الفرز السياسى لتحديد القوى الثورية وتمييزها عن القوى الانتهازية، واتمام عملية الفرز هذه على أسس موضوعية تعلى قضايا الولاء للوطن ولمهام الثورة فوق الولاء للأفراد والأشخاص من القيادات ومحتلى مواقع السلطة. وقد طرحت آلية لذلك بأن أقوم بشخصى بتجميع عدة توقيعات من اللجنة المركزية للشباب ويتم دعوتها للانعقاد بدون

حضور أى قيادات عليا، وأن يقوم هذا الاجتماع المنشود بمناقشة قضايا محددة حول طبيعة المرحلة الثورية بما تطرحه من تحديد العدو وجبهة الأعداء أو الحلف المعادى وتحديد الصديق وجبهة الأصدقاء أو الحلف الثورى، ومناقشة برنامج هذه المرحلة، وهل الحكم يستوعب كل القوى الثورية أو يستفيد بجزء منها فقط؟ وهل قضية اقتصاد الحرب وإدارة عملة التنمية فى ظل هذه الظروف؟ وتوزيع الأعباء الاقتصادية بعدالة على الطبقات؟

وعموما كنت أخص ما أريد فى شعار محدد ضرورة إعادة التأسيس للمنظمة على أسس استقلالية نضالية ووضع حد لمرحلة الصنع من الخارج، مرحلة التبعية الشخصية لقيادات بذاتها، واستخدام المنظمة فى إطار صراع القيادات والأشخاص وفعلا بدأت اتصل بقيادات المنظمة لتبنى ما أدعو إليه، وقد قابلت أول من قابلت الدكتور عادل عبدالفتاح، وكان الدكتور حسين كامل بهاء الدين قد أقيل وجاء خلفا له الأستاذ أحمد كامل، وعندما سمع عادل عبدالفتاح منى ما أدعو عليه بهت وطلب منى أن أخفض صوتى لأن الحيطان لها آذان، وعندما لم يفلح تحذيره لى فى أن ألوذ بالصمت قال لى طيب روح دلوقتى ونتكلم بعدين.

خرجت من مكتبه وأخذت أدخل المكاتب الأخرى وأذكر أن اكثر من تحمس لدعوتى تلك كان الصديق عمر البرعى وكان يعمل إداريا أو متفرغا غير مستواه القيادى فى لجنة المحافظة، وبدأت دعوتى تكتسب مساندين، ولكن كانت سمتهم الأساسية أنهم أعضاء غير مركزيين فى منظمة الشباب الاشتراكى.

وأذكر كيف كان اليوم الأول من نوفمبر سنة ١٩٦٧، يوما مهما فى

إطار دعوتى تلك فعندما اشتريت الطليعة وجدت أنها الحقت كراستيها فى العدد الماضى عن الوضع العالمى وعن الوضع العربى بنشر كراسة تحت اسم «نظرات فى الوضع الداخلى الراهن» استهلت هذه الكراسة تحليلها بالآتى: «بينما كانت قوى الثورة وقيادتها تؤكد على ضرورة نقل السلطة إلى تحالف قوى الشعب العاملة جميعها بلا استثناء، فلقد ظلت قيادات الدولة والجيش والقطاع العام تنتسب فى غالبيتها إلى المثقفين والطبقات الوسطى والصغيرة»، بحيث كاد الاتحد الاشتراكى نفسه وهو مجرد تجمع أو تحالف على المستوى الوطنى أن يتحول إلى حزب لتلك الطبقات وفى الوقت ذاته لم تصل الجهود التى بذلت لتكوين حزب اشتراكى طليعى يوحد فى صفوفه كل القوى الاشتراكية إلى نتيجة حاسمة. بعد إن السلطة قد ظلت بأيدى بعض الطبقات الثورية لا بأيدى كل الطبقات الثورية، وتلك الطبقات كان أبناؤها يمسكون بزمام السلطة التى لم تكن مقتنعة بالتحول الاشتراكى ولا متحمسة للدفاع عنه ولا معنية بإنجازه» ثم استطردت مباشرة «وعندما انفجرت هذه التناقضات الطبقية فى صورة أزمة النكسة حاولت الامبريالية والصهيونية اتخاذ هذه الأزمة ذريعة لتصفية الثورة ذاتها غير أن مبادرة الرئيس عبدالناصر والهبة التلقائية للجماهير العادية الحريصة على ثورتها فى حركة يومى ٩، ١٠ يونية قد وجهت ضربة شديدة لمرامى قوى الثورة المضادة فى الخارج والداخل، وأعلنتا عن حتمية استمرار الثورة بقيادة عبدالناصر، وكانت تلك نقطة بدء جديدة فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو.

لقد بقيت الثورة التى أرادوا تصفيتها لكن صارت القضية الحالة هى قضية السلطة أو بعبارة أخرى إعادة البناء السياسى والعسكرى

فالمرحلة الانتقالية الراهنة هى مرحلة سلمية لكنها تشهد أعنف صراع طبقى جرى على أرض بلادنا، ولسنا نعنى فقط صراع قوى الثورة ضد قوى الثورة المضادة فهذا صراع عدائى يهدف إلى التصفية، ولكنا نعنى أيضا الصراع داخل صفوف قوى الثورة ذاتها فهو صراع غير عدائى لا يهدف للتصفية.

إن نقطة البدء فى الصراع الطبقى داخل صفوف قوى الثورة هى ضرورة التسليم بأن هذه القوى قوى اجتماعية متعددة، وليست قوة واحدة يمكن أن تنفرد بالثورة، والنقطة التالية هى ضرورة التسليم بأن التحالف الذى يجمع قوى الثورة ينطوى بالضرورة على تناقضات يجب أن تتم معالجتها على أرضية الاشتراكية، أى على أساس تذويب الفوارق بين الطبقات، والنقطة الثالثة هى ضرورة التسليم بأن حل هذه التناقضات يجب أن يتم بطريقة سلمية أى على أساس الديمقراطية.

إن المرحلة الانتقالية تفترض تنازلات متبادلة من كافة الطبقات الثورية من أجل السير فى طريق الاشتراكية فى اتجاه خلق وتطوير علاقات إنتاج اشتراكية وبالتالى:-

أ- فلا يمكن أن ترفض طبقة تقديم التضحيات الضرورية والانفراد بالامتيازات الاجتماعية.

ب- ولا يمكن أن تكون تضحيات طبقة فرصة نادرة لإثراء طبقة أخرى والتسلق على السلم الطبقى.

جـ- ولا يمكن أن تحتفظ الطبقة بمكانها فى التحالف الثورى سياسياً إذا تخلت عن دورها الثورى اجتماعيا.

ولهذا يمكن أن تفقد الطبقة مكانها فى تحالف قوى الشعب إذا فقدت وظيفتها الثورية ولقد أدى استمرار الثورة وتحولها إلى ثورة

اجتماعية إلى انعزال طبقات وفئات مطردة عن مجرى الثورة، وبالذات إلى ضمور قاعدتها الاجتماعية المستغلة من إقطاعية ورأسمالية، وإلى تفتح قاعدتها الاجتماعية من فلاحين وعمال وجنود مثقفين ثوريين ورأسمالية وطنية منتجة.

وفي السنوات الأخيرة ركزت قوى الثورة المضادة على الرأسمالية الوطنية وسعت لاجتذابها إلى مواقع الثورة المضادة بالاستفادة من مراكزها في قيادة الدولة والإنتاج، وبتضخيم وتعميق نواقص تجربة التحول الاشتراكي، وبينما كانت أحداث كمشيش تعبيراً عن عمق الصرع الطبقي الدائر في بلادنا، وعلى الرغم من توجيهات المناضل عبدالناصر بأن تتولى لجنة تصفية الاقطاع القضاء على كل «استغلال» في الريف فإنه الهبة الجماهيرية تحولت إلى عملية إدارية تسد الطريق من أعلا في وجه «الاقطاع»، وظلت تحذيرات عبدالناصر عندئذ: «لن نقبل النصب علينا والكلام عن أن الثورة بيضاء ليعطوا لأنفسهم الفرص للاستيلاء عليها ثم يقلبوها هم إلى ثورة حمراء»- ظلت تلك التحذيرات موضع التعويق الإداري والبيروقراطي اجتماعيا وسياسيا- حتى وقع العدوان.

ومن المعروف أن الحرب هي امتداد للسياسة ولكن هذه الحقيقة لا تقتصر على وضعنا الخارجي بل تمتد أيضا إلى وضعنا الداخلي، لقد فجرت الحرب قضايا الصراع الطبقي وبخاصة صفوف قوى الثورة. وتلك حقيقة موضوعية فرضت نفسها على جميع الطبقات بغض النظر عن رضانا عنها أو سخطنا عليها، هذه الحقيقة لم تكن من صنع أحد ولا يستطيع أحد أن يصنعها.

ولقد كان هذا هو فهم جميع الطبقات الاجتماعية للعدوان

وللهزيمة العسكرية.

لقد طرحت قضية مصير النظام القائم بأسره للبحث، وبينما أدركت الجماهير الثورية أنه يجب الحفاظ على النظام لكل ماحققه من مكاسب سياسية واقتصادية واجتماعية، كانت القوى المضادة للثورة تستقطب وتجاهر بعداوتها للنظام ومنجزاته، وعلى ضوء هذا الموقف كانت جميع الطبقات تحدد موقفها الوطنى من قضية إزالة آثار العدوان.

• تعادى الطبقة العاملة الاستعمار عداء أصيلا بحكم عداوتها للإستغلال بكافة صوره، ومن هنا وطنيتها الأصيلة التى عبرت عنها تقليديا منذ ثورة سنة ١٩١٩ ويضاعف من وطنيتها هذه حرصها على المكاسب الثورية والرغبة فى توسيع قاعدتها. كما يعززها الدور البارز المتزايد الأهمية الذى تلعبه الطبقة العاملة على النطاق العربى. لكن هناك عوامل تعقد من الموقف وتضعف من قوة الطبقة العاملة، هناك ضعف التنظيم النقابى وشكليته وتخلفه الواضح فى ٩ يونيه. وهناك عدم وجود النشاط الحزبى السياسى القوى الذى يربط جهد العمال اليومى بفكر المقاومة بطريقة عملية وليس بمجرد الخطب، وهناك الإحجام عن التوسع فى التدريب على المقاومة الشعبية بين العمال، وهناك أخيرا خطر استغلال الرجعية للمصاعب والتضحيات الاقتصادية ولمظاهر عدم الاتساق وعدم الوضوح فى سياسة أجهزة الدولة لإشاعة البلبلة والتردد بين العمال.

• ولاشك أن فكرة المقاومة تستند لدى جماهير الفلاحين الفقراء إلى الشعور الوطنى الأصيل، وإلى الشعور الدينى الذى يلعب دورا إيجابياً فى معاداة الاستعمار والصهيونية لكن الفلاحين الفقراء

يتمسكون بعبدالناصر، ويحرصون على الثورة تعبيراً عن تمسكهم بالأرض واقعاً وأملا، فالقضية الوطنية عند الفلاحين هى فى الاساس قضية الأرض غير أنه لم يتم أى مجهود واع للربط بين المقاومة ضد المعتدين وخطر عودة الاقطاع، أما تعبئة الفلاحين للمقاومة فيمكن القول بصوريتها وانحصارها فى مدن الريف بل إنعدامها عمليا، وذلك على الرغم من سهولة تدريب الفلاحين بأسلحتهم ذاتها.

• لا يمكن إنكار الشعور الوطنى والشعور الدينى الذى يحمل أغنياء الريف تلقائيا على الوقوف بوجه العدوان، ولكن هناك أيضا خوفهم من جماهير الفلاحين الفقراء ومن التضحيات التى يمكن أن يفرضها تطور المعركة، ومن ثم يوجد لديهم استعداد لتقبل فكر البورجوازية «المتعلمة» عن «حل سلمى بالتفاهم مع الغرب»

• البورجوازية الصغيرة طبقة ثورية معادية للاستعمار والصهيونية، حريصة على استمرار الثورة، متعلقة بالمثل الأعلى الاشتراكى، ولكن السمة المميزة لها اليوم هى الحيرة أمام التعقيد الزائد للموقف، ومن ثم فقدان الإتجاه، وبين صفوفها تبرز وتتصارع اتجاهات متعددة ومتناقضة ومتطرفة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.

• الفئات الوسطى تضم فئات الرأسمالية الوطنية المتوسطة والصغرى وهى قوة من قوى تحالف الشعب العامل غير أن أبرز هذه الفئات هى ما يسمى بالطبقة الجديدة وهى تسمية سياسية أكثر منها حقيقة علمية، هذه الطبقة الجديدة هى المسئول الأول عن نواحى الضعف التى أدت إلى الهزيمة، بيد ان مشكلة هذه الطبقة مازالت هى كيف تعيش؟ وكيف تحافظ على موقعها الممتاز على الرغم من الهزيمة؟ لكن الأمور ليست بهذه البساطة فقد أدت الهزيمة إلى شرخ فى

النظام بمعنى تحلل الطبقة الجديدة، لقد انقسمت إلى ثلاثة أجنحة وهى:

الجناح الاول: وهو يريد قلب النظام عسكرياً مختفياً وراء الدعوة للديمقراطية البورجوازية وتعدد الأحزاب، وهو يريد الأنتكاس بالثورة إجتماعيا وتلمس حل المشكلة بالتفاهم فى نهاية الأمر مع الغرب.

والجناح الثانى شعاره الأساسى هو الدولة الحديثة القائمة على العلم والتكنولوجيا والتى يحكمها بالطبع التكنوقراطيون والتى تقضى على التخلف الحضارى الصارخ بحيث تعيش الجماهير الشعبية داخليا فى مستوى لائق دون تطلع إلى مواقع القيادة وهذه الدولة الحديثة لابد أن يكون نظامها الاقتصادى هو رأسمالية الدولة البيروقراطية، ولذلك فليس المطلوب الغاء التأميمات جملة وتفصيلاً وإنما إلغاء بعضها فقط والإحتياطى المباشر لهذا الجناح هو البرجوازية الوطنية الليبرالية وبصفة خاصة فى المهن الحرة، أما موقف هذا الجناح من العدوان فإنه أكثر تعقيداً فهو يبدأ باتجاه يسارى مغامر يريد استئناف القتال فى أقرب وقت دون أن يستعد البلد والجيش استعدادا جديا، ولكنهم فى الواقع غير راغبين إطلاقا فى جولة عسكرية جديدة يمكن أن تهدد مواقعهم ثم يبادرون بالقاء مسئولية استحالة استئناف القتال على الاتحاد السوفيتى بحيث يتسنى لهم أن يعلنوا أنه لا مفر بالتالى من التفاهم مع الغرب فى اطار حقوق مصر الأساسية ومن الطبيعى أن يكون هذا الاتجاه من أقل الاتجاهات إيمانا بالقومية العربية، بل تشتد بداخله النزعة الانعزالية.

والجناح الثالث: هو الجناح الذى يتخذ شعاره الرسمى المحافظة على الثورة وموقفه العملى هو العداء للطبقة العاملة ومعاداة الشيوعية ومهاجمة الاتحاد السوفيتى لا يفعل شيئا من أجل تعبئة القوى الشعبية

الكفيلة بزجر المغامرين والانقلابيين.»

وتستطرد كراسة الطليعة وليعذرني القارئ في طول الاقتباس ذلك أن هذا العدد كان بمثابة ميثاق جديد ظهر لي والتقطته ولا أنكر أنني تعاملت معه أمنياً وحتى الآن وكأنني بصدد وثيقة يجب ألا تزول من تحت يدي، فعلى الرغم من مداهمة منزلي من قبل قوات الأمن السياسي أكثر من مرة رسمياً وعشرات المرات سرياً فإنني ظللت أجعل من هذا العدد وثيقتي الأساسية.

تستطرد الطليعة في أول نوفمبر سنة ١٩٦٧ وتقول: «تتمثل الرجعية في الطبقات المخلوعة من سلطة الأرض ورأس المال، ومن سلطة الدولة، وهي لا تبدي رأيا في المرحلة الحالية كقطب مستقل ولا تتحدى المشاعر الوطنية للجماهير، لكنها تعمل على تصفية النظام بتعميق التناقضات بين القوى الثورية المختلفة وبالضغط لشل حركته ومنع التحامه بالجماهير وموقفها هو تصفية الثورة بالتفاهم مع أمريكا.

اتخذت الطبقات داخل تحالف قوى الشعب العاملة مواقف متفاوتة تعبيرا عن رأيها في كيفية إزالة آثار العدوان، إن الجميع متفقون طبعا على ضرورة إزالة آثار العدوان لكنهم يختلفون من حيث الكيفية التي يجب أن تجرى بها. ومن هنا ظهرت قضية التغيير أو عدم التغيير فلقد أظهرت أحداث العدوان وماتلاها وبخاصة هبة ٩، ١٠ يونية أن القضية الرئيسية هي قضية الجبهة الداخلية، ومن ثم جرى الحوار حول هذه القضية على النحو التالي. هل تستدعي إزالة آثار العدوان تغيرات جذرية في الجبهة الداخلية؟ وحول هذه القضية انقسمت الآراء والمواقف إلى اتجاه تقدمي واتجاه محافظ واتجاه رجعي، ومن المفهوم أن هذه الاتجاهات لم تكن دائما بمثل هذا الوضوح الحاد، ولكنها إتخذت في

النهاية قواماً أقرب ما يكون إلى هذا التحديد.

* عبرت هبة ٩، ١٠ يونية عن الاتجاه التقدمى، حين أعلنت أن القضية الرئيسية هى قضية إستمرار الثورة ومن ثم فهى قضية الجبهة الداخلية تدعيمها وحمايتها من أجل مزيد من التغيير الثورى، وذلك بتمكين العمال والفلاحين من المشاركة بكيفية متزايدة فى عملية إعادة البناء السياسى والعسكرى أى فى كل مستويات السلطة.

ومن الواضح أن جماهير العمال والفلاحين كانت تعبر بطريقة أو بأخرى عن هذا الاتجاه.

غير أن التعبير الفكرى عنه كان من نصيب قوى عديدة من المثقفين الثوريين، ولقد تعزز هذا الاتجاه التقدمى بخطاب المناضل عبدالناصر فى عيد الثورة حين أوجز مضمون هذا الاتجاه بقولة «إن الشعب يطالب ببداية جادة وحازمة تتفق مع جدية الظروف التى نواجهها وحزمها، وأنا مع الشعب فى هذا» وبالتحديد فقد كان برنامج هذا الاتجاه يتمثل فى النقاط التالية:-

استمرار المقاومة، التأكيد على المقاومة الشعبية والدفاع المدنى. إعادة بناء القوات المسلحة، تطوير جهاز الدولة تحت قيادة القوى الاشتراكية، بناء اقتصاد حرب يقوم على المساواة بين الطبقات فى التضحيات، الحرص على إعادة بناء الاتحاد الاشتراكى كجبهة وطنية، بناء حزب اشتراكى طليعى، إقامة ديمقراطية اشتراكية.

بهذا كله تتدعم الجبهة الداخلية التى تصفى العدوان.

وفى مواجهة هذا الاتجاه تحددت معالم اتجاه رجعى بالفكر والمواقف، أخذ يستقطب قوى عديدة داخل تحالف قوى الشعب العاملة، لكن أهم ما يميز هذا الاتجاه هو مجاهرته بالرأى فى أوساط الدولة والقطاع العام

والصحافة والجامعة مستغلاً فرصة تفكك جهاز الدولة ومستبقياً تأهب الجماهير للحركة. هذا الاتجاه مستندا إلى بعض الفئات الرجعية التقليدية يريد الاستفادة من اضطراب الوضع الداخلى ليعيد الوضع الذى باد وانتهى، وهو بالتحديد وضع الرأسمالية.. رأسمالية الدولة البيروقراطية، أنه يطالب بالتغيير لكن إلى الوراء وابتداءً من واقع الهزيمة العسكرية يلخص موقفه كما يلى :-

عدم جدوى المقاومة والإدانة الكاملة للاتحاد الاشتراكى، الدعوة للوحدة الوطنية من أرضية الامتياز الطبقى.

* إذا كان يمكن تسمية الاتجاه التقدمى اتجاها يساريا والاتجاه الرجعى اتجاها يمينيا، فإن الاتجاه الثالث هو اتجاه محافظ أو اتجاه وسط فهو تعبير دقيق عن الطبقات أو الفئات التى ترى فى الوضع القائم حاليا تحقيقا لمصالحها كل مصالحها، ومن ثم فهى ضد التغيير وتلك هى الطبقة الجديدة فى أغلبها، فالاتجهان التقدمى والرجعى يبغيان التغيير أحدهما للأمام والأخر للوراء، لكن الإتجاه المحافظ يبغى المحافظة على النظام كما هو بلا تغيير، فأى تغيير يضر بمصالحه ومع ذلك فهو ذاتيا أكثر عداوة لاتجاه التغيير إلى الأمام، وأن يكن موضوعيا أقرب إليه وهذا الاتجاه يتشبث بالأجهزة والتنظيمات القائمة على مستوى الدولة أو الجماهير، كما هى وإذا كان شعار الإتجاه التقدمى هو استمرار الثورة فإن شعار الاتجاه الرجعى هو تصفية الثورة، فإن شعار الاتجاه المحافظ هو حماية الثورة بمعنى حماية النظم القائمة كما كانت فهى قادرة على مواجهة عملية إزالة آثار العدوان.

ومن الواضح أن الخلاف بين الاتجاهات الثلاثة إنما يدور حول قضية السلطة هل تتغير الطبقات أو الفئات الموجودة فى السلطة أم لا تتغير.

وفى هذا الإطار عولجت قضايا عديدة مثل تشكيل الوزارة الجديدة وتعديل الميزانية وتغيير الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى وبحث تشكيل اللجنة المركزية ومعالجة أسلوب الحل السياسى لتصفية أثار العدوان، وهى جميعا أنما تكشف عن حقيقة أنه لم تتخذ بعد أى خطوة جذرية نحو إشراك جماهير العمال والفلاحين فى السلطة»

تستمر الكراسة لتؤكد المفهوم الطبقى للديمقراطية من خلال استعراض تاريخ مصر المعاصر وطابع الديمقراطية فى حلقات الثورة الوطنية التحررية المصرية ونددت بمحاولة وضع الديمقراطية فى إطار سياسى دون بعدها الاجتماعى، كما نددت بمحاولات وضع القضية الوطنية فى تعارض مع القضية الاجتماعية، واكدت على أهمية الوحدة الوطنية كضرورة جوهرية لمواجهة العدوان ثم أهمية قيام حزب اشتراكى.

ولا أخفى أن هذه الكراسة زادتنى إصراراً فيما اعتقد بضرورة التحرك من خلال منظمة الشباب لاجراء تغيير فى بنيتها على أساس نضالى استقلالى غير بيروقراطى أو انتهازى. وقد زاد من إصرارى هذا أن الرئيس جمال عبدالناصر القى خطابا فى افتتاح دورة مجلس الأمة فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ تحدث فيه عن الإطار العام للحركة منذ يوم ١١ يونية ١٩٦٧.

وأوضح أن الذى ساد فى المجال السياسى والاقتصادى الداخلى هو مبدأ المراجعة وليس التراجع، وأوضح الرئيس أهمية مساندة الشعب ودعمه للتغيرات لأن مجرد الرغبة فى التغيير لا تعنى تحولها إلى واقع فورى دون وضع اعتبار لعلاقات ومراكز القوى الموجودة، وفى هذا الإطار استعرض جمال عبدالناصر عملية اسقاط دولة المخابرات، التى كانت تتمثل فى انحرافات جهاز المخابرات وكذلك القضاء على محاولة

الاستيلاء على قيادة القوات المسلحة باعتبارها وحسب نصه «من أهم الجوانب السلبية التى تخلصنا منها فى سبيل تطهير الحياة العامة فى مصر» مما مكن «من القضاء على خطر انقسام فى الجيش وفى الوطن» وفى هذا الصدد عرض الرئيس لأهمية محاسبة المسئولين عن كارثة سلاح الطيران أمام المحكمة العسكرية التى تواصل محاكمتهم، وكذلك تشكيل محكمة الثورة لمحاكمة المسئولين عن محاولة الاستيلاء على قيادة القوات المسلحة، وعن انحرافات جهاز المخابرات. وفى نفس الوقت أشار الرئيس إلى القرارات التى كان قد اتخذها بشأن الإفراج عن المعتقلين من الاخوان المسلمين ورفع العزل السياسى عن أعداد جديدة من المواطنين الذين سبق عزلهم عن العمل السياسى التطبيق الخاص لقانون «من أين لك هذا؟» وذلك على جميع من شاركوا فى ممارسة السلطة بجميع مواقعها منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وأوضح الرئيس أنه اتخذ هذه القرارات من أجل بناء جبهة داخلية متماسكة وقادرة على المواجهة، واكد الرئيس أنه إذا كانت مقتضيات الظروف قد تطلبت اعطاء مجال إعادة البناء العسكرى الأولوية فى العمل فإن مرحلة من العمل السياسى لابد أن تبدأ وبشكل نشط، وفى المجال الاقتصادى ركز الرئيس بصفة خاصة على دعم الطاقة الإنتاجية بتفجير كهرباء السد العالى وزيادة إنتاج البترول رغم توقف آبار سيناء المحتلة عنا وتحقيق محاصيل زراعية قياسية.

لقد اكد لى خطاب جمال عبدالناصر أن السلطة ليست هى رئاسة الجمهورية فقط فلقد أوضح لنا أن ارادتة معطلة فى كثير من القضايا، وأن هناك موازنات تراعى توازن القوى، وأن هذه القوى لها مراكز فى السلطة، وأدركت كم يستصرخنا جمال عبدالناصر لدعمه شعبياً فى

عملية موازنات السلطة حتى أننى رفعت شعاراً رددته كثيراً فى جولاتى داخل المنظمة بأن القيادة السياسية العليا ثورية والقاعدة الجماهيرية ثورية وبينهما قوى وحواجز كثيرة لا تريد لهذه اللحمة أن تتحقق لذلك أخذت أزيد من ضغوطى وحركتى داخل المنظمة. لقد بدأت قيادة المنظمة تنزعج منى فطلبت مقابلة الأستاذ أحمد كامل غير أنى اكتشفت أن هناك جهداً منظماً يمنعنى من اتمام هذا اللقاء.

وفى نهاية ديسمبر سنة ١٩٦٧ كنت قد توصلت بينى وبين نفسى إلى أن منظمة الشباب الاشتراكى تحولت إلى إطار بيروقراطى غير قادر على إنجاز أو السماح باتمام أى حركة تدخل فى معمعان قضية السلطة المطروحة ودور المشاركة الشعبية فيها، ومن أكثر مالفت نظرى فى تلك الفترة هو تحول المنظمة إلى مجرد جهاز يرفع تقريرا يوميا عن اتجاهات الرأى العام حتى أن عادل عبدالفتاح ازاء إلحاحى فى قضايا التغيير أخذ يدعونى إلى كتابة تقارير رأى عام تعكس دعوتى.

ولم تكن صداقاتى قادرة بتشرذمها وافتقارها للإطار التنظيمى على فعل شئ لذلك دعوت فى أحد أيام شهر يناير ١٩٦٨ مجموعة من أصدقائى إلى التحرك من خلال الجامعة باعتبار التجمع الطلابى يمكن أن يشكل كياناً جماهيرياً مؤثرا، واذكر أن اقتراحى هذا لاقى استهجاناً وانكاراً واسعاً، وكم شد علىّ النقير صديقى أسامة الغزالى وأشبعنى تهكما وأخذ يقول: ألا تعلم أن مصر لم تشهد مظاهرة سياسية منذ سنة ١٩٥٤ وكيف تتحرك الجامعة والشباب فى حالة كبيرة من حالات السلبية واللامبالاة وأخذ يقرعنى ويقول.. ثم من أنت لتقرر فعلا للكتلة الجماهيرية؟ حاولت مجادلته أننا نعيش فى مرحلة مابعد ٩، ١٠ يونيو، ولكنه رفض حجتى قائلا هذا حدث تلقائى انبعث فى جو

صدمة مروعة ولن يتكرر بسهولة فليست هناك صدمة أخرى متوقعة بقوة ماحدث لكى تتحرك الجماهير.

واذكر أننى طرحت فكرتى هذه داخل المنظمة فى اتصالات فردية واشفق الكثيرون علىَّ وإتهمونني بأننى أعرض نفسى لمخاطر لايعلم إلا الله مداها.

غير أن الفكرة كانت تزداد تبلورا أمامى فى كل يوم يمر ورحت أفكر فى كيفية التنفيذ وفى تحديد المهمة وفى تحديد الشعارات العامة.... الخ.

كان الإعداد لهذه الفكرة يتطلب تنشيط الصلات مع الاتحادات الطلابية، وقد كان خطى مع جامعة عين شمس فى أحسن حالاته فمن بين أصدقائى الشخصيين الصديق معتز الحفناوى رئيس اتحاد الجامعة ومجموعة من أنشط الطلاب وهم يسيطرون على اتحادات الكليات، وبالذات الهندسة والتجارة ومجلس اتحاد الجامعة غير أن صلاتى لم تكن قوية مع اتحادات الطلاب فى جامعة القاهرة فى هذه الفترة كان رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة عبدالحميد حسن الطالب بطب قصر العينى وكان شاباً فقير الحال فى مبناه ومعناه وكان منظره المتواضع ومفاهيمه المتواضعة دافعا لى للخطو نحوه والتعرف به غير انه كان شخصا متحفظا فلم تنمو علاقتنا ولكن ظلت فى إطار المعرفة علاقة عادية.

ومن خلال جماعة الفكر الاشتراكى زاد دفعنا للندوات وقد وجدت هذه الجماعة الفرصة لتنتشر خارج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، واذكر أن أول مكان انتشرت به كان كلية الهندسة جامعة القاهرة بعده انتشرت إلى كلية الطب البيطرى بجامعة القاهرة.

ورحت أوظف علاقاتى بأعضاء المنظمة من الطلاب أحسن توظيف

لطرح الفكرة المحددة أن الشباب وبالذات الشباب الثورى لابد أن يدخل في غمار معركة السلطة المثارة، وأن يحدد موقعه في تيار استمرار الثورة بالتغيير الفورى والثورى وأن يمارس ذلك بخلق حركة مستقلة تعيد تأسيس منظمة الشباب الاشتراكى بالمبادرة السياسية للشباب وعلى أساس ديمقراطى يدفع بالفاعلين إلى مواقع السلطة فيها، وأن يظهر الشباب الثورى الاشتراكى أنه لاعلاقة له بالقوى المحافظة وصراعاتها المصلحية والذاتية التى تتستر تحت شعار المحافظة على الثورة وأبنيتها البيروقراطية لتوفر استمرارية الامتيازات لصالحها وترك البلاد تغوص في دائرة المخاطر الخارجية والداخلية.

وفى هذه الفترة تحولت جلساتى مع زكى مراد ومحمد خليل قاسم وسمير عبدالباقى وأمين جدعان ولفيف من الشباب الاشتراكى العربى إلى جلسات متتابعة وأذكر أن زكى مراد كان قد عرفنى بمجموعات من الشباب الاشتراكى من اليمن الجنوبية ومن السودان، وفى جلسات شباب الطليعة العربية التى كانت تتم فى شقة سلطان القاسمى «أمير الشارقة الحالى» كان يحضر «تريم عمران» «وعلى سالم البيض» ولفيف من قيادات عربية حالية وسابقة كان مدخلى لهم أمين جدعان وهكذا اغتنت تلك الفترة حتى يناير سنة ١٩٦٨ بالتحركات الشديدة.

الفصل الرابع
مظاهرات العمال والطلبة فبراير ١٩٦٨ واستئناف التحرك الجماهيرى المستقل

كما أشرت تلميحًا في بداية الفصل الثالث، إلى بداية استئناف الفعل الجماهيرى المستقل، وعودة الانتعاش لبروز التيار الوطنى الديمقراطى العام المستقل، والمتجاوز بحركته حركة الأحزاب السياسية. كانت ظروف مابعد سنة ١٩٦٧ مهيأة لتخليص هذا التيار من تأميمه من قبل ثورة سنة ١٩٥٢، وعودته إلى صورته المثلى كتيار سياسى مستقل وعريض، يضم كل روافد الحركة الوطنية والديمقراطية للشعب المصرى.

إن الالتحام بين الوجود المستقل لهذا التيار قبل ثورة سنة ١٩٥٢، وتأميمه أو تأطيره فى حركة ثورة يوليو بين عام ١٩٥٦ تحديدا إلى عام ١٩٦٧ تأكيداً، فرض أن تكون عملية استئناف هذا الوجود المستقل للتيار، واستئناف سيرته على أسس استقلالية، مرتبطة بعناصر موجودة ضمن الاطار العام للسلطة السياسية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وليست مصادفة أن تتشكل تلك البدايات لتلك المسيرة المستأنفة على أيدى نوعين من العناصر :-

١- النوع الأول من الشباب الذين، وجدوا عمليا ضمن هذا التيار فى صورته المؤممة، وعلى الرغم من عدم تواجدهم أو معايشتهم لهذا التيار فى صورته المستقلة، سواء فى الاطار السياسى التلقائى العام، أو بالانتماء للأحزاب الجديدة والقوى السياسية الجديدة فى فترة ماقبل

١٩٥٢، وأقصد بالأحزاب الجديدة والقوى السياسية الجديدة، تلك الأشكال التى عبرت عن الطبقات الجديدة فى المجتمع المصرى، وبخاصة الطبقة العاملة والبورجوازية، أو حتى الأحزاب التى شكلت الاطار المتراوح بين الخروج من تمثيلها للطبقات التقليدية، وعدم اكتمال تمثيلتها للطبقات الحديثة مثل حزب الوفد والذى يمثل قبل سنة ١٩٥٢ صورة نمطية لهذا، إن هذا الشباب سواء من داخل منظمة الشباب الاشتراكى، أو من خارجها كان قد أدرك أهمية الفعل الجماهيرى المستقل، وليس مصادفة أن يكون انتماء هذا الشباب للقوى الحديثة اجتماعيا أى من العمال ومن المثقفين أبناء العمال والفلاحين والبورجوازية الوطنية من الطلاب.

٢- النوع الثانى: من بقايا التنظيمات والأحزاب السياسية المعبرة عن الكتلة الاجتماعية الحديثة سواء بقايا الأشكال الماركسية أو مصر الفتاة أو الطليعة الوفدية، أو العناصر المستقلة من أيام الوجود المستقل لهذا التيار الوطنى العام. وتبرز الصفحات التالية هذه الخطوة الأولى للتكوين المستقل لهذا التيار أو بمعنى أدق لحظة استئناف المسيرة المستقلة لهذا التيار.

[١١]
٠٠ وحانت الفرصة:

كان موضوع «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» الذى قاد النضال المصرى سنة ١٩٤٦. الموضوع الرئيسى، الذى وقفت عنده، جلسات حوارى الطويلة مع زكى مراد، وتحولت فى هذه الحالة، إلى محاضرات

ضافية القاها على زكى مراد، وأذكر أننى بدأت أصطحب زملاء لى من الكلية، ومن خارجها إلى هذه المحاضرات .. وأهلَّ على عام ١٩٦٨ .وقد بدأت أفهم معنى «اليوم العالمى للطلاب» «٢١فبراير» وكيف أن الاحتفال به تقرر دوليًا لأحداث مصرية وهندية وقعت فى ٢١/٢/١٩٤٦.

لذلك فكرت أن تكون مناسبة ٢١ فبراير القادمة، توقيتًا مناسبًا لتنفيذ ماكنت أنتويه، وقد تشاورت مع كثير من الزملاء الطلاب فى ذلك، لكن الغالبية رفضت، تحت زعم أن ذلك أمر مستحيل، والقلة كانت تؤيدنى، ولكن تلح، بالسؤال المركزى كيف؟.

فى هذه الأثناء، بدأت تتحدد قيادات مناوئة للفكرة الاشتراكية فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. وظهر أسامة غيث طالب الدفعة السابعة، ومن ذات الدفعة هانى خلاف. وبدأ هذان الزميلان يتتبعان حركتى، ويقفان لي بالمرصاد، وأذكر أن هانى خلاف كانت ملامحه الشخصية وطريقة ملبسه تظهر أنه كابن لأسرة من الأثرياء، وقد أصبح بعد ذلك سفيرًا حقيقيًا، غير أنه كان شديد الاستفزاز منى لحد أنه فرض على العراك الجسدى لأكثر من مرة، غير أننى كنت انسحب لأننى لست راضيًا عن هذه الطريقة فى ممارسة خلافاتى، حتى وأنا مازلت صبيًا العب فى طرقات قريتنا.

وقد أخذ هذان الزميلان نهجا مضادا للاشتراكية وللثورة على أساس دينى، بل أنهما، أخذا يبديان تعاطفًا ظاهرًا مع اتجاه الإخوان المسلمين، وكان يسبقهم فى الكلية زميل اسمه أحمد راشد من الدفعة الخامسة، كان الممثل الأساسى لتيار المعارضة ضد جماعة الفكر الاشتراكى، وضد العيال بتوع المنظمة والاتجاه الاشتراكى»، غير أن هذين الزميلين، لعبا

دورا أذكى فقد انتسبا لعضوية منظمة الشباب الاشتراكى. وقد ملأ هذان الزميلان الدنيا صياحا حول أحمد شرف الماركسى، وحول الشيوعية الزاحفة على كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

بدأ شهر فبراير سنة ١٩٦٨، وبدأت أشعر وكأننى تحت منظار لايغمض طرفه عنى، من قبل أسامة غيث وهانى خلاف، بل وجدت حركتى فى الجامعة وخارج الكلية محط اهتمامهم ومتابعتهم. غير أن ذلك قوبل من ناحيتى بالانهماك فى برنامج جماعة الفكر الاشتراكى، والاكثار من الندوات والحوارات، والدخول فى معارك فكرية علنية. ولا أنكر أن بدايات التطاول على النظام وعلى عبدالناصر بدأت تطل برأسها فى الجامعة، وفعلا أخذ الفرز فى الجامعة يحدد تيارين للتغيير، تيار يمثل الأغلبية، ويدعو إلى التغيير الثورى، وإلى ضرورة استمرار الثورة، وتوجيه ضربات للقيادات البيروقراطية، ولكتبة التقارير، وممارسى السياسة على النهج الأمنى، أى بطريقة المباحث العامة. وتيار يمثل الأقلية يدعو إلى التغيير فى اتجاه تصفية الثورة، وضرب المسيرة نحو الاشتراكية، وكانت قوى هذا التيار غير واضحة بعد، ولكن أهم ماأذكره، هو أننى بدأت أشعر بالمسوح الدينى يطل من حواراتها وأطروحاتها، أي قيادات هذا الاتجاه.

وأذكر أنه فى فبراير سنة ١٩٦٨، أخذت هذه القضية تلفت أنظارنا، ولعب الزملاء من الطلاب السودانيين واليمنيين، دوراً واضحًا فى تنبيهنا إلى ثمة وجود لاتجاه دينى، قد يكون منظمًا لصالح الإخوان المسلمين، وأن أهم بؤرة موجودة فى كلية العلوم جامعة القاهرة.

فى يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٨، انعقد لقاء موسع لمجموعة من الطلاب من جامعتى القاهرة وعين شمس، وكان هذا اللقاء بدعوة

منى، وكان الجميع أصدقاء لى، وقد جلسنا فى نادى جامعة القاهرة للطلاب، فوق المبنى الإدارى بالمدينة الجامعية لجماعة القاهرة. وعرضت على الجميع أن نجعل من ذكرى الاحتفال بيوم الطالب العالمى صباح الغد، مناسبة لكى يتحرك الطلاب، وتتحرك الجامعة، لتقول كلمتها، في القضايا الخاصة بالسلطة والثورة والدولة، وأنه لابد من الانتباه إلى أن فترة مابعد النكسة قد أظهرت، أن القيادة السياسية العليا ممثلة فى شخص الرئيس جمال عبدالناصر، قيادة ثورية، وترغب فى إحداث تغيير يضمن استمرار الثورة، ولكن خطابات الرئيس الماضية، تبين أن إمكاناته ليست مطلقة فى إحداث هذا التغيير، وأن القاعدة الشعبية التى صنعت الصمود، وحمت الثورة فى ٩، ١٠ يونيو، قد فترت حركتها، ووجدت، من تفنن فى مصادرة مبادرتها، ولابد لحركة الشباب، أن تعيد المبادرة الجماهيرية لدورها الرئيسى فى إحداث التغيير الثورى. وإذا كانت منظمة الشباب الاشتراكى، قد بدت أنها مجرد هيكل بيروقراطى، يقاوم حرية الحركة الشبابية واستقلاليتها، وبالذات للاتجاه الذى يدعو للتغيير الثورى، فلابد لنا من تحريك الطلاب، باعتبارهم كتلة وطنية، بل وثورية في معظمها، فالجامعة تضم الآن الأغلبية من أبناء العمال والفلاحين.

كان معظم الحاضرين من المؤيدين للفكرة، ولكن فكرة التظاهر كانت غير مقبولة، لأن التوقع السائد، كان يقول بعدم استجابة أغلبية الطلاب لذلك، وفعلا عكفنا على دراسة، كيف نجعل الاحتفال يغطى كل أو معظم الكليات، ودرسنا كيف نضمن لهذه الاحتفالات أفكارا محددة تدور حول مايلى:-

١- أن نعيد تأكيد أهمية دور الجامعة فى المجتمع.

٢- ونؤكد أهمية دور الحركة الطلابية في تاريخ وفي بنية الحركة الوطنية المصرية.

٣- إبراز معنى ٢١ فبراير كعيد عالمي للطلاب، وإبراز طابعه المصري في الأصل.

٤-الإشارة لأهمية التحام الحركة الطلابية، بحركة الفئات والطبقات الشعبية وبالذات بالحركة العمالية.

وقد ركزنا على الفقرة الأخيرة، نظرا لأن الطليعة كانت نشرت شهادات واسعة للطبقة العاملة، ولحركتها النقابية، صبت كلها في الدعوة، في عملية التغيير الثوري، والمطالبة بفكرة استمرار الثورة بتجديدها.

ونحن منهمكون في هذا الأمر. تنامت إلى أسماعنا نشرة أخبار الساعة الخامسة بعد الظهر. من إذاعة البرنامج العام بالقاهرة. لتعلن الأحكام في قضية قادة الطيران. وأصابتنا هذه الأحكام بصدمة حقيقية. فلا يمكن أن يكون ثمن التقصير الذي سبب الهزيمة العسكرية، بصورتها الحادة هذه عشر أو خمس عشرة من السنوات سجناً لقادة القوات الجوية، تتدرج من الأعلى إلى الأقل.

لدى سماعنا لهذه الأحكام، وصدمتنا بها، طرحت على الحاضرين، ضرورة الخروج بالجامعة للشارع، فلابد من ارجاع المبادرة، لجماهير ٩، ١٠ يونيو من جديد. لم يعد هناك من يقوى على معارضة هذه الدعوة. قال زميل، معنى ذلك أننا قررنا التخلي عن منظمة الشباب نهائيا؟ عندها قلت بسرعة سوف أذهب من فوري لقيادة المنظمة، وسوف أعلمهم بنيتنا، فإذا ساندونا، حبا وكرامة، وإذا رفضوا مانعرضه، سوف نستمر في حركتنا، وأردفت، وإذا رفضتم جميعا

الدعوة للتحرك بالجامعة، فسوف أصر على هذا بنفسى.

خرجت من فورى وذهبت إلى شارع حسن صبرى بالزمالك، وفى مقر المنظمة قابلت عادل عبدالفتاح، وأخبرته بنية مجموعة تنتمى كلها للمنظمة للتحرك فى صباح الغد تحركًا طلابيًا جماهيريًا، عندها حاول عادل أن يثنينى عن هذه الحماقة، قلت له، بلغ الأستاذ أحمد كامل، ولنتشاور فى الأمر. أجاب:

ولكن أحمد كامل غير موجود. قلت له اتصل بالسيد / على صبرى، فليس هناك مجال للتراجع. لمس عادل عبدالفتاح، عمق إصرارى وعزمى. قال: إذن اجلس وسوف نتصل بالسيد / على صبرى، لنخبره ويقر هو القرار الصحيح.

طال انتظارى إلى مايقرب من منتصف الليل، قلت له: لن انتظر إلا للثانية عشرة ليلاً بعدها سوف أذهب، فإذا كان لديك جديد، فيمكن أن تقابلنى أمام باب جامعة القاهرة الرئيسى الساعة التاسعة صباح الغد.

كانت القاهرة تغط فى ليل بهيم، فالإظلام كان كاملاً، والشوارع موحشة والمواصلات العامة تقف في الحادية عشرة، كانت لى شقيقة تسكن فى حى إمبابة ، سقت رجلى إليها، وغرقت فى أفكارى، وفى بحر الظلام الدامس، استشعر الوحشة، واستشعر الموات، غير أن خطتى كانت تريد خلق الحياة، بل تسعى لأن تكون هذه الحياة هادرة موقظة، ومبددة لكل صور السبات والنوم وحتى الغفلة. قبل التاسعة، كنت أقف بجوار النصب التذكارى المصمم على هيئة زهرة اللوتس أمام باب جامعة القاهرة، وطالت وقفتى حتى العاشرة، ومر الوقت علَّى، وأنا مستغرق فى محاولة استنطاق الوجوه، وقياس درجة وحرارة

الغضب، غير أن جهاز الرادار البشرى لدىّ لم يسجل أى اهتزازات ايجابية، دخلت الجامعة وقد ارتسم الهم على وجهى. كان أول الاحتفالات هو احتفال كليتى ووقفت خطيباً، وأبرزت النقاط الأربع، واستخدمت النبرات الموحية، لكن كان الهدوء مسيطراً، بعد أن انتهى احتفال كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، سألنى أسامة الغزالى عن ملامحى وقد كساها الهم والغم والكرب العظيم، فقصصت عليه قصتى، فإزاداد صخباً وضحكاً، تركته وأنا اشتعل غيظاً، ذهب لشلتنا وأخبرهم، وجدتهم وقد خفّوا جميعا لايناس وحدتى، معظمهم أخذ الأمر بجدية، قلت لهم سوف أذهب لكل الاحتفالات فى كل الكليات.

كان احتفال كلية الطب فى قصر العينى سيعقد فى الواحدة ظهراً، سارعت للحاق به، طالبت عبدالحميد حسن أن يأخذ تصريحاً من الأمن بفتح مدرج العميد بدر بكلية الحقوق، لنقيم احتفالاً رئيسياً للجامعة، وأردفت أرى أن تطلب ذلك بصفتك رئيسا لاتحاد طلاب الجامعة، لأن مشاعر الطلاب ملتهبة وإذا لم يفتح هذا المدرج، أو قاعة الاحتفالات الكبرى، فقد يتحول الأمر إلي تظاهرة، سمعنى الدكتور محمود شريف. وقال لماذا طلبت ذلك من عبدالحميد حسن؟، قلت بصفته رئيساً للاتحاد، قال لى: ولماذا أخبرته بما قلت، قلت لأن هذه الحقيقة، قال لى، لا تأمن جانبه. اذهب من فورك ورتب أمورك بعيدا عن هذا الشاب.

كان عبدالحميد حسن كما قلت شاباً فقير الحال، فى مظهره، وفى مخبره، وكم ساءنا الأمر عندما رأيناه رئيساً لاتحاد طلاب جامعة القاهرة، غير أن سعيه للانضمام للمنظمة والتحاقه بدورة المستوى الأول، جعل صلة عادية تقوم بيننا لذلك لم أتوان فى محاولة اشراكه

فى هذه الحركة غير أن تحذير د. محمود شريف لى بخاصة أن هذا الزميل فى اللجنة المركزية للمنظمة كان يحظى باحترامى إلى أبعد الحدود قد نبهنى إلى مساحة كنت قد أغفلتها.

عندما عدت إلى الجامعة، علمت بأخبار مظاهرة عمالية قامت فى حلوان لدى سماعى لهذا النبأ أنفرجت أساريرى، ورحت أوكد أننا قاب قوسين أو أدنى مما نريد تحقيقه، وبضحكة عالية قلت لأسامة الغزالى سوف تشهد اليوم، مظاهرة جامعية قال لى لو تحقق ماتقول لقدمت لك اعتذاراً.

كان موعد احتفال هندسة القاهرة باليوم العالمي للطلاب، مقررا له أن ينعقد فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. توجهت من فورى للهندسة، وبحثت عن أصدقائى، وأقنعت محمد فريد حسنين، وكان عضو لجنة محافظة القاهرة بالمنظمة بفكرتى كما أقنعت رشيق رفعت بذات الفكرة وكانت هذه الفكرة هى:-

أن نخرج بمن سيحضر الاحتفال ونطوف الجامعة فى مظاهرة صامتة، بعدها نتوجه لقاعة الاحتفالات الكبرى، أول مدرج العميد بدر فى كلية الحقوق لتنظيم مهرجان احتفالى كبير باليوم العالمى للطلاب، ونعلن فيه النقاط الأربع، ثم نضيف عليها ثلاث نقاط أخرى هى:-

١- استنكار أحكام قضية الطيران، والمطالبة باعادة المحاكمة.

٢- استنكار التصدى لمظاهرات العمال فى حلوان اليوم، في دولة تنادى بالاشتراكية، وتبرز الطبقة العامة فيها باعتبارها نواة الحلف الطبقى المسمى تحالف قوى الشعب العاملة.

٣- المطالبة بالتغيير الثورى، وإعادة الالتحام بين القيادة الثورية والقاعدة الثورية. أقتنع الزملاء بما طرحته، وقدمونى كمتحدث

وحيد في الاحتفال، وطرحت كل هذه النقاط؛ بعدها دعا فريد حسنين الجميع للخروج في مسيرة صامتة تطوف الجامعة. وقد بلورنا نظرية كرة الثلج التي تنحدر من أعلى جبل الثلج، فتزداد كبرا كلما تدحرجت حتى تصير كتلة كبيرة على السطح.

فعلا خرج التجمع، وعبر الطريق ودخل الجامعة تنبيت للمرة الثالثة في يومي هذا بمتابعتي من قبل مجموعة لها صلة بكل من أسامة غيث وهاني خلاف عندما وصلنا لكلية العلوم، فوجئت بمجموعة في انتظارنا، قاطعت صمت المسيرة، وأخذت تهتف بسقوط الدكتاتورية، اعتليت سلم الكلية خطيبا ومؤكدا لفكرة أننا يجب ألا ننقاد لغير مااتفقنا عليه وخططنا له. هدأت العاصفة، ولكن برز للمسيرة ذيل أخذ يتحرك بطريقة ثعبانية. يريد الانقضاض.

عندما رجعنا إلى مبنى قاعة الاحتفالات الكبرى لجامعة القاهرة كانت المسيرة قد صارت تضم المئات. ووجدنا القاعة مغلقة.

اعتليت السلم. وأعدت خطبتي الكاملة كما قلتها في كلية الهندسة، قابلها الطلاب بهدوء وبارتياح، غير أن ذيل المسيرة بدأ ينفض، وأخذ أحد طلاب علوم يقول: هنروح فين، أهم قفلوا القاعة. بدأ الضجيج يعلو. دفعت محمد فريد حسنين للحديث. وأنا استعيد درسا كنا قد تلقيناه في المنظمة عن ملامح القائد. ووجدت في محمد فريد جسما ممتلئا، وكان يكبرني بسبعة أعوام على الأقل وكنت أعلم أنه والد لأطفال.

عندما بدأ محمد فريد الخطابة، فتح شلالا ليبراليا أرعن، فقد بدأ حديثه بالقول لابد للجميع أن يتكلم كفانا صمتا كفانا كبتا لمدة ١٥ سنة، لابد أن نخرج كل مافي جوفنا.

قاطعته هاتفا فلنتوجه لمدرج العميد بدر، بجواز المدرج لمحت عبدالحميد حسن، وعلى باب المدرج وقفت قوات الحرس الجامعى لحراسته وقد أغلقته، عندها أدركت صحة تحذير محمود شريف، جريت نحو عبدالحميد حسن، وقلت له صارخا لماذا لم تقدم طلباً رسمياً. قال لقد طلبت لكن الحرس الجامعى رفض.

فى هذه الحالة كان هناك شاب يدعو الجميع للتوجه «لمدرج ٧٨» فى كلية الآداب ،هرول الجمع إلى هناك وهرول جنود الحرس أيضا ولكن اقتحمه الطلبة وقد سبقوا وسيطروا على المكان قبل الحراس.

لدى دخول الطلاب مدرج ٧٨ بآداب القاهرة، أعتليت المنصة وبهدوء خاطبت العقول وركزت على طبيعة المرحلة وعلى تصارع الاتجاهات حول قضايا السلطة، وفرقت بين دعاة التغيير الرجعى، لجعل النكسة تنتقل من مجال الهزيمة العسكرية، لتمتد إلى ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للوطن، وحذرت من دعاة هذا الاتجاه وركزت على مدى اختلافهم عما يجب أن ندعو إليه، أى التغيير إلى الأمام، التغيير الذى يعمق مسيرة الثورة لصالح التنمية، والمساواة بين الطبقات التغيير إلى الديمقراطية والمشاركة الشعبية فى الحكم، تلك المشاركة التى حسمت رفض الهزيمة وضرورة استمرار الثورة فى يومى ٩، ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧.

وأضفت من أجل هذا نحن نتحرك وندعو لذلك كأبناء ومثقفى العمال والفلاحين وقوى الشعب العاملة غير أنه جدت علينا أمور جديدة منذ الأمس، فنحن الآن نعلن احتجاجنا على الأحكام الفاترة لقادة الطيران، ونعلم أنه لن تكون بضع سنوات من السجن ثمناً للهزيمة العسكرية الفاجعة، فالأمر أكبر من هذا بكثير كما أننا فوجئنا

اليوم بخبر فتح النار على مظاهرات عمالية سلمية أنه عار وأى عار أن تطلق دولة تسمى نفسها «اشتراكية» النار على العمال فى تحركاتهم الوطنية السلمية.

وأهبت بالجميع أن نكون على مستوى متطلبات المرحلة سياسياً، وأن نكون على مستوى ذكرى يومنا هذا ويوم ٢١فبراير، حيث انبعثت قيادة وطنية جديدة للحركة الوطنية المصرية سنة ١٩٤٦ باسم اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، وقلت وكأن التاريخ يعيد الكَرة، ويلقى بالمسئولية علينا. فلنكن على مستوى المسئولية ولنفوت الفرصة على من يريد أن يركب حركتنا هذه، فى غير مانريد لهذا الوطن. عندما أنهيت حديثى انفجرت القاعة بالتصفيق، وبدأت تنطلق دعاوى عملية لكيفية صياغة مطالبنا وإلى من نتجه بها.

وفى غمرة هذه الموجة العاملة دخلت علينا طالبة صارخة مولولة ووسط صراخها، أخذت تحكى كيف أنها جاءت لتوها من حلوان، وكيف شهدت المذبحة، وكيف يجرى دم العمال ويسيل وكيف قامت الشرطة بفتح النيران على الآمنين، وكيف تصل أعداد القتلى للعشرات.

بعد هذه الخطبة النارية، اشتعلت القاعة اشتعالاً وارتفعت الهتافات المعادية للنظام، حاولت أن أتدخل من جديد، رفضنى الناس، وانهال على السباب من كل صوب ومن كل حدب، وهكذا ضاعت مبادرتى، عندها اعتلى المنصة آخرون، كان من بينهم أصدقاء الهندسة ومن مختلف الكليات، وانطلقت مظاهرة صاخبة، وجدت أبواب الجامعة مغلقة طافت بالجامعة، وهى تغلى وتهدر بالغضب ظهر بشكل أوضح اتجاه التغيير الرجعى، علت الهتافات المعادية للدكتاتورية العسكرية

ولحكم الفرد المطلق وانساق جزء من تيار الأغلبية الصامتة أو غير المسيسة إلى حين فى هذا الاتجاه، ولكن ظلت الهتافات الغالبة تعلن الاحتجاج على ضرب العمال والاحتجاج على أحكام الطيران، فالكتلة غير المسيسة كانت تنتمى فى غالبيتها لفكرة التغيير الثورى. فى سرعة مذهلة تحلقت حولى مجموعة من الزملاء، وانعقدت هيئة أركان، بسرعة مذهلة، كان ضمن هذه الهيئة مجموعة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية: الزملاء أحمد يوسف، أسامة الغزالى، عبدالقادر شهيب، عثمان محمد عثمان، أمل الشاذلى، ولفيف من هؤلاء بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من هندسة القاهرة: صالح سمرة، عثمان عزام، سيد عمر سرحان ومجموعة كبيرة ومن آداب القاهرة علاء حمروش وآخرون. وبدأ الجميع يتحدثون بصورة تلغرافية قاطعة ضرورة سحب أحمد شرف والتقدم بوجوه جديدة - ضرورة الدعوة لتحديد فرد واحد أو اثنين من كل كلية لتكوين وفد يقابل رئيس الجامعة «وكان يسمى مدير الجامعة» -تحديد مطالبنا وضرورة التمسك بخطتنا التى اعلنتها فى مدرج ٧٨ بكلية الآداب. وفورا اجتمعت الآراء على ضرورة تقديم علاء حمروش كقائد بديل، وتم اختيار مندوب كل كلية وأن يستمر الأمر للتنسيق بيننا، علاء حمروش ينسق من داخل اللجنة المشكلة من المندوبين، وأسامة الغزالى من خارج هذه اللجنة.

استسلمت لقرارات هذه الهيئة الميدانية، وعلى الفور وجدت من ينادينى ويطلب منى أن أذهب من فورى إلى مقر قيادة منظمة الشباب لأن هناك استدعاء لى. جاء هذا الاستدعاء، وكأنه صار أمراً إضافياً لى بالانسحاب.

توجهت إلى المنظمة، ووجدت فى استقبالى الدكتور عادل

عبدالفتاح، ومجموعة من قيادات المنظمة، وتحديداً من سكرتارية المهام. وبادرنى عادل عبدالفتاح مهللاً ومرحًا عملتها واتسرقت منك يافالح!! شايف طلعت غشيم ازاى!!

رددت عليه، لأنكم تركتمونى وحدى، وبجهدى الفردى، وجهد مجموعة من الزملاء، لم نستطع أن نصل إلى مانرجوه، العيب فى تخاذلكم، وليس فى غشمى، أو فى غشمنا.

طلب منى عادل أن أقص عليه ماجرى تفصيلا، استجبت لطلبه، بعد أن سمع منى سألنى يعنى عايز ايه؟ قلت له غداً الخميس يوم أجازة ٢٢فبراير عيد الوحدة، وبعد غد الجمعة. واعتقد أن الجامعة ستخرج عن بكرة أبيها يوم السبت لأن أحداث اليوم، جاءت بنتيجة أساسية، هى أن حاجز الصمت قد إنهار لذلك أرى أن الغلطة ستتحول إلى جريمة إذا لم تخطط للسبت القادم حتى لايتجه السيل ليدمر ويخرب، فخير لنا أن نشق مجراه من الآن!!

استمع إلَى عادل باهتمام، وقال لى الأستاذ أحمد كامل ليس موجوداً الآن، ولكن لابد أن تراه اليوم، لأنه طلب منا ذلك.

قلت له أخيرا: ستجعلنا نتلاقى، ضحك وقال هو اللى عايز كده واستطرد لكن أرجو يابطل أن تجلس وتسطر ورقة بما حدث، وماذا تريد؟

فعلاً جلست وكتبت ماحدث تفصيلاً، وأشرت إلى مقدماته، وشرحت فكرتى حول انهيار جدار الصمت وضرورة الاستعداد.

بعد فترة كانت الساعة قد اقتربت من التاسعة مساءً جاء أحمد كامل وكانت أول مرة ألقاه، كان الرجل قد قرأ ماكتبته، أزاح الورقة عنه، وراح بود وحميمية يطلب منى الإفاضة والتفصيل. سردت عليه،

عمق تحركي زمنيًا وعمليًا، اعتذر الرجل عن عدم مقابلتنا لبعضنا قبل اليوم، وأسف لكنه تحجج بأنه لم يخبر بطلبي للقائه استمع لتفصيلات ماجرى منذ الليلة البارحة حتى ساعة مغادرتي الجامعة في حوالي الخامسة من مساء اليوم.

طلب مني أن أضع تصورًا للأحداث في الأيام المقبلة، خاطبته عن فكرة جدار الصمت المنهار، صدّق على ما أقول، تحمس لما أطلب. عندئذ طلبت منه أن يمهلني للغد حتى أقدم له تصورًا عن الأحداث وكيفية شق مجرى السيل المصاحب لها. وافق على ذلك، اتفقنا على اللقاء في الثانية عشرة من ظهر الخميس ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٨.

كان تصوري يقوم على التصور السياسي الذي كررته في السطور السابقة كثيرًا، وكانت رؤيتي أنه لابد من الدفع للخروج من الجامعة للشارع، ولكن تحت إصرار على تكتيل كتلة متحركة وسط المظاهرة، تمتلك امكانات القيادة، والسيطرة، تدفع بالمظاهرة لأن تكون واضحة في تبني خط التغيير الثوري، واستمرار الثورة، وقدرة الجماهير على ضبط هذه الحركة، وأهمية مشاركتها السياسية في السلطة، وفي عملية إزالة آثار العدوان كلها.

أقر أحمد كامل تصوري كاملاً، غير أنه، أضاف أرجو أن تفهم تحفظا ماسوف أشير إلية حالاً، وإن كنت أشك مثلك تماما في إمكانية قيامه، وهو: إذا كان اتجاه الطلبة عدم الخروج للشارع، يجب ألا تكون أنت ومجموعتك خالقين لهذا الدفع، فمهمتنا ليست انشاء التظاهرات الجماهيرية. عندما حاولت استرجاع فكرة حائط الصمت الذي انهار، وجدت تأمينا من الرجل على كلامي، بل وجدت تبني الأمر بذات توجهي، غير أنني لمست فيه، وكأن شيئا ما فرض عليه ولايمكن له أن

يتجاوزه، أحالنى الرجل لمجموعة من سكرتارية اللجنة المركزية فى المنظمة برئاسة عادل عبدالفتاح، لوضع الخطة التفصيلية، وقبل أن أغادر مكتبه، فاضت مشاعر الرجل بكلمات التأييد لى، والثناء على حركتى، وبفخره بى كقيادة مستقلة ذات بعد وطنى وثورى واضح.

انتقلت إلى الحجرة المجاورة، وجدت مجموعة ، أذكر منها عادل عبدالفتاح، عزت عبدالنبى، هاشم العشيرى، كمال قشيش، عباس الدندراوى، وكان كل منهم سكرتيرا لنشاط مهم مثل التنظيم، الاتصال بالمحافظات وبعض الزملاء الآخرين. بدأنا الحوار، وبقدر ارتياحى للقاء بأحمد كامل، بقدر نمو مشاعر التوجس لدى، فى هذا الاجتماع، فالاتجاه الرئيسى لهؤلاء الزملاء كان ينطلق من جذر سياسى محدد هو ضرورة المحافظة على الثورة، ويخلطون بين هذا الشعار، وشعار ضرورة استمرار الثورة، ذلك أن الثورة فى فهمهم هى تمكين القيادة الثورية من الفعل السياسى فى أجواء الاستقرار. لذلك انصب تركيزهم الأساسى فى اتجاه واحد، كيف نمنع خروج مظاهرات الجامعة إلى الشارع بعد غد أى السبت الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٨. حاولت أقناعهم، دون جدوى، بفكرة جدار الصمت المنهار، انطلق عادل عبدالفتاح من اجترار تجربة الأربعاء. أى أمس ٢١فبراير سنة ١٩٦٨، وكيف أن حركتى ساعدت فى ايقاظ القوى النائمة المعادية للثورة. أخذت أحاول أن أشرح أن الجامعة، مثل باقى قطاعات المجتمع تضم أكثر من اتجاه، وأن الكتلة الرئيسية الجماهيرية، كتلة غير مسيسة، ولكنها كتلة وطنية، وهى تمثل الحاضنة للاتجاه الثورى، وأننا يجب أن نكون فاعلين كقوة ثورية فالكفاح من أجل استمرار الثورة ،سيثبتها ويحافظ عليها أكثر مما لو جلسنا، نستمطر الغيث بالدعوات الصالحات.

غير أن حديثي نزل على آذان غير صاغية. تماشيت معهم، وقلت إذن فليجهز الأمر لأكثر من مسار «سيناريو للأحداث»:-

١- المسار الأول أن نتمكن من عدم الخروج للجامعة أصلاً.

٢- مقاومة الميل للخروج من الجامعة فى حالة وجوده.

٣- إذا خرجت المظاهرات من الجامعة إلى الشارع.

وجدتهم عملياً لايقدمون أى امكانات، غير الإشارة لأهمية الاتصال بلجنتى محافظتى القاهرة والجيزة، وأشاروا إلى أننى أعرف معظم الطلبة بهما.

ذكرتهم بأن اليوم وغدا إجازة، أجاب عادل سوف نحاول الاتصال بفلان وعلان.. ونوصلهم بك.

أدركت بحاستى المعادية للبيروقراطية السياسية، أهمية انهاء هذا الاجتماع وضرورة الإسراع للخروج من هذا المبنى، وفعلا أظهرت موافقاتى الشكلية وخرجت فى حوالى الرابعة بعد الظهر.

جلست على مقهى بعد أن التهمت بعض ساندوتشات الفول والفلافل، وأخرجت ورقة وقلماً، ورحت أسطر مهام الحركة المستقلة، بعيداً عن قيادة المنظمة هذه، كان على مايلى:-

١- أن أتابع ماجرى فى الجامعة بعد خروجى، وضرورة الاتصال بعلاء حمروش وأسامة الغزالى، ومجموعة جامعة القاهرة كلها أمثال سيد سرحان وصالح سمره.

٢-ضرورة الاتصال بجامعة عين شمس، وأهمية لقاء معتز الحفناوى وشريف حافظ، وهانى الحسينى، وعادل بدوى، وأحمد عبدالرحمن وأحمد الحمدى... الخ.

٣- ضرورة الاتصال بزكى مراد، ومحمد خليل قاسم، وأمين جدعان.

٤- أهمية الاتصال بمجموعات الطلبة السودانيين واليمنيين من الاتجاهات السياسية الاشتراكية، لحماية أمن المظاهرات سياسيا التى لابد وأن تخرج للشارع.

٥- ضرورة توحيد الشعارات وتوحيد الاتجاه، وضرورة وضع خطة كفاحية للتصدى لحركة القوى الرجعية، دعاة التغيير إلى الخلف.

ولم أُضع لحظة وعلى مدى ماتبقى من مساء الخميس وطوال يوم الجمعة، قمت بتنفيذ كل هذه الاتصالات وتقابلنا كقيادة فى منزل أحد الزملاء مساء الجمعة، وذكرنا انفسنا بالخطوط السياسية التى نراها. وحددنا شعاراتنا الرئيسية. وصغنا كلماتها وكانت مطلب فورى ياناصر.. تغيير ثورى ياناصر .مطلب فورى ياناصر... تغيير جذرى ياناصر.

جماهير تسعة وعشرة هم حماة الثورة.. الشعب لما يشارك مسيرتنا هتتبارك. - الثورى على رأس النظام... والقاعدة آخر تمام... لابد عن الوصلة.... علشان تيجى النصرة.... الجماهير.. الجماهير.. هى ضمانة التغيير.... بالروح بالدم... هنكمل المشوار... بالروح بالدم... هنفرض الانتصار».

كتبنا عدة ورقات، ووزعناها بين جامعة القاهرة، وجامعة عين شمس، أحد الزملاء قال إنه على اتصال بجامعة الأزهر، ولدينا مجموعة جيدة هناك اتفقنا على أهمية دعم حركة جامعة عين شمس بجامعة الأزهر.

كذلك قررنا أن حاملى الأوراق المدون بها الشعارات، يجب أن يحيط بهم مالا يقل عن خمسين فرداً من القوى النصيرة والمضمونة،

ولكل شخص يقوم بقيادة الهتاف الحق فى ابتكار الشعارات وفى حدود الأفكار المتفق عليها، مع ضرورة التذكير كل فترة بالشعار الرئيسى: مطلب فورى ياناصر... تغيير ثورى ياناصر.

فى المساء المتأخر ليوم الجمعة، كنت أنجزت كل المهام، التى حددناها، وكان أهم اتفاقاتى أن تلتف بى مجموعات الشباب الاشتراكى العربى من السودانيين وأبناء اريتريا واليمن لضمان الأمن السياسى فى مظاهرات جامعة القاهرة.

من حى العجوزة سرت على الأقدام إلى شارع مجلس الأمة حيث منزل شقيقتى الكبرى، اندمجت مع سكون ليل الحرب فى شوارع القاهرة، جلست على النيل أتابع ضوء القمر، وانكسار أشعته الفضية المتلألأة على صفحة النيل الساحرة، وبدأت الأشجار الكثيفة فى شوارع القاهرة، وكأنها أشباح رجال ونساء تتعانق فى قبلات دافئة: سرحت مع الجندول: حلم لاح لعين الساهر.. وتهادى فى خيال حائر ياله من سره... لوعة الشاكى... ووهم الشاعر... ورحت أدندن بلحن عبدالوهاب الأخاذ.

[١٢]
وانطلقت مظاهرات فبراير الجماهيرية:

فى صباح السبت ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٨، أخذ طلاب جامعة القاهرة، يعرضون عن الدخول إلى قاعات الدرس، ويتجمعون فى الفناء الأمامى للجامعة، فى المربع غير المكتمل بمبنى آداب، ومبنى حقوق، ومبنى قاعة الاحتفالات الكبرى، فى حوالى الساعة العاشرة، وصل

عدد هذا التجمع الطلابى لاكثر من ثلاثة آلاف طالب، تحول الحرم الجامعى إلى ساحة مشتعلة بالنقاش السياسى، والمحاورات والمداولات حكى البعض للآخرين أحداث يوم الأربعاء، وعن المندوبين للكليات بواقع ٢مندوب لكل كلية، وعن لقائهم بمدير الجامعة الأستاذ الدكتور محمد أحمد مرسى، وعن إجراءات الأمن من على الجانبين.

فى الحادية عشرة صباحا أخذت الهمهمات تعلو، وإذا بطلبة كلية الحقوق يرفعون على الأعناق زميلاً لهم، توجه بخطاب نارى عن التقصير وعن الاهمال، وعن القرارات غير المدروسة، وأخذ يحكى أنه شقيق لشهيدين الأول من معركة ١٩٥٦، والثانى فى حرب مساندة القوات المصرية لقوى التحرر والثورة فى اليمن الشقيق، وتحول هذا الطالب إلى النقد اللاذع للسياسات الحكومية، بجمل إثارية، ومن حوله التفت مجموعة تستحسن كلامه وتقول « أيوه ياعبدالرازق»، بعدها قامت مجموعة بهتاف جماعى «إلى خارج الجامعة» «يلا نطلع بره السور»، بعدها قامت مجموعة نحو أبواب الجامعة الرئيسية فإذا هى مقفولة، اشتعلت الثورة، حملنى من حولى وأخذت أردد هاتفا «إحنا الطلبة ولاد الشعب، يالا نروح لحضن الشعب» «إحنا الطلبة مع العمال... لازم نكمل النضال» برز وتألق إلى جوارى هاتفاً الزميل عثمان محمد عثمان واستطاع بهتافاته أن يوجه المظاهرة لكلية الهندسة لإخراجها، فتح الطلبة الأبواب، واكتظ ميدان الجامعة بالبشر، حوالى سبعة آلاف فرد، اتجهنا بالمظاهرة شمالاً إلى مبنى كلية الفنون التطبيقية، والمظاهرة تحت السيطرة التامة لمجموعاتنا، الهتافات المتفق عليها تنطلق ونتأكد لازمتها بالهتاف المحدد «مطلب فورى ياناصر.. تغيير ثورى ياناصر» دخلت مقدمة المظاهرة كلية الفنون التطبيقية، وأنا

فيها، فى فناء الكلية الضخم، اعتلى أحد الطلبة إحدى النوافذ، وأخذ يوجه خطابا، نبراته تنم عن انتمائه للإخوان المسلمين، ومن حوله تصايحت مجموعة قليلة بشعارات تقرن سقوط الدكتاتورية، بشعارات دينية. اعتليت أنا الآخر نافذة مجاورة، وما إن بدأت بالخطابة حتى أخذت هذه المجموعة تسبنى، وتهتف تسقط الشيوعية. فى لحظة واحدة تولى الرفاق من السودان واليمن واريتريا مهمتهم، وواصلت خطابى، فى اتجاه أفكارنا المتفق عليها، ثم علت هتافاتنا لتشق عنان السماء، وواصل الركب مسيرته إلى اتجاه مديرية أمن الجيزة التى تقع فى ذات الشارع الذى يقع فيه مبنى الفنون التطبيقية، بغرض عبور النيل من على كوبرى الجامعة، لإخراج كلية طب قصر العينى، ثم مواصلة المسيرة لمجلس الأمة.

انتظمت مسيرة المظاهرة تحت القيادة الكاملة لمجموعاتنا وشعاراتنا للتغيير الثورى وطلب المشاركة الشعبية فى إدارة دفة الحكم بالبلاد، عند مبنى مديرية أمن الجيزة، انطلقت المجموعة التى وجدناها فى كلية الفنون التطبيقية، تدعو الجميع لمحاصرة مديرية الأمن وإحراقها، بسرعة فائقة ارتفعت شعارات: الشرطة ويا الشعب والجيش ويَا الشعب» «عاشت وحدة القوى الوطنية ضد الرجعية والاستعمار» وأمرت الرفاق العرب باخراجهم من المظاهرة أساسًا، وفعلاً نجحوا فى تنفيذ هذه المهمة. تقدمت المظاهرة آمنة. واتجهت إلى مدخل كوبرى الجامعة، عند مدخل الكوبرى تحت مجموعة تحيط بعربة بيضاء صغيرة «فيات١٢٥» تحمل لوحات الشرطة، أخذت هذه المجموعة ترفع السيارة، جريت نحوهم، وجدتهم يهمون بالقائها فى النهر، وجهت شعارات نارية، ضد الخونة، الذين يريدون اجهاض مسيرتنا لدعم واستمرارية الثورة،

وإحداث التغيير وتواصل مسيرة الصمود لتطهير بلادنا وإزالة آثار العدوان الغاشم. قام الطلبة بأنفسهم بهجوم شرس ضد هذه المجموعة، وحررت السيارة من قبضتهم أخرجناها من المظاهرة، بعد أن اشبعوا أفراد هذه المجموعة المعتدية ضرباً وتكسيراً.

كانت المظاهرة قد قاربت الخمسة عشر ألفا، ولكنها ظلت تحت السيطرة الكاملة لمجموعاتنا وشعاراتنا، حتى من تطوع للهتاف كان يردد: مطلب فورى ياناصر... تغيير ثورى ياناصر.

فى منتصف كوبرى الجامعة، وجدنا عدة أشخاص يدفعون عربة يد خشبية يعلوها، رجل يرتدى جلباباً صعيدياً، وينادى ويهتف: يسقط حكم الدكتورية... يسقط حكم الفرد المطلق. آثارهذا الهتاف ضحك الجميع، خاطبت هذا الشخص، ماذا تريد أن تقول أعاد علينا هتافاته المضحكة، ضحك الجميع، فقال وأنا مالى... همه اللى قالولى كده، قال له زميل يعنى أنت ضد عبدالناصر، صرخ وقال يابوى.. أبداً والله، وأخذ يشير على من دفعوه ياولاد الكلب ياولاد الرفضى دنتم رجعية، انهال الجميع ضرباً وتكسيراً على هذه المجموعة، قلت للرجل اجرى بعربتك، وإلا قذفوها فى النهر، انسحب الرجل إلى جوار رصيف الكوبرى وراح يجأر بالبكاء ويهزى يابوى دول رجعية، أخذت المظاهرة تتمدد، فى بداية شارع قصر العينى بلغ عددها إلى ما يقرب من أربعين الف فرد، خرجت من تحت سيطرتنا، وإن ظلت يتردد فى جنباتها صدى شعاراتنا، فقط عند وزارة التموين سمعت من يركز على الثأر ممن ساقوا أولادنا إلى الهزيمة والعار، غير أن التجاوب معه لم يكن كبيراً.

بلغت المظاهرة مجلس الأمة، ونهايتها مازالت أمام كلية طب القصر العينى، كنت قد وصلت إلى المقدمة، تحلقت القيادات، أصر الجميع

على تقدم لجنة الأربعاء لمقابلة أنور السادات رئيس مجلس الأمة لابلاغة المطالب والرؤى الطلابية، حاول البعض أن يضيف اسمى لهذه المجموعة، إلا أن أغلبية مجموعاتنا رفضت هذا الاقتراح، وأصرت على عدم انضمامى، كان علاء حمروش قد نجح فى تضمين الوثيقة الجماعية للطلبة معظم أفكارنا.

فى هذه اللحظة استمرت أجزاء من المظاهرة تحيط بمجلس الأمة، غير أن غالبيتها اتجهت لمحطة باب اللوق، للالتحام بجماهير العمال القادمين من حلوان، انضممت أنا ومجموعاتنا لهذا الاتجاه كان ميدان التحرير أشبه ببحيرة هائلة من البشر، تصب كل المظاهرات فيه، بدا فى حالة تقترب من يومى ٩، ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧. اتجهت فروع هذه التظاهرات نحو محطة باب اللوق لخط القطار الاقليمى القادم من حلوان، سرت مع واحد من هذه الفروع، تفرقت المجموعات، وابتلعت حالة الاكتظاظ الجماهيرى الأطر التنظيمية للمجموعات المتماسكة.

فى شارع منصور أمام واجهة محطة باب اللوق، شهدت شابا ضخم الجثة، قوى الصوت، يهتف بشعر شعبى كله إثارة، تنضح من كل كلماته، أفكار العداء للثورة والاشتراكية، يدعو فقط للحرية، ولكن قدرته التهييجية كانت تبلغ ذروتها عندما يكرر لزمته الشعرية « ضيعتونا.. ضيعتونا» ووجدنا مجموعة من الأصحاء، وذوى الأبدان الضخمة، يتقدمون لرفع هذا الزميل، وفى لحظة اخذوا يجرون به نحو عربة شرطة «بوكس» وقذفوا به بداخلها، كان هذا الزميل هو المرحوم فرج فودة المعيد بزراعة عين شمس آنذاك. بعد أن جن الليل، أخذ المتظاهرون يتفككون، ويتشرذمون، وشرذمة وراء أخرى تتجه لمنازلها، بخاصة أن عدة مناوشات مع الشرطة كانت أخذت تتشكل فى منطقة باب اللوق.

تحلقت مع مجموعة من الزملاء شعرنا بالفخر هنأنا أنفسنا بالنجاح، وانصرفنا، ذهبت من فورى إلى مبنى مقر قيادة منظمة الشباب الاشتراكى، كان الأعياء قد أخذ منى قسطًا كبيرًا تذكرت أن مسمارًا برز من مؤخرة حذائى، وأذاقنى على مدى مسيرة اليوم طعم الآلام المبرحة، كان الدم يغطى كعبى، والجورب صار وكأنه قطعة قماش تستخدم كمنشفة للدم.

عندما رآنى عادل عبدالفتاح فى هذه الحالة تذكر أنه طبيب راح يضمد لى رجلى وانشغلت فى تنظيف نفسى ودق المسمار، بعد فترة إبتسم عادل؛ بسمة تجمدت على وجهه نظرت إليه بعمق وقلت له: أنت لاتصدق إلا بعد فوات الأوان أطرق بوجهه فى الأرض.

سردت حكايتى ختمتها بالقول، وهكذا انتهت مهمتى هذه عند هذا الحد سألت عن الأستاذ أحمد كامل لم أجده، بعد ذلك توجهت لمنزل شقيقتى بحى إمبابة والجهد بلغ معى أقصاه، تمددت على الفراش لم أستطع سرد ماجرى بعد فترة شعرت بحركة شقيقتى وهى تزيد الغطاء علَى وأنا نائم وتصحح من وضعى فى النوم، وأنا غير قادر على أن اتجاوب معها، طال نومى أكثر من المعتاد، ولكن عندما أدركت أننى تأخرت قمت فزعا ارتيدت ملابسى، وهرعت إلى الجامعة وصلتها يوم الأحد ٢٥ فبراير سنة ١٩٦٨ فى حوالى الحادية عشرة صباحا.

وجدتنى فى ساحة معركة تجرى من على الجانبين: الطلبة وقد تجمعوا فى فناء الحرم الجامعى، قوات الشرطة وقد حضرت بالمئات تقفل أبواب الجامعة وتمنع تجمع الطلبة، وتمنع الخروج قنابل الغاز المسيل للدموع غطت المكان، كنا أول مرة نتعامل مع هذا الصنف من الأسلحة، احتلت قوات الشرطة شارع نهضة مصر وشارع الجامعة، وميدان الجامعة، اعتلى

طلبة كلية الهندسة، أسطح منحنى كليتهم العتيق وأخذوا ينزعون الواح القرميد من السقف ويكسرونها إلى قطع من الحجارة، ودارت رحى المعركة، الطلبة يتسلحون بالحجارة والشرطة بالقنابل المسيلة للدموع والأسلحة التى تطلق فى الهواء.

كانت استفزازات قوات الشرطة واضحة للعيان، وبرز طابع عملياتهم، التى نفذوها على المبدأ العسكرى الشهير أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع» ولكن هجوم من على من، ودفاع مَنْ مِنْ مَنْ؟ هذا السؤال لم تدركه قيادات الشرطة. حاولت مع كثير من الزملاء تهدئة الأمور بين الطلبة إلا أن مبادرات قوات الشرطة تفوقت وبددت هذه المساعى، فى لحظات كنت استعدت حكايات زكى مراد عن قوات الشرطة التى تجمعت فى ذات المكان حول وبداخل حديقة الأرمان سنة ١٩٤٦ فى مثل نفس الشهر فبراير، وكيف أن هتافات الطلبة «الشرطة ويا الشعب ضد الاحتلال»، قد حولت حركة قوات الشرطة إلى جوار حركة الطلاب. أخذنا نعد الشعارات: الشرطة ويا الشعب لضمان الاستمرار... الشرطة ويا الشعب لتأمين الانتصار... الشرطة هى الشعب ... والشعب هو الثورة ... الشرطة ويا الشعب... على طريق الثورة... الشرطة ياطلاب... أخواتنا فى الكفاح... الطلبة ياقواتنا... طلائع النجاح.

راحت هذه الهتافات سدى، فقادة الشرطة، استمروا فى رؤية مايحدث من خلال فوهات بنادقهم، وراجمات قنابل الغاز المسيل للدموع.

فى الثانية عشرة والنصف كانت الأمور تزداد سوءاً، الطلبة يكرون ويفرون داخل الحرم الجامعى وداخل مبنى كلية الهندسة المواجه، وقوات

الشرطة أيضا تتقدم وتتراجع تحول ميدان الجامعة إلى ساحة معركة غبارها صار دخانا كثيفاً سحاباته تتوالى واحدة وراء أخرى، تحول ميدان الجامعة إلى ساحة معركة غبارها صار دخانًا كثيفًا سحاباته تتوالى، واحدة وراء أخرى وأرضيتها صارت أكواما من الحجارة وقطع القرميد المستخرجة من سقف كلية الهندسة. عندها تسللت من أحد الأبواب الخلفية للجامعة، وتوجهت إلى مبنى منظمة الشباب لكى أطلب من القيادات السياسية، أن تسحب قوات الشرطة أو توقف استفزازاتها حتى يهدأ الطلاب، وأنا فى الطريق اختلطت قطرات الدموع التى سيلها الغاز بالدموع التى أفرزتها عواطفى قلقا وحزنا على مايجرى، وأنا أجلس فى الحافلة المتجهة لحى الزمالك، لاحظ من يجلس إلى جوارى استمرار دموعى واجهاشى بالبكاء، ربت على كتفى وسأل فيه حاجة يابنى؟ أجبت فقط أنا منفعل لما يحدث بين الشرطة والطلبة. رد الرجل: ياابنى الطلبة عايزه الإصلاح، بس ده حال الشرطة تقف دايما مع من يحكم حتى لو كان الانجليز مفروض الريس يسحب الشرطة، جهدنا كلنا لازم يتجه لعدونا. دى الهزيمة ثقيلة، تحولت الحافلة إلى بؤرة ثورية تغلى بالنقاش والحوار السياسى الراقى حول أهمية الثورة، وضرورة التغيير والديمقراطية.

عندما وصلت إلى مبنى قيادة منظمة الشباب الاشتراكى فى الزمالك حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، قابلت عادل عبدالفتاح، ألححت عليه فى أن يدخلنى لأحمد كامل، أنكر وجوده علَى. طلبت منه الاتصال بالسيد / على صبرى لوقف حماقات قوات الشرطة حتى يهدأ الطلاب، تركنى فى الحجرة وحيداً، وغاب ورجع بعد الثانية يقول لى فيه قرار بتعليق الدراسة فى الجامعة والمدارس، تعالِ

نسمع القرار سوف يذاع فى نشرة أخبار الثانية والنصف، ما إن تأكدت من الخبر حتى عدت بأقصى سرعة إلى مبنى الجامعة وجدت الخبر معروفًا، وآثار المعركة واضحة، قابلت بعض الزملاء، ألح الجميع على أن أذهب لقريتى، انسحبنا لمقهى «أنديانا» فى ميدان الدقى، أخذنا نجتر ما مضى اختلطت مشاعر النجاح بمشاعر الفشل، واختلطت السياسة بأقنعتها أمامى، الشىء الوحيد الذى اتضح لى، الطبيعة الصراعية للسياسة، ذلك أن السياسة هى ممارسة السلطة العامة لحماية وتأمين المصالح العامة، غير أن المصالح العامة ليست أنساقا متجانسة منسجمة بقدر ماهى صراعات متداخلة. عندها أفقت على سؤال أخذ يهزنى حتى الأعماق: هل صبت حركتنا فى دعم مصالح الأغلبية لتوجيه السلطة العامة فى هذا النحو؟ أو أنها غير ذلك أى مجرد حماقة شباب؟

وأنا فى طريق عودتى سيراً على الأقدام لبيت شقيقتى فى شارع مجلس الأمة، أخذت أستعيد كلمات محمد خليل قاسم السياسة اتجاهات ومواقف، وحتى التعبير الوطنى له طرق عديدة واستعدت كلمات زكى مراد من اجتهد وأصاب له أجران ومن اجتهد ولم يصب له أجر واحد، فالحركة أساس الحياة، ولاأمل إلا فيمن يمتلكون القدرة على اتخاذ المواقف، واستعدت كراسة الطليعة: هناك فرق بين شعار استمرار الثورة، وشعار المحافظة على الثورة، الأول يفرض المشاركة والتحرك لصنع الأحداث، والثانى يخلط المصالح الذاتية بالأهداف العامة فيتجسد هذا الشعار فى الدفاع عن السلطة، أى سلطة، طالما أن المصلحة الشخصية لم تمس، فرافعوا هذا الشعار لاعلاقة لهم بالثورة، كل علاقتهم ترتبط بمصالحهم الذاتية، والثورة لديهم هلى السلطة القائمة والسلطة القائمة هى الواقع الأمثل لتلبية مصالحهم، إذن فلابد أن

يحافظوا على ذلك أخذت أحلم بأن أذهب إلى قريتى، أقابل اصفيائى، وننطلق فى الليل نسير وسط المزارع، نغسل همومنا بالهواء المنعش، والطبيعة الساحرة،ونغسل أفكارنا بملامسة مصالح الكادحين، عزمت على التوجه للقرية غداً أو بعد غدٍ إلى أن تستأنف الدراسة.

عندما عدت إلى المنزل تذكرت أن عنوانى مدون على هذا المنزل، دفعنى إحساس داخلى بضرورة الذهاب إلى منزل شقيقتى الصغرى فى حى الوايلى الكبير. أخبرت شقيقتى الكبرى بأحاسيسى ، دفعتنى للخروج، تحلق بى أبناءها ممن فى سنى ، خرجوا معى فى ألفة وصحبة حتى ضمنوا السلامة لى.

[١٣]
الاحتكاك يزيد الصلابة:

فى صباح يوم الاثنين الموافق ٢٦ فبراير سنة ١٩٦٨ ، صحوت من نومى متأخراً عكفت على عملية ترميم لجسدى بعد إنهاك الأيام والليالى الماضية، وأخذت أتأهب لتجهيز نفس للسفر إلى الاسكندرية مساء نفس اليوم، حتى أتمكن من قضاء عدة أيام فى قريتى بمنطقة أبيس المجاورة للأسكندرية. كان علىَّ أن أمر على منزل شقيقتى بامبابة، لآخذ حقيبتى، كانت شقيقتى الصغرى هى الأقرب إلىَّ نفسيا فهى التى شاركتنى مسيرة اليتم المضنية، كما شاركتنى مسيرة الحنية الغامرة التى لفنا بها أشقائى وشقيقاتى الذين واللائى يتدرج الفرق السنى بينى وبينهم من ٢٧ عاما، بينى وبين شقيقتى الكبرى، و ٨ أعوام بينى وبين شقيقتى الصغرى هذه بترتيب تنازلى لايختل فرقه عن العامين ونيف،

عبر سلسلة من الأشقاء بلغت ١١ شقيقا وشقيقة، من أبناء والدىّ رحمهما الله فى غمرة انهماكى هذا، مر على واحد من أبناء شقيقتى الكبرى، وانتحى بى جانبًا وأسر لى: أنت مطلوب فى البوليس وأضاف: أسامة الغزالى مر عليك فى الصباح للاطمئنان عليك، ثم أبلغنا أنه علم بأنك مطلوب القبض، عليك وقال: إن الكثير قد تم القبض عليهم فغير بتوع اللجنة اللى اتشكلت فى الجامعة وكذلك بتوع جامعة عين شمس الذين توالى القبض عليهم منذ السبت، وتم القبض على عدد من الزعماء ومنهم صديقك معتز الحفناوى فى الليلة الماضية.

أعملت شقيقتى الصغرى، وأخذت معى ابن أختى، وذهبت إلى منزل خالته فى امبابة، وأخبرتهم كذلك ثم جهزت حقيبتى، وذهبت إلى مقر اللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكى بشارع حسن صبرى بالزمالك، وأبلغت ابن شقيقتى: إذا جاءت قوات الشرطة فى طلبى من منزلكم، أبلغوهم بمكانى فى مقر المنظمة.

فوجىء عادل عبدالفتاح بوجودى بحقيبتى، قلت له إن عنوانى السياسى هو منظمة الشباب الاشتراكى، ومن يريد أن يقبض على فها أنا مستعد أطرق عادل وقال .. وهو كذلك!!

طال انتظارى حتى السادسة مساءً وقد قضيت الوقت مرحًا، مبتهجًا أتبادل النكات، جاء الجميع لرؤيتى ومصافحتى، ولتجاذب أطراف الحديث معي إستعدت تحركاتى منذ النكسة، تذكرت مع البعض، جولاتى للضغط لتحريك المنظمة حركة سياسية مستقلة، وبالمبادرة الذاتية لها، لإبراز موقف الشباب الاشتراكى من قضية السلطة العامة، وتواصل مسيرة الثورة وكيفية تجهيز الاستعدادات لإزالة آثار العدوان.

وحوالى السادسة مساءً، جاءت عربة فيات بيضاء، بعدها جاء لى

عادل عبدالفتاح وقال أهم شرفوا، معاهم يامتهم، وضحك وضحكت قادتنى السيارة التى بها ثلاثة ضباط غير سائقها إلى شارع جابر بن حيان بالقرب من الجامعة فى حى الدقى، لدى دخولى مبنى إدارة المباحث العامة بالجيزة، وجدت إجراءات غير عادية فى انتظارى، فالكل حاول رؤيتى، ووجدتنى مساقًا إلى حجرة رئيس الإدارة العامة، بادرنى الرجل بالسؤال عن اسمى أجبته. قال: «أنت معنا لفترة، سوف يتم التحقيق معك عن مسئوليتك الرئيسية فى أحداث هذا الاسبوع، وسوف يجرى التحقيق فى مكان آخر. وأنت معنا هنا فقط لبعض الوقت مش أكثر من ساعة أو اثنتين. لو احتجت أى مطالب شخصية مأكل أو مشرب، أطلب كما تريد وأشار لمن معي أن يقتادنى لغرفة أخرى».

تزايدت علىَّ أوراق البيانات الشخصية، والأسئلة حول هذه البيانات بعد العاشرة مساءً نُبه إلىَّ أننا سوف نذهب لمكان آخر، بعد أكثر من ساعة تم إنزالى للدور الأرضى، واحكام عصابة على عينى، وادخالى عربة بوكس، ثم بدأ السير.

وأنا فى العربة معصوب العينين. تذكرت «لعبة دار مين دى» التى كنا نلعبها فى طرقات قريتنا فى المنوفية، حيث كان يقع الخيار على صبى منا، يتمدد على مصطبة عالية، ثم يأتى أربعة أتراب يحملونه على أعناقهم فى وضع الراقد أفقيا بموازاة الأرض، ويقوم خامس بالضغط بكلتا يديه على عينى الراقد ثم يبدأ الصبية الحاملين للراقد فى اللف والدوران، والمشى به وبعد مدة يقوم من يضع كلتا رجليه «أى رجل الراقد» على كتفه «أى الحامل» بملامسة قدمى الراقد بجدار، ويسأله دار مين دى؟ عندها يُعْملُ الراقد معصوب العينين كل حواسه السمعية

واللمسية ويشحذ ذاكرته ليجيب دار عمي ابراهيم، أو دار أبومصطفى، أو دار روحيه، فإذا أصاب، أعد كاسبًا ونزل، وانضم لفريق الحاملين، وشغل موقع العاصب للعينين بكلتا يديه، وإذا خسر أعيدت معه الكرة مرة ومرات حتى يصيب، أخذت أحدد وأنا معصوب العينين في أى الشوارع أسير غير أننى فشلت، فقط، وفى نهاية الطريق، أحسست بأن السيارة تصعد مرتفعًا، فتوقعت أن أكون فى سجن القلعة، أخيرا عرفت أننى فى دارعم صلاح الدين وعم محمد على الذى ننطقه فى قريتنا عم محمد أبوعلى.

فكت العصابة من على عينى، وانتظرت بعض الوقت ثم دلفت من بوابة تأكدت منها أننا فى مكان أثرى، إذن نحن فى سجن القلعة، سألني النقيب رضا عن اسمى. فنطقت اسمى بعزة وأنفه، وضغطت على حرفى النهاية فى أحمد، وشرف ، ابتسم النقيب رضا، الذى حرص فى كل مرة تتاح له، أن يأتى لزنزانتى أن يقلد نطقى لأسمى ويزداد فى كل مرة فى إبراز مقدار الكبر والأنفة، فى نطق أحمدْ شرفْ.

أدخلت فى الزنزانة الأولى وهى زنزانة انفرادية، وجدت بها سريرا قمت بتغيير ملابسى، ورحت فى نوم عميق.

مع خيوط الصباح الأولى وجدت من يدير مفتاحًا بباب الزنزانة جنديًا شابًا أحسست أنه صاحب وجه أليف لى ركزت فكرى.. أدركت أنه زميل فى المدرسة الاعدادية وعرفت أنه بلدياتى،طلب منى أن استعد للدخول للحمام. فرغت من الاغتسال قدم لى إفطارا جيداً، التهمته، وأخذت أحدق فى فراغ الزنزانة، التى لاتزيد على مساحة « الحاصل» حجرة اللبن فى قريتنا التى كانت تتسع بالتيلة لأمى، وهى ترص الجبن والزبد والقشدة وشوالى اللبن الحليب والرائب. وأخذت استعيد كتاب

صلاح نصر«الحرب النفسية» وأجهز خطتى فى الدفاع عن نفسى، وأضع مسار أقوالى بتحديد واضح وشديد فى حوالى العاشرة صباحا، جاء النقيب رضا، وهو رجل ربعه، قصير القامة نسبياً ممتلىء الجسم، وناداني بطريقة التقليد، وبخليط من التهكم والاعجاب قادنى إلى مكتب مواجه، دخلت فوجدت ثلاثة رجال: العميد حسن أبوباشا، المقدم فؤاد علام، النقيب زكريا «لااذكر باقى اسمه» استمر معى طاقم التحقيق هذا لمدة لاتقل عن عشرة أيام، وبواقع لايقل عن عشر ساعات فى اليوم الواحد.

وكانت تجربة مهمة، طابعها العام، أن الاحتكاك يولد الصلابة وأن الصلابة تنبع من جوهر المواقف، والتمسك بالمبادىء وهاهى ذى التفاصيل منذ اللحظة الأولى فى التحقيق، أدركت أهمية فريق التحقيق معى، ذكاء بل توهج وذكاء، قائده ،قدرة الرجل الثانى فيه على المساندة وتقديم الدعم لقائد الفريق، تودد الرجل الثالث لى، وكأنه يريد أن يقنعنى بأنه ملاذى عندما يحمى الوطيس وتشتد نيران الكر والهجوم علَى.

وبعد قليل أدركت أن مالدى فريق التحقيق معى، نتف معلومات، وأن العميد حسن أبوباشا، يبالغ فى توظيف نتف المعلومات هذه، ليوهمنى بأنه العالم ببواطن الأمور، والمطلع على كل الأقدار، غير أننى تيقنت أنه يسند نتف المعلومات هذه ويلفها بمعلومات كاملة ومتاحة، كمكان أسرتى وأولاد شقيقتى، وأسمائهم والعنوان وبعض الأقارب حتى يوهمنى بموسوعية معلوماته عنى لم يهتز لى وتر، وأخذت أدور بهم من احتفالات يوم ٢١فبراير، إلى المسيرة الصامتة، وإلى شرح خطتى وتكرار معانيهاوإلى هدفى فى إعادة اللحمة بين القيادة الثورية،

والقاعدة الثورية عبر القيادات البيروقراطية، التى تحافظ على مصالحها وتعطل أهمية استمرار الثورة وتفجير الطاقات الثورية للمخلصين والأكفاء والقادرين على دعم الثورة واستمرارها من باب القناعة والمشاركة النضالية، والبعد عن الهوى والغرض الشخصى والذاتى.

ضاق فريق التحقيق وقائده بمحاصرتى لهم، فى تلك المساحة الموضوعية التى تشرح دائما أهمية وتأكيد الدور الشعبى فى استمرار الثورة.

فى اليوم الثانى، كَّر حسن أبوباشا على وأكد أن كل المعلومات وكل اعترافات الطلبة المقبوض عليهم تؤكد أننى المدبر، والمحرض على التجمهر، ولولا دورانى كحلقة وصل بين الكليات ماحدث ماحدث. أكدت له معلوماته فى دورانى كحلقة وصل وأكدت له حضورى ثلاثة احتفالات، وتأكيدى على أهمية الاحتفال بذكرى يوم الطالب العالمى ودلالته المصرية، ودور الجامعة فى مسيرة الكفاح الوطنى وأهمية مشاركتنا كساسة فى معارك الوطن، وأضفت ورغم ذلك لم يكن هناك ميل للحركة لدى الطلاب إلا بعد سماعهم عن تصدى قوات الشرطة لمظاهرات عمال حلوان وقبل أن نعرف حجم عدوان الشرطة كان مسعانا كطلاب أن نعقد مؤتمراً داخل قاعة الاحتفالات الكبرى، فلما لم يتيسر لنا ذلك باعطائنا القاعة الكبرى، طالبنا من خلال اتحاد طلاب الجامعة بمدرج العميد بدر فى كلية الحقوق فسدت علينا المنافذ.

دارت كل محاولاته لاعتصارى ولإدانة دعوتى للمسيرة الصامته، ورددت كل هجماته وأوضحت أن هذا حق شرعى، مثل رد الفعل الأخف بل الأقل من الحد المطلوب لأحداث يوم ٢٠ فبراير وإعلان أحكام الطيران، وأحداث ٢١ فبراير وقيام وضرب مظاهرات العمال السلمية.

حاول حسن أبوباشا أن يدين المنظمة فى الأحداث، واستمد حيثيات ادانته من انتمائى كمتهم أول، وكمحرض على التجمهر للجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكى وأضاف: وكذلك المتهم الثانى محمد فريد حسنين عضو قيادى، والمتهم الثالث رشيق رفعت عضو لجنة مركزية فى منظمة الشباب الاشتراكى.

أدرت دفاعى، على أن تحركى تم فى إطار طلابى، وبصفتى طالبًا، ولكنى طالب يدرس السياسة ويعمل بالسياسة، فالوسط السياسى الطلابى هو مجال الحركة الطبيعية ولكن المنظمة كتنظيم شبابى ليست لها علاقة بالأحداث من قريب أو بعيد.

أرهقتنى لجنة التحقيق هذه، وأرهقتها لمدة ستة أيام متوالية وكل الكر والفر يدور فى مساحة محدودة لم تتجاوز ماحددته من خطوط، غير أن ضيق الوقت بين فترات التحقيق الطويلة، وضيق الزنزانة التى لاتزيد على حجرة الألبان فى دارنا، ورائحتها التى تجبرنى على تذكر رائحة الحاصل هذا حيث رائحة خمائر اللبن، ورائحة الرطوبة لم تمنعانى من إنطلاقة الفكر، بل ومتابعة الحياة بالخيال، ففى يوم الخميس ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٨ كان أحد شباب عائلتنا يحيى عرسه فلم أمنع نفسى من متابعة أحلام الشباب لهذا العرس فى غيابى داخل السجن، ولم أمنع نفس من متابعة أحلام الشباب، والغوص فى بحار العاطفة لمن أهوى وأحب. كما لم يمنعنى هذا الضيق الزمنى، وهذا الضيق المكانى من متابعة الفكر فى السياسة. وكم وجهت عتابًا تلو الآخر لجمال عبدالناصر، وأنا أمرح فى خيالى وكم التمست الأعزاز له، وهو محاط بمراكز للقوى، وكم جلست أفكر فى الأحداث الماضية، ويوم القبض علَى. كنت قد تابعت فى سنة ١٩٦٢ حادثة مقتل الرئيس الأمريكى

جون كنيدى ولا أدرى كيف ربطت بين الاسراف فى التحوط الأمنى فى مبنى مباحث الجيزة وإلى الطريق لسجن القلعة وبين هذه الحادثة، ورحت بخيالى استحضر التناقض للأوضاع النفسية التى يغط فيها رجل الأمن، ومن يحمله تهمة الإخلال بالأمن وأقارن: هل هذا الرجل الذى يبدو متصرفا فى حياة من يحبون أوطانهم، تشغله قضية حب الوطن، أم أن هذا حال السياسة التى ترتدى الاقنعة فالوطنى متهم، والموظف يتهم.

لقد بدأ يطل أمامى من فراغ الزنزانة الضيقة، ذلك القناع الذى يتلبس السياسة فى بلادنا أى تلك السياسة التى يديرها رجال الأمن. وكثيراً ماتلح علَّى هذه القضية، وفى فترات السجن كثيراً ماأكتشف أن حصة رجال الأمن فى ممارسة السياسة فى بلادنا أكبر من حصة الساسة أنفسهم. بدأت نواة هذه الفكرة تتبلور أمامى فى اليوم السابع للقبض علىَّ.

فعلى غير العادة، حيث كان يحضر فريق التحقيق معى برئاسة حسن أبوباشا الساعة العاشرة صباح كل يوم جاء العميد حسن أبوباشا وفريقة إلى فى الثامنة صباحاً، فى هذا اليوم قطع علَّى هذا الاستدعاء برنامجى المعتاد فى رسم مسارات الأحداث، ومتابعة الحياة بالخيال عندما مثلث أمام لجنة التحقيق، كانت ملامح أوجههم تطفح بعلامات التجهم والتقطيب حتى النقيب زكريا ذو الوجه الباش صار وجهه مكفهراً وقلبت سحنته.

بهدوء سأل حسن أبوباشا: هل قرأت صحف اليوم يا أحمد.

أجبت الصحف ممنوعة علىَّ.

سأل: هذا ليس صحيحاً، أطلبها سوف تحضر لك.

قلت لقد طلبتها بالحاح فى كل الأيام الماضية، وعرفت أنها ممنوعة علىَّ، قال العميد حسن أبوباشا: ما علينا وقدم لى صحيفة الأخبار، وقال اقرأ هذه الصحيفة، أطلعت علي الصفحة الأولى، وهممت بفتح الصحيفة لمتابعة القراءة.

بصوت أسد زأر أبوباشا، ألم تر العنوان «المانشيت» وبطريقة زخات الرصاص التى تنطلق من مدفع الكاتيوشا: «اسرائيل قررت ضم الأراضى المحتلة للقوانين الاسرائيلية» لقد قامت اسرائيل بفعلتها تلك، التى ما كانت لتستطيع أن تقدم عليها لولا متابعتها لاهتزاز الجبهة الداخلية فى مصر، كيف اهتزت الجبهة الداخلية؟ بفعل المظاهرات وأعمال التجمهر، من الذى فجر هذه المظاهرات وحرض عليها؟ أنت، إذن أنت السبب فيما ترى.

لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بقهقهات عالية. انتفض العميد حسن أبوباشا وكاد يوجه لى لطمة على وجهى، غير أن استمرار ضحكى فتر إلى ابتسامة مُصرَّة.. وقلت بسيطة إذن حُلت مشكلة إزالة آثار العدوان فالأمر أصبح بيدى، جلس الرجل، وسأل وهو يهوى بكله وكليله على المنضدة فى ضربة قوية، أحدث صوتا كأنه فرقعة قنبلة وأحدثت أثرا كاد يهوى بالمنضدة ويحولها هشيما: أنت بتضحك بتهرج حضرتك فى وقت كله جد، بتدلع وتهزر فى وقت الجد، فى هذا الوقت العصيب.

انتفضت بصوت مرتفع وقلت من الذى يهرج ياسيادة العميد أنا أم أنت، أنت تقول أن قرار اسرائيل أصبح فى يدى فلماذا تبتأس إذن، الأمر غاية فى البساطة فى الحال سوف آمر إسرائيل أن تنسحب من الأراضى المحتلة، وبذا نحل مشكلة ازالة آثار العدوان. هل تحلم بأكثر من هذا.

فى لحظة انطلق المقدم فؤاد علام، وكأنه اعتلى قمة منبر باسق فى ساحة الجامع الكبير، وأخذ يقول: عن ثورة عبدالناصر وينادينى ثورة عبدالناصر يا ابن الفلاحين الذين انتفعوا بالإصلاح الزراعى، ثورة عبدالناصر ياطالب الجامعة التى ماكنت تحلم بالدراسة بها، أو الانتماء إليها لولا الثورة. هذه الثورة لازم نحافظ عليها، لازم نحميها من الرجعية من الاضطرابات لازم نحافظ على الاستقرار، الاستقرار هو اللى يحافظ على الثورة.

في برهة أدار عقلى شريطًا كشريط الكاسيت الذى لم نكن قد عرفناه بعد ،ميزت فيه بين الشعارين: الحفاظ على الثورة- واستمرار الثورة، واستلهمت المعلومات الفنية لكتاب صلاح نصر «الحرب النفسية» وقمت بهجوم مضاد، وبخطبة منبرية لاتقل فيها نبرات الصوت العالية عن نبرات صوت فؤاد علام رحت أقول: الثورة لازم تستمر إزاى تستمر، إذا التحمت القيادة الثورية، بالقواعد الثورية كيف يتم هذا الالتحام بالمشاركة الشعبية، بتشجيع المبادرة الشعبية بالثقة فى الشعب، بتربية الكوادر على استقلالية الحركة، بتربية الضمير الثورى والإرادة الثورية.

ضرب أبوباشا على المنضدة وقال: خلاص يا أحمد خلاص يافؤاد أنتو هتقلبوها «مندبة»، ومال للهدوء وقال قوم يا أحمد روح محبسك، عندما دخلت الزنزانة انتابتنى نوبة ضحك هستيرى، صحوت منها على دعوة مصرة من عقلى للنظر فى الأمر، أخذت أتساءل بينى وبين نفسى، هل بمثل هذه العقليات تدار المصالح العامة فى مجتمعنا؟ هل بمثل هذا التفكير يتم وضع المقدمات فتكون النتائج كالتى قادتنا إلى هزيمة يونيو الثقيلة؟ أين أنت ياجمال؟ كان المشير عبدالحكيم عامر

رفيقًا وصديقًا لك فاستمر فى موقعه لتاريخه وعمق علاقتك به؟ لكن لماذا يجلس هؤلاء الرجال فى هذه الأماكن؟ لماذا تكون السلطة العامة بيدهم؟ اسلمتنى هذه الأسئلة الحائرة لنوم عميق لم أفق منه إلا على ادارة المفتاح فى باب الزنزانة، ليقدم لى بلدياتى، زميل المدرسة الاعدادية وجبة الغداء.

بعد يومين جاء الاستدعاء لى فى وقته الساعة السادسة مساءً غير أن الحارس أمرنى بأن ارتدى أحسن ماعندى وجدت العميد حسن أبوباشا فقط فى انتظارى لم يصطحب طاقمه المعتاد للتحقيق معى ، قال لي تعال معي يا أحمد عبرت بوابة النقيب رضا، ركبت معه سيارة فيات بيضاء، فى صمت مطبق أنتهى طريقنا إلى مبنى وزارة الداخلية مرت السيارة من أمام منزل شقيقتى الكبرى فى شارع مجلس الأمة أمسك بى العميد من ذراعى ركبنا المصعد دخلنا إلى حجرة مكتب فخمة وواسعة، وجدنا الجالس خلف المكتب يتحدث فى الهاتف، قام بجسمه نصف قومة، أشار لنا بالجلوس، ضغط على زر جرس بجواره، حضر خادم قطع مكالمته لثانية وبصوت آمر وبطريقة مستفزة شخط فى تشرب ايه؟ جمدت نظرتى إليه، قال بسرعة هات له شاى.

إلى أن انتهت المكالمة التليفونية أدركت أننى أجلس فى مكتب مدير المباحث العامة فعلى الجدران، وجدت صور من تولوا هذا المنصب متتابعة وتواريخ بداية ونهاية عمل كل مهم تحت صورته، ووجدت الصورة الأخيرة للرجل الذى أمامى أنه اللواء حسن طلعت بالطبع كانت الصورة الأولى لمصرى هو سليم زكى من فتح كوبرى عباس على الطلبة سنة ١٩٤٦ ، انتهت محادثته التليفونية وبسرعة وبصوت زخات الكاتيوشا، أخذ يقول: مين وراك مين وراك قول ياواد أنت، مين

واقف وراك أذهلتنى مقدرة الرجل على الانطلاق والسيولة فى الكلام والصراخ، وقلت ورائى فى ماذا ياأفندم؟. قال: يعنى ما انتش عارف فى الهوجة والبهدلة اللى جرت فى البلد، فى تحريك الغوغاء والحثالة. انتفضت عروقى، وغلى الدم فيها، وقلت بصوت عال: لاتقل على الشعب أنه غوغاء فلولا الشعب ماوجدت مكانك على كرسيك هذا. انتفض الرجل واقفا، وهو يهزى: اللى حرق وخرب اللى أشعل النار فى سينما رمسيس ميبقاش غوغاء شعب آيه ياأبوشعب دول غوغاء وحثالة كمان. قول: ياواد أنت مين وراك؟ مين وراك؟. أخذت أنظر إليه بصمت لاسع.

هدأ الرجل من روعه واعتدلت نبراته، وقال :الشائعات كثير أمريكا صرفت ٨ ملايين دولار لاشعال الجبهة الداخلية واشتعل مرة أخرى: قولى من وراك؟ أجبت بهدوء ياأفندم لو فعلا عايز تتهمنى قول لي الاتحاد السوفيتى دفع كام، يمكن أكون واخذ حاجة، أما من أمريكا فكيف يكون ذلك؟ استطرد الرجل وكأنه تذكر شيئا: إحنا فعلا عملنا تحريات واسعة عنك وأنت فعلا ابن ناس من جماهير الثورة، واشتعل مرة أخرى لكن مين يعرف وتحرق صوته وأخذ يصيح: قول مين دفعك للتحريض مين وراك أجبت بهدوء فى محاولة لتقديم دفاعى السياسى المعهود، وقلت مستهلا حديثى: ياأفندم دا تقدير موقف منى القيادة... استشاط اللواء حسن طلعت غضباً.. قطع استرسالى وتداخلت نبرات صوته، وتداخلت كل المعانى فى كلامه، وأخذ يقول: تقدير موقف!؟ تقدير موقف!؟ منك ياواد إنت؟ ياحتة عيل؟! إنت بتقدر موقف مصر، مصر كلها؟ مصر أيه، الأمة، العربية كلها؟ إنت ياواد الزاى. دا أنا حسن طلعت مدير المباحث العامة اللى عندى جهاز فيه آلاف واللى

أستطيع أن أدخل على جمال عبدالناصر في غرفة نومه في أي وقت ليلا.. لا أستطيع أن أقدر موقف بيتي، علىّ الطلاق لااستطيع أن أقدر موقف بيتي تيجي إنت ياواد يامجنون أنت وتقول تقدير موقف، واستدار إلى حسن أبوباشا ، وسأله ياأبوباشا : إنتوا بتعاملوا الواد ده الزاى . دا واد ياعبيط، يابيستعبط، أنت تذله ياأبوباشا دا أنا هأطلع عين اللي جايبك طيب أنا مش هخلي أهلك يفرحوا بتخرجك من الجامعة، فعلا لن تتخرج من الجامعة، تقدير موقف، دا أنت مجنون...

قطعت عليه هزيانه وقلت : لم أكن أعتقد أن هناك من يهز إيماني بالثورة، لكن مثلك يهز إيمان بلد بأكملها، ومع ذلك ولأني ثورى أنا لك بالمرصاد، يا أنا يا أنت في البلد دى!

تحولت غرفة مكتب مدير المباحث العامة إلى ناصية حارة في بولاق أبوالعلا نظر الرجل لى مليًا وقطع صياحة لبرهه، وانتفض واقفاً، ووجدته يتحسس جيبه أغرورقت عيني بالدموع، وأنا أواصل هزياني، يا أنا يا أنت في البلد دى واكررها، أشار لأبوباشا خذ هذا المجنون من أمامي قبل ماصوره قتيلا أسرع ياأبوباشا.

وحسن أبوباشا يردد وقد اختلط كلامه حاضر ياافندم يلا يا أحمد والله دا وطني ... والله دا وطني... وظل يردد ذلك لى حتى عدنا إلى باحة القلعة دلفنا من بوابة النقيب رضا، ابتسم لى وحرك شفتيه ممثلا من وراء ظهر العميد أحمدْ شرفْ.

أمرني أبوباشا أن أظل معه، تمدد على كرسيه، وقال: سوف أدعوك لمشاركتى على العشاء اليوم قام وقال: أنا عزمك على أكلة كباب حتى ننفض هذا التعب الذى تسببت فيه اليوم لنا. بعد ساعة كنا نأكل ونتسامر عندما دخلت الزنزانة قرب الواحدة من صباح اليوم التالى، لم

يكن بى أى ميل للتفكير رحت أطلق العنان لخيالى فى متابعة كل ماهو جميل فى الحياة حتى أخرج من هذه الزنزانة الضيقة إلى آفاق الحياة الرحبة.

فى الأيام التالية قلت ساعات التحقيق معى، وفى احدى الأمسيات استدعانى حسن أبوباشا وأمر بنزولى إلى العنبر الذى يوجد به المحبوسون من الطلبة وتم اسماعنا إعادة لخطاب الرئيس جمال عبدالناصر الذى القاه فى حلوان فى الأسبوع الأول من مارس سنة ١٩٦٨ والذى برأ فيه ساحة الطلاب، وفسر حركتهم على أنها تدخل ضمن حركة رد الفعل لأحكام الطيران ورغبة منهم فى التغيير الثورى، وأن كل القيادات الطلابية قيادات وطنية وينتمى معظمها لقواعد تحالف قوى الشعب العاملة.

وجدنا بين أنفسنا مجموعة من ضباط المباحث العامة راحت تدير نقاشا حول ضرورة حماية الثورة، أذكر منهم النقيب عصام الوكيل الذى اشتبكت معه فى مشادة تدور حول: ضرورة التفريق بين شعار المحافظة على الثورة والاستقرار وبين استمرار الثورة والتغيير.

سهرنا الليل كله، قيمت مع محمد فريد حسنين سلوكه الأهوج، والذى انطلق من اندفاعة ليبرالية كادت أن تصب فى تغذية اتجاه التغيير الرجعى أو التغيير إلى الخلف يوم ٢١ فبراير وصف لنا طلاب جامعة عين شمس الأحداث من موقعهم انتحى بى صديقى معتز الحفناوى وأسر لى أن ضغوطا مباحثية قوية جرت على الطلاب المحبوسين من أجل تجنيدهم أمنياً تحت شعار أن الثورة ثورتنا ولابد من المحافظة عليها، أخذنا نستعرض الأسماء وجدنا أن من استجاب لذلك يقرب من نصف الموجودين إن لم يكن أكثر، اتفقنا على ضرورة الاحتياط فى التعامل،

فرجال اليوم، ليسوا هم بالتمام رجال الأمس القريب.

فى اليوم التالى فكت كل القيود التى فرضت علينا وأصبح حق التجوال متاحا فى باحة السجن، أهم ما صادفنى فى هذا اليوم هو التعرف على اللواء السجين حمزه البسيونى، مدير السجن الحربى سابقاً، والاسم الذى كان مجرد ذكره يكفى لارتعاد الفرائص وجدته شخصية مهزوزة بل مسطحة، يدعى الطيبة وأنه كان عبد المأمور وأنه لعب دوراً وطنيا مهماً، غير أنه شأنه فى ذلك شأن كل الطغاة والمعذبين رجل إمَّعَة يعانى عقدا تستطيع أن تلمسها من أول نظرة، فهو دائم الحديث عن نفسه، لديه عقدة المحارب القديم، لم يستطع هذا الرجل أن يكتسب تعاطفاً أو احتراماً من أحد بل كان السؤال الذى وجهه الجميع له، هل عملت حساب مثل ذلك اليوم، الذى توجد أنت به فى السجن؟ كان يضحك ويجيب بالتأكيد لم اعتقد ذلك. سأله أحدنا هل ترى السجن بعين السجين غير السجن بعين السجان؟ نعم، ولوعدت لمكانى لأصلحت أحوال السجن.

لم يقنعنى مثل هذا الكلام فَهؤلاء الموظفون تتلبسهم حالة من الإحساس بالديمومة فى عملهم، تجعلهم يفقدون صوابهم، ويفتقدون القدرة على الاستجابة لضرورات العدل، أو حتى الحياة لمن تقع سلطتهم عليهم، ووجدتنى اتذكر حكمة أبى الخالدة التى كان يردها فى كل مناسبة لو كان ذراعك عسكرى، اقطعه. ويبدو أن هذه حكمتى الخالدة أيضا: ولفظة عسكرى هذه تنصرف فى المعنى الشعبى على رجل الشرطة الذى يمثل السلطة، ويمثل طغيانها على الودعاء من الشعب، ولايقصد بها جندى القوات المسلحة أو الشرطة الذى يدافع عن الوطن عن العدالة كحق أصيل للناس. فى مساء ذلك اليوم سرت شائعة قوية

فى السجن تقول باقتراب ميعاد الإفراج عنا، تأكدت هذه الشائعة ليلا، فى صباح اليوم التالى، جمع كل الطلاب الذين كانوا بالسجن ونقلنا إلى مبنى المباحث العامة فى لاظوغلى» وأدخلنا قاعة الاحتفالات بعد قليل جاء اللواء حسن طلعت ومع جهازه ألقى علينا محاضرة عن جرم فعلتنا، ولكنه التمس عذرا لنا من اضطراب المشاعر الوطنية فى هذ ه الظروف، ألمح لنا بضرورة التعاون من أجل الحفاظ على الثورة، انتقل من التلميح للتصريح، أثنى على من استجاب لذلك وعرض تلميحا ببعض الموتورين، مع تركيز نظره إلىَّ.

بعد فترة جاءت ورقات البيانات الشخصية أو مايسمى بوثيقة التعارف، ملأها البعض تفصيلاً وراوغ الآخرون، قبل عصر اليوم كنت أعدو إلى الرصيف الثانى حيث توجهت لشارع مجلس الأمة وعلى بعد مئات من الأمتار استقبلنى أهلى بترحاب شديد، وراحت شقيقتى تبكى، وتستحلفنى بالله أن ابتعد عن السياسة، تذكرت عبارة الشيخ محمد عبده: لعن الله السياسة وساس ويسوس.

ابتسمت وقلت بينى وبين نفسى ما أحلى ساعات النضال من أجل الوطن. فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى القرية: جاء كل الحكماء والساسة لزيارتى، عتب الجميع علىَّ وقالوا: هل هذا وقت مناسب للتظاهر ضد الحكومة؟ لماذا اشتركت يارجل ياوطنى فى التصدى لحكم عبدالناصر؟

أوضحت الفرق بين الأفكار والشعارات شرحت وأسهبت، فى أن حركتنا لم تكن ضد عبدالناصر، بل كانت لنصرة عبدالناصر، ولعقد اللحمة بينه وبين الشعب من جديد تفهم الجميع كلامى قال الشيخ سيد أبوخليفة ياه دا الإذاعة لخبطت كل شىء أمامنا، فعلا أنت نورتنا

ياأستاذ لابد حقا من التغيير واستمرار الثورة، أمن الجميع على كلامه عندما اقتربت ساعة السحر انفض الجميع من حولى وخلدت إلى نوم عميق.

فى ٣٠ مارس القى عبدالناصر بيانه الشهير باسم هذا اليوم كوثيقه للتغير الديمقراطى أو للإصلاح الديمقراطى، رحبت بهذه الوثيقة، وقلت لعل إعادة الاتحاد الاشتراكى تأتى بالثوار، ولعل الحزب الاشتراكى يأخذ مكانه، ويشرع فى بنائه بطريقة جاده، غير أن الرياح جاءت بما لاتشتهى السفن، فاختيرت لجنة الإشراف على إعادة بناء الاتحاد الاشتراكى من القاعدة للقمة، ومثل الشباب فيها، عبدالحميد حسن، أى من خارج دعاة المحافظة على الثورة، ومن باب أولى ضد دعاة شعار استمرار الثورة والتغيير الجذرى أو الثورى، عندها ادركت كم هى معقدة قضايا السلطة!؟ واكتملت الصورة أمام ناظرى فكما أننى لم أستطع اكتساب السياسة على النهج الوطنى من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، لم أستطع أن اكتسب السياسة على النهج الثورى من منظمة الشباب الاشتراكى، ولامن أجهزة النظام الرسمية وكان لزاما على عندئذ أن أجد فى البحث عن مدرسة سياسية أخرى تجسد أمامى مصالح غالبية المجتمع ومصالح الوطن، بطريقة تتسم بالاستقلالية وباحياء المبادرة الشخصية لدى لم يكن همى البحث عن تلك السلطة التى تعنى بتكريس المصالح الخاصة على أنها المصالح العامة، ولم يخيل على أبدا هذا المنطق المراوغ الذى يدعى ضرورة أن تتمسكن حتى تتمكن، أو ضرورة عدم الابتعاد عن السلطة لأن مصالح الناس اليومية تحتاج منك هذا الاقتراب فمصالح الناس واضحة ولايستطيع الدفاع عنها من يلبسون الأقنعة انهم فقط يدعون ذلك لتثبيت امتيازاتهم، وتكريس

السلطة باعتبارها الحظوة والثروة والشهرة أما تلك السلطة التى تعنى الكفاح والنضال لتأمين مصالح الوطن التى تصاغ على أسس وفروض الجغرافيا السياسية ومصالح المجتمع التى تصاغ على أسس علاقات الإنتاج وصراع الطبقات، وأسلوب تنفيذ هذه المصالح وتلك التى تصاغ على أساس الديمقراطية التى تميز بين السياسة كعلم وحرفة الكتل الجماهيرية والسلطة العامة كانساق تسكن في يد تنظيمات الجماهير الشعبية، وبين ديمقراطية النخب، التى تقوم على دهاقنة الفكر، ومساومات القلة وصراعات القصور ومؤتمرات الأقطاب وذلك الأسلوب الديمقراطى المعيب وعواره المكشوف ولكن كيف أستطيع الوصول إلى ذلك؟ وكيف أعى مفردات الثقافة السياسية؟ وكيف استطيع تحديد النقط فوق الحروف حتى لاتختلط المعانى وحتى لا تختلط الشعارات وحتى لا يسود الباطل على أنه الحق ويحبس الحق ويعاقب وكأنه الباطل؟؟؟ تلك أسئلة لابد من متابعة الاجابة عنها. غير أن هناك حلقة يجب أن تغلق.

فمن على البعد وبعد مرور مايقرب من عقد ونصف العقد من الزمان تماست الخطوط بينى وبين أبطال قصة القبض علىَّ فى فبراير سنة ١٩٦٨، فعقب اغتيال الرئيس أنور السادات بيومين فقط وفى فجر يوم عيد الأضحى المبارك الموافق ٨ أكتوبر سنة ١٩٨١ جاءت قوات الشرطة فى حملة هائلة مدججة بالسلاح وساقتنى إلى الاعتقال بعد أن انتزعتنى من بين أولادى لتحرمهم بهجة العيد، كان ميزاجى غاية فى الاعتدال فى تلك الليلة، بل كان الحبور والابتهاج يرسمان الحياة أمامى بلون وردى، لذلك رحت أمازح قائد حملة الشرطة التى جاءت لاعتقالى، وقلت سائلا:

- لماذا كل هذه القوات؟ هل يحتاج شخص أعزل مثلى شاحنتين وثلاث سيارات خفيفة للقبض عليه؟

أجاب الرجل: نعم لانك رجل اشتهر عنه أنه يقاوم السلطات.

فقلت له: كيف؟

فقال يوم أن قبض عليك فى كمين فى الشارع وناديت بأنك تتعرض لحادثة اختطاف.

قلت له وهل هذه مقاومة للسلطات.

أجاب الرجل ولكنك هادىء وطيب فى ليلتنا هذه. فاستعرت شعر أحد الرفاق من العمال واسمعته اياه، وقلت له يقول أحد العمال ممن يسكنون الريف وهو الزميل عطيه الصرفى ومازال يعتقل رغم تعديه سن الستين:-

حسبوا بيتنا قلعة... لها خطر على البقعة... فجاءونا بجندهم... مثال الهزل... لاالروعة. حدق الرجل فى لبرهة واشاح بوجهه عنى استمرت شهور اعتقالى وطالت، دون أن يسألنى أحد حتى عن اسمى وبعد انقضاء حوالى ثمانية شهور. بذل أحد أقطاب اليسار مساعيه الحميدة لدى سلطات الأمن لاخراج المعتقلين من اليساريين بخاصة أنه ثبت أن الرئيس السادات اغتيل بأيدى جماعات التيار الدينى، وأن اليسار لم يثبت عليه أنه استغل هذا الظرف فى أى عمل أو أى قول أو فعل، كان اللواء حسن أبوباشا وزيراً للداخلية آنذاك ولما وصلته تلك المساعى أجاب بأنه يتم إخراجهم تباعًا بل أوشكوا على الخروج جميعهم، فلما نفى صاحب المساعى الحميدة ذلك أجاب أبوباشا قصدك أحمد شرف، سيب ده شويه، دا لازم يخرج آخر واحد وهكذا تستقيم الأمور فى فهم السياسة على منهج رجال الأمن، العداء أبدى

المصلحة واحدة الدفاع عن السلطة أى سلطة بعد خروجى فى شهر أغسطس عام ١٩٨٢ ، وبعد مرور حوالى سنتين وقعت يدى على كتاب اللواء حسن طلعت «فى خدمة الأمن السياسى مايو ١٩٣٩ - مايو ١٩٧١» والمنبشور سنة ١٩٨٣ جاءت روايته لأحداث فبراير سنة ١٩٦٨ كالآتى: « انصرم عام ١٩٦٧ وجاء عام ١٩٦٨ وحرب الاستنزاف تتصاعد والعدو الاسرائيلى يرد بالاغارة بطائراته على أعماق البلاد ، وكنا نسمع من أصدقائنا فى القوات المسلحة عن عمليات عبور تقوم بها هذه القوات إلى الضفة الشرقية للقناة بدأت بأفراد وانتهت بكتيبة كاملة مسببة للعدو الاسرائيلى الازعاج والقلق وخلال هذا العام صدرت الأحكام فى قضية قادة سلاح الطيران الذين قدموا للمحاكمة لإهمالهم فى تأدية واجباتهم خلال العدوان الاسرائيلى سنة ١٩٦٧ ، ورغم أن الأحكام كانت بالسجن لمدد لاتقل عن خمسة عشرة عاما . فقد اجتاحت القاهرة مظاهرات من العمال والطلبة تحتج على بساطة الأحكام وتطالب بتشديدها .

كنا نقدر تماما شعور هؤلاء المتظاهرين ، وكانت الأوامر الصادرة لقوات الأمن بتفريق هذه المظاهرات باللين والتفاهم وعدم استخدام الأسلحة النارية إطلاقا ، وإذا اضطر الأمر فيستخدم الخرطوش عيار ١٦مم للأطلاق فى الهواء ولسوء الحظ توهم مأمور شرطة حلوان أن المتظاهرين سيهاجمون القسم فأمر باطلاق أعيرة نارية فى الهواء ، فأصابت أحد المتظاهرين الذى توفى على الأثر ، واتضح أن الخرطوش الذى أطلق من عيار ٢٠ مم مخالف للتعليمات ، وإثر ذلك توتر الموقف وحاصر المتظاهرون مجلس الأمة وطلبوا محادثة السيد أنور السادات رئيس المجلس ، الذى لم يتمكن من اقناعهم بشىء ، فوجهوا إليه السباب

وغادروا المجلس يهتفون بسقوطه.

قرر السيد شعراوى جمعة تقديم استقالته باعتباره وزير الداخلية المسئول عن تصرفات شرطة حلوان رغم خروجها عن حدود تعليماته، ولكننا أقنعناه بالعدول عن الاستقالة وأخذنا نعمل على تهدئة الموقف وإن كنا قد اضطررنا لالقاء القبض على قادة المظاهرات وخاصة من طلاب جامعات القاهرة وعين شمس وأودعناهم سجن القلعة.

ذهبت ليلا بعد انتهاء عملى المكتبى إلى سجن القلعة لأطمئن على حسن معاملة المحتجزين وتوفير أسباب الراحة لهم، وبدأنا حوارا استمر حتى الفجر وكان معى العميد حسن أبوباشا (وزير الداخلية الآن) وتوالت جلسات الحوار لثلاث ليال متتالية شرحنا فيها لهم كافة الظروف والملابسات المحيطة بالبلاد، وخرجنا بنتيجة مذهلة وهى أن هؤلاء الشباب جميعا من الناصريين المؤمنين بخط جمال عبدالناصر وسياسته. وقد فوجئنا عندما علمنا منهم أنه لم يحدث من قبل أن تحدث اليهم أحد المسئولين فى التنظيمات السياسية على الوجه الذى تحدثنا به اليهم، وأن هناك معلومات قد عرفوها منا لأول مرة.

تقرر الافراج عنهم فورا وقد طالبوا بأن يستمر الاتصال بينى وبينهم بعد خروجهم ولكننى رفضت مبررا ذلك بأن أغلبية الطلاب لم تتح لهم فرصة التحدث معى ومعرفة دوافعى وأنا فى نظرهم رجل بوليس، وقد يلقى ذلك ظلالا من الشك على علاقتى بهم، ولكننى اقترحت عليهم أن يكون اتصالهم بأمين الشباب فى الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت الأخ أحمد كامل « رئيس المخابرات فيما بعد». ومهدت الطريق لتحديد ميعاد المقابلة بينهم فى مقر أمانة الشباب.

كما تقرر إحالة مأمور قسم حلوان للتحقيق، واعتبرت أن الموضوع

قد انتهى وأنها عاصفة وانقضت وأن أمين الشباب سيصحح مسار نشاط الأمانة وتصادف أننى قابلت أحد هؤلاء الطلاب بعد انقضاء شهر على هذه الأحداث فسألته عن الحالة وكيف كان لقاؤهم بالسيد أحمد كامل أمين الشباب، وكم كانت خيبة أملى عندما أبلغنى أنه حدد لهم الساعة الثانية عشرة ظهر أحد الأيام لمقابلته، فلما توجهوا لأمانة الشباب لم يجدوه، وحوالى الساعة الواحدة قام بعض السعاة بفرش ممشاة حمراء من باب المصعد إلى باب مكتب الأمين ثم وصل الأمين، ودخل المكتب واستدعاهم وعندما دخلوا ودعاهم للجلوس، رفضوا وعاتبوه على عدم احترامه لموعدهم، وعلى المظاهر التى يعيش فيها، وانصرفوا دون أن يفكروا فى العودة ثانية ويالله العجب فإن هؤلاء الطلاب هم الذين تصدوا فى الفترة الساداتية للدفاع عن جمال عبدالناصر وانجازاته فى سبيل مصر والأمة العربية»

وهكذا تكتمل الحلقة، وتغلق حكاية مظاهرات فبراير سنة ١٩٦٨.

عندما عدت إلى الجامعة ركزت كل وقتى فى المذاكرة، ولن أخفى، إن شعورا ما بالخوف من تهديدات حسن طلعت لى، كان يتسلل إلى، بعد أن تخرجت شعرت بمنتهى السعادة فلسوف أمارس استقلالى المادى وكنت متسرعاً فى تحقيق هذا الأمر، حتى اننى تقدمت لخطبة فتاتى، غير أن والدها، رغم تقديره الدائم لى استاء من تسرعى هذا، واعتبر أن ذلك موقفاً صبيانياً.

لم أعد أتردد على منظمة الشباب، انتظمت علاقاتى السياسة خارج الإطار الرسمى فتعددت جلسات مقاهى :«ريش» وايسائيفتش» وتعددت لقاءاتى بالزملاء العرب من الاتجاهات القومية، والتى كان مدخلى اليها أمين الجدعان، وانتظمت فى حضور ندوة محمد خليل

قاسم، وداومت على مقابلة زكى مراد، بل تعمقت علاقتنا ببعض، وصارت ساحة للحوار المشترك، وتفكيرا مشتركا فى مواجهة هموم الواقع واذكر أن فكرة لجان المعركة الشعبية، قد شغلتنا كثيرا وتدارسنا فيها كثيرا. قضيت وقتًا طويلاً نسبيًا بعد التخرج فى قريتنا، حتى اسلمت نفس للواجب وجندت فى القوات المسلحة بتاريخ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٦٨.

ولقد استعرضت تجربتى فى القوات المسلحة، أو بالاحرى جزءًا من تجربتى التى تتعلق ببناء حائط الصواريخ، وأصدرته فى كتاب يحمل عنوان « الحائط العظيم» - «ذكريات جندى فى حرب الاستنزاف». لذلك لن اكرر نفسى ولكن فقط سوف أقف عند محطات سياسية فى تكوينى، تمت فى فترة تأدية الخدمة الوطنية حتى انهى ما يتعلق بتكوينى كرجل مهنته السياسة بحثا وممارسة فكرًا وعملاً، حلما ومكابدة كفاحًا ونضالاً، سجنًا وتشريدًا، قلقًا دائمًا على مستقبل وطنى وشعبى ومعاناة لاتنتهى من رقابة لاتفتر ولا تعقل، تطاردنى حتى فى أخص خصوصياتى فى منزلى فى مكتبى فى حلى وفى ترحالى.

الخاتمة
وأصبحت اشتراكيًا

بعد دخولى للقوات المسلحة لتأدية واجب الخدمة الوطنية، كنت أحار، لماذا يؤكد الناس أننى شيوعى، مع أننى لم أكن هكذا بعد، وفى حادثة واحدة، مثلت القشة التى قصمت ظهر البعير، أى تلك الإضافة الكمية البسيطة، التى تحول التراكم الفكرى والخبروى إلى اختيار ذى توجه جذرى آخر، عشت هذه الواقعة، فكان تحديد اختيارى بأننى اشتراكى علمى وبالمعنى الدارج شيوعى.

والشيوعية هى تلك الفلسفة السياسية التى تنبأت بعملية الانتاج التى تجرى ولادتها فى عالم اليوم، أى عملية إنتاج الوفرة؛ والتى ستقوم على منجزات الثورة العلمية التكنولوجية الحديثة، تلك العملية الانتاجية، التى ستهيء لقيام الدولة العالمية الواحدة، للمجتمع البشرى الواحد.

إن هذا الحلم لن يتحقق تلقائيًا، أو أتوماتيكيًا، ولكن دونه نضال إجتماعى وسياسى مرير، فدولة الحلم ومجتمع الحلم، مجتمع مدنى عالمى، ستحكمهة آليات المجتمع المدنى، وستكون السلطة فيه مستبعدة وسائل القهر والعنف المادى، إن هذه الدولة الحلم، دونها نضال طويل ومرير، غير أن بداية اطلالة الثورة العلمية التكنولوجية، وبداية إطلالة عملية إنتاج الوفرة، وبداية مسيرة المجتمع العالمى الواحد، وبروز الكون كمدينة عالمية صغيرة، كلها تنعش النضال من أجل هذا الحلم البرىء.

ولكن فى ذات الوقت فإن محاولات التدويل الرأسمالى للعالم،

ومحاولات العولمة الرأسمالية، وبروز ما يسمى بالنظام العالمى الجديد، المزيف والمشبوه، وطغيان الامبريالية فى صور جديدة متوحشة وبربرية، تلزمنا برصد ذلك الفارق الكبير بين الحلم البرىء والواقع المعقد، وهذا أمر شديد التعقد بدأته من بدايات السبعينيات كما ستقول الورقات الباقية من هذا الكتاب ولم ينته حتى الآن ويحتاج لكتابات وشهادات وأبحاث ودراسات، وقبل هذا وبعده إلى نضال طويل ومرير على الصعيد الوطنى الديمقراطى.

[١٤]

..وتهيأ تكويني وتحدد اتجاهي سياسياً:

قبل دخولى لتأدية الواجب الوطنى، كانت مشاعرى تطفح بشىء من الكبر السياسى، فقد كانت تجربتى السياسية، رغم قصرها، غنية، بل حافلة بالعمل السياسى فى مستوى الفعل المركزى، القريب من مركز السلطة العامة، وكان دورى فى أحداث الطلبة فى فبراير سنة ١٩٦٨، دافعاً اضافياً لتضخم ذاتى تلبسنى، بل كان تلامسى مع المدارس السياسية المختلفة، اقتراباً من نقط القلب منها، فقد قابلت زعماء وقادة من مدرسة الفكر السياسى، والعمل الكفاحى القومى، منهم الوزاء السابقون، والشخصيات التى تنبىء سماتها بمستقبل كبير فى عالم السلطة فى بلادها، كذلك عندما تلاقيت مع مدرسة الفكر الاشتراكى العلمى «الماركسية» والممارسة النضالية الثورية اقتربت من ألمع الأسماء، وأهم كوادر هذه المدرسة فى مصر، وقد تمت كل هذه الملامسات فى سنين الشباب الأولى بالنسبة لى.

ولاشك أن هذه المشاعر بدأت تقلقني، فبقدر جذرية موقفي المدني كسياسي، بقدر فزعي من السلطة عندما تكون مجلبة للحظوة والسطوة، لذلك وحتى أرصد حركة ذاتي، وأخفف من أى غلواء يدفع بي للتطير، وتصور دورى السياسي بأكثر مما تسمح به إمكاناتي الشخصية والعامة، والتي تتناسب مع سني، ومع ظروف كثيرة، أدركت أهمية وجودها في السياسة، وبالذات كممارسة عملية.

لذلك عندما بدأت خدمتي الوطنية في القوت المسلحة، توازنت هذه المشاعر، بل إن طاقة السحق التي تمارس عسكريًا على الجنود، كادت تنقلني للموقف العكسي، غير أن طاقة المقاومة لدى، جعلتني أقود تمردًا وبلغة العسكريين، في معسكر الأساسي، أو ما يسمى بمركز التدريب العام الذى يؤهل الفرد لصيغة الجندى، أردت به مع كثير من الزملاء، تصحيح وضع المعاملة للجنود، وبالذات من حملة المؤهلات الدراسية، والذين اشتركوا بالجملة في خدمة القوات المسلحة، ولن أنسى ما حييت، كيف كانت الضغوط علينا؟، تصل إلى حد يتجاوز كل الخطوط، ومازالت في فكرى حالات الهزيان والذهول، واقدام البعض على استئصال أجزاء من أطرافهم لينالوا الاعفاء، وانهاء خدمتهم الوطنية.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت لهذه الموجات الضاغطة علينا، وجهًا ايجابيًا عامًا في التعود على المثابرة، كما كان لها أثر اضافي خاص علَي، وذلك بالغاء مشاعر التكبر نهائيا، فقد صرت جنديًا في جيش كبير، وكم أفادني هذا الوضع في فهم آليات السلطة، بل العمل العام المرتبط بالسلطة وصولاً إليها أو محاولة للحفاظ عليها.

لقد تجسد هذا الدرس واضحًا أمامي، عندما أخذت أقارن نفسي،

بقادة المظاهرات الطلابية فى أوائل السبعينيات، فلقد ساد شعور عام، بين السياسيين اليساريين بأن الحركة الطلابية، يمكن أن تشكل آلية سياسية كاملة، لإحداث انقلاب ثورى، أو سياسى عام، مما ضخم من أمرين :-

الأول : المشاعر الذاتية لقادة الطلبة باعتبارهم زعامات تاريخية.

الثانى : التزيد فى القاء تبعة التغيير الثورى على الحركة الطلابية، مما جعل بعض قوى اليسار يمركزون حركتهم السياسية، حول الحركة الطلابية.

لقد ساعدت هذه التضخيمات فى تسهيل ضرب الحركة الطلابية فى بعدها الوطنى، واليسارى، واستبدالها بحركة طلابية تخضع لنفوذ القوى التى توظف الدين فى السياسة.

ببساطة ساعدتنى تجربة وجودى الطويل فى القوات المسلحة (من ١٦/٩/١٩٦٨ الى ١/٧/١٩٧٣، ومن ٢٨/٩/١٩٧٣ حتى ١/١/١٩٧٤) كجندى وكصف ضابط، أن اضبط مشاعرى السياسية، وأتصور أبعاد دورى السياسى باعتبارى جنديًا فى حركة سياسية متكاملة، لا يهم وضعى فى قيادتها، بقدر مايهم دورى فى إبراز وضعيتها فى الاقتراب من الدفاع عن المصالح العامة لأغلبية المجتمع، والدفاع عن المصالح الوطنية العامة.

وعليه فقد أدركت أن تحولاً حاسمًا جرى فى رؤيتى السياسية لصورة البطل بالمعنى الدرامى السياسى التى أحلم بها، أى أن قناعتى تحولت من البطل الفرد إلى البطل بالشعب، إن هذا التحول لم يحدث فى حلمى حول دورى فقط، بل امتد لقناعتى حول صورة البطل الوطنى عموما.

لذلك كانت مفاجأتى من نفسى طاغية عندما سمعت خبر رحيل

الزعيم الوطنى البارز جمال عبدالناصر ، فعلى المستوى الشخصى ، كنت أحب هذا الرجل ، حبا فاق حبى لأى شخصية عامة فى التاريخ ، وعلى الرغم من ذلك ، كنت قد خلدت للنوم مبكراً فى وحدتى العسكرية مساء الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، وقرب الحادية عشرة ليلا ، وجدت زميلا لى يصر على أن أصحو من نومى ، فلما لم إستجب له ، رغم العناء الذى بذله لايقاظى ، أخذ يقول قوم يا أخى الريس مات جمال عبدالناصر مات ، تنبهت ، وكان هذا الزميل يتصور ، أن مفاجأتى بهذا الخبر ، كفيلة بأن تلقى بى إلى الأرض مغشياً عليه ، غير اننى قابلت الخبر بهدوء .

بعد فترة تصورت أننى فى حالة صدمة مروِّعة شلت أحاسيسى ، غير أننى اكتشفت أن فكرى أخذ يحسب الأمور ، ويتصورالأوضاع ، وبقدر خروج الشعب عن بكرة أبيه ، وتكرار أحداث ٩ ، ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ ، فى أيام ٢٨ / ٩ / ٧٠ حتى ١ / ١٠ / ١٩٧٠ ، وبقدر ما سجلت الانفعالات الشعبية حداً يتجاوز كل ما هو متصور ، وعلى الرغم من أننى عشت يومى ٩ ، ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ كجزء من الظاهرة ، فإننى عشت أيام ٢٨ / ٩ - ١ / ١٠ / ١٩٧٠ فى الغالب الأعم كمتابع للظاهرة ، أكثر من مندمج فيها ، وإن كنت لا أستطيع إنكار أننى عشتها جزئيا ، ولكن بصورة عاطفية فقط .

كان لهذاالتصور أثر مهم فى تحديد توجهاتى ، فعندما تذكرت اندفاعتى نحو كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، وانبهارى بمنظمة الشباب الاشتراكى ، وكيف انتهت تلك الاندفاعية ، وهذا الانبهار ، قررت أن أتمهل فى تلمس طريقى الجديد ، وأن أتزيد فى تمحيص ما يتعرضنى ، لذلك اتبعت الشك منهجا لى ، فلم أعد أقبل أى أمر باعتباره

حقيقة مطلقة، بل صارت النسبية، وسيلة معرفية لى، قبل أن أقرأ فيها.

وإذا كان درس وجودى فى القوات المسلحة، تحدد فيما قلت، فقد مكننى هذا الوجود من عدة أمور محددة :-

١- توقفت علاقتى بزميل لى فى وحدتى العسكرية، كان هذا الزميل قد تخرج فى قسم الاقتصاد والسياسة فى تجارة الاسكندرية، وكان يعادى الفكرة التنظيمية عموما، فعلى الرغم من تعاطفه مع أفكار الاشتراكية العلمية، فإنه لم يكن يتصور نفسه منظمًا أو عاملاً فى الحقل النضالى لهذه المدرسة، اللهم إلا بالدراسة. وكان من ضمن خصائصه عدم اليقين فى الفكر السوفيتى. لذلك أقنعنى جورج مكاريوس أن ندرس الاشتراكية، وبالذات الاقتصاد السياسى للاشتراكية من كتابات لعلماء ماركسيين غربيين، وفعلا ومنذ نهاية سنة ١٩٧٠ أخذنا نجد ونجتهد فى دراسة بول باران، وبول سويزى، عالمى الاقتصاد السياسى الأمريكيين، ودرسنا لشارل بتلهايم، ودرسنا لأوسكار لانجه، علماء الاقتصاد السياسى الاشتراكيين وانتقلنا لدراسة الفلسفة من كتابات بوليتزر الفرنسى، ومحمود أمين العالم المصرى وقد تابعنا التجارب الاشتراكية فى جنوب شرقى آسيا وفى افريقيا، وقرأنا لجارودى.

٢- كنت قد أصبحت مترجمًا عسكريًا، أترجم من الروسية الى العربية، بعد أن أمرت بتعلم اللغة الروسية، أنا ومجموعة من الزملاء المجندين سواء جنود أو صف ضباط أو ضباط احتياط، ورغم أننى بدأت العمل رسميا فى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٩ كمترجم، فإننى لم أباشره فعليا إلا فى فبراير سنة ١٩٧٠ وحتى وقف اطلاق النيران، ونهاية حرب الاستنزاف، والتى تمت بموجب قبولنا لمبادة وليم روجرز وزير

الخارجية الأمريكية فى ٨/٨/١٩٧٠ كنت لم أقرأ أى كتاب سوفيتى عن الاشتراكية، وعلى الرغم من قراءتى لأعمال أدبية روسية كلاسيكية، فإن أول كتاب سوفيتى أقرأه كان عملاً روائيًا، وهو قصة «الفولاذ سقيناه، ثم أتبعته بقصة «الأم» لجوركى، وحتى خروجى من القوات المسلحة، لم أقرأ فى الاشتراكية من الكتابات السوفيتية. غير أن احتكاكى بالمستشارين والخبراء العسكريين السوفييت، ومواصلة الحديث معهم بلغتهم، سواء فى الترجمة لآخرين، أو فى الأحاديث والحوارات الشخصية، قد قربنى من الإلمام بالنموذج الاشتراكى السوفيتى، وبالذات فى تفاصيله اليومية والحياتية، وكان عام ١٩٧١ مهمًا فى تاريخ هذه العلاقة، التى وجدت بينى وبين السوفيت.

ففى أوائل سنة ١٩٧١ عشت فى وحدة عسكرية كاملة، كانت تعد طاقمًا قتاليًا عند الحدود الدنيا لعدد هذه الوحدة، وكان يوجد معها وحدة عسكرية مصرية كاملة، وكانت المهام واحدة، والمعدات واحدة، غير أن الواجب القتالى كان يقع على السوفييات أولا، كذلك يقع عليهم واجب التدريب، واستفدت كثيرا من فهم آلية العلاقات السوفيتية بين الجنود والضباط، وتخليت أنها نموذجًا مصغرًا للعلاقة بين الجماهير والحكام، وبقدر ما كنت هذه العلاقات تحمل أوجهًا ايجابية واضحة وبارزة، بقدر ما كانت تحتوى على أوجه سلبية فاضحة ومستفزة.

وفى نهاية يوليو سنة ١٩٧٠، قامت أحداث الإنقلاب العسكرى الذى كان يقوده عسكريون شيوعيون فى السودان، تحت إمرة هاشم العطا، وقام حلف بين حكومة الرئيس أنور السادات، وحكومة الرئيس معمر القذافى باجهاض هذا الانقلاب. وتم إعدام قادة الانقلاب، وقادة

الحزب الشيوعى فى السودان، وعلى رأسهم الرفيق عبدالخالق محجوب، السكرتير العام، والشخصية النقابية العمالية العالمية الشفيع أحمد الشيخ، وكنت أتابع أخبار هذا الانقلاب وتطوراته، وأنا فى وحدتى العسكرية باعتباره حدثًا عربيًا يدور فى دولة شقيقة، غير أننى وجدت المستشارين السوفييت يتابعونه باهتمام متزايد، ويوم اعدام هؤلاء القادة الشيوعيين، وجدت جمعًا من المستشارين السوفييت، يجهشون بالبكاء، ويتحلقون فى مندبة، كالتى اتذكرها عندما كانت تتحلق نساء قريتنا عند المزدة فى بداية القرية، لاستقبال عزيز مات بالمدينة، تعجبت كثيرًا مما أراه، وبعد أن هدأت العاصفة ذهبت إلى أقربهم لى فى العمل، وقلت له، لماذا كل هذا البكاء الحار، اغرورقت عين الرجل بالدموع، أنه بسبب موت الشفيع الشيخ، لم اكن قد سمعت مطلقا عن الشفيع الشيخ، واستفزنى بقوله هذا، فقلت له، اننى عربى، ورغم ذلك فإننى لم أعرف من هو هذا الرجل ورغم ان هناك علاقة خاصة تربط المصرى بالسودانى، وبعد أن بينت لى من هو الشفيع الشيخ، فقد أصابنى بعض الحزن، ولكن ما الذى يدفعك وأنت سوفيتى أن تنتحب لموته، وهوليس من بنى جلدتك، فقال لى انها مشاعر الأممية البروليتارية، لم اكن أعلم معنى هذا المصطلح، فطلبت الاستزادة، فقال: إنه شعور الوحدة أو التوحد بين كل عمال العالم، سواء العمال بالمعنى الطبقى الاجتماعى، أو العمال بمعنى تبنى الفكر العمالى أى فكر الاشتراكية العلمية.

أخذت أفكر فى هذا الأمرمليا، إذن هناك رابطة اجتماعية، تتخطى رابطة الأمة، أو الرابطة القومية، وتوجد بهذا الدفء والحماس، هذا شيء جديد. كنت فى تلك الفترة قد ارتبطت بزوجتى، وكنا فى مرحلة

الخطبة، وكانت قد سألتنى: هل أنت شيوعى أجبتها: لا سألت ألست مرتبطًا بأى حركة اشتراكية؟ قلت لها، لا، وكان نفيًا صحيحا، عندما نزلت فى أول اجازة من الجبهة قلت لها لقد قررت أن أكون شيوعيًا، وسوف ارتبط بحركة التيار الشيوعى والقوى الشيوعية، وقصصت عليها قصتى، ولأنها ليست مهتمة بالسياسة، قالت لى كما تريد، افعل ما تراه صحيحًا، بعدما قابلت صديقى أمين جدعان، بادرنى برأيه فى انقلاب السودان، وكيفية التعامل معه، قلت له إننى غير مرتاح لتقاتل القوى الوطنية، شد النقير على الشيوعيين الخونة، قلت له مهلا يا رجل، لا تتطرف، ولكنه واصل هجومه، قلت له ايه رأيك سوف اعتبر ان هذا اليوم تحديدا هو يوم اختيارى السياسى لأكون شيوعيًا، كاد الصديق أن يغمى عليه، قلت له هذا قرار، ذهبت الى زكى مراد، وعاتبته وقلت له لقد حاورتنى كثيرًا، وعلمتنى كثيرًا، وحاضرتنى كثيرا فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية، وأظهرت لى أبعادًا فيها لم تكتب بعد فى كتب التاريخ، وبالذات البعد المرتبط بالصراعات الاجتماعية ـ الاقتصادية وحركة القوى الاشتراكية، ومع ذلك لماذا لم تدعونى أبدا للانضمام لحزبكم، أى الحزب الشيوعى.

ردا على زكى مراد، لو كان هذا الحزب موجودًا لدعوتك اليه، قلت له ولكن يوجد تيار شيوعى، قال يوجد بالتأكيد، قلت له إذن، ضمنى اليه فقال التيار يعنى موقف فكرى، ومواقف نضالية تتابع بتوافق الإرادات التلقائية، وليس بفعل الالتزام بنظام أساسى، أى بوجود تنظيم، ومع ذلك فما لاشك فيه أننا نهدف لقيام مثل هذا الحزب، قلت له، سوف أعمل من أجل قيام هذا الحزب سواء وحدى أو مع أخرين، ابتسم زكى مراد، وقال طريق السياسة لا يفرش بالنوايا الحسنة، ولكن

بالجهود والعمل المضنى، انه طريق النضال الطويل الشاق، قلت له قد سوف أعمل لفهم هذا الفكر، وسوف أناضل من خلال تيار الاشتراكية للدفاع عن مصالح وطننا وغالبية شعبنا من الكادحين.

منذ ذلك اليوم، يوم الثالث من أغسطس سنة ١٩٧١، وأنا اعتبر نفسى منتميا لتيار الاشتراكية العلمية، أى التيار الشيوعى، الماركسى - اللينينى، وذلك حتى هذا اليوم واعتقد لباقى أيامى حتى الممات، غير أن اعتقادى بهذا الالتزام، لم يكن يعنى بالنسبة لى اننى صرت فعلاً شيوعيًا مذهبيًا، سواء على مستوى الفهم النظرى والفكرى، أو سواء على مستوى العمل الحركى، والتحرك العملى، إن اقرارى بوجود مساحة حقيقية بين الالتزام، والفهم والحركة، قد مكنانى دائما من الخروج عن الشكل المذهبى، أو البرجماتى (اليقين الجامد) وجعلانى أتعامل مع الأسس النظرية والفكرية، ومع الأسس الحركية سواء فى الإطار العام أى الاستراتيجى، أو الإطار الخاص أى التكتيكى بروح عملية، لا تفصل الواقع على القواعد المسبقة، أو تعيد صياغته ليتمشى مع تلك القواعد، ولكن تحاول أن تطور القواعد النظرية والحركية لتلائم الواقع ذاته، فحركة الواقع هى الأساسى، سواء فى النظرة السكونية له، أو سواء فى النظرة التطورية له، والقواعد هى التى تتطور.

إن أى قاعدة هى استخلاص نظرى، يعمم علاقات الظواهر ويجعل منها قانوناً، غير أن الظواهر ذاتها تتطور، وعلاقاتها نفسها تتطور، بما يعنى أن صياغة هذه القواعد والقوانين، سواء الصياغة بالمعنى الشكلى أو بالمعنى البنائى تتطور هى الأخرى، فالأصل هو حركة الواقع، والتابع هو حركة الفكر والممارسات.

والاشتراكية العلمية فى اعتقادى هى الاختيار العصرى للسياسة من موقع الكادحين، صناع القيم المضافة ماديًا ومعنويًا، سلعيًا وخدميًا، بمعنى:

هى فهم السياسة على أنها علم، إدارة الصراعات الوطنية بين الدول والمجتمعات للوصول للمجتمع العالمى الديمقراطى الذى يُرفض سيطرة جنس على آخر أو دولة على أخرى أو على عدة دول، بل يعمل على إعطاء صفة الانتحاء والعضوية الكاملة والمتساوية فى المجتمع العالمى لأى دولة، أو كيان قومى بصرف النظر عن حجمه وثقله فى خلق القيم المضافة، وعلى أساس معيار عام ومحدد هو انسانية وبشرية أى مجتمع إنسانى.

ثانيا تعنى الاشتراكية العلمية أيضا فهم السياسة على أنها علم إدارة الصراعات الاقتصادية ـ الاجتماعية داخل المجتمع الواحد، بما يعطى الحق لأصحابه من الكادحين والمنتجين الحقيقيين، وليس للسماسرة، وقاصى الكوبونات، وأساطنة البورصات والمضاربات. أى هى التى تدافع عن مصالح الأغلبية ضد مصالح الأقلية المسيطرة، ولكنها هى أيضا التى تتعامل مع المصالح باعتبارها حدوداً مادية يمكن رصدها وتجسيدها ولا تنسحب بفهمها هذا ليمتد على الانسان ذاته، أى أنها تعنى بالحرب ضد الاستغلال، ولكنها لا تفترض أن هناك إنسانًا مستغلاً بطبيعته، فالاستغلال والاستبداد ظواهر مادية ومعنوية مستقلة عن الوجود الانسانى ذاته، الذى يجب أن يظل محترمًا ومحفوظًا لكل انسان مهما كان، سواء فى حق الحياة، أو فى حق العمل، أو حق التنقل، أو فى حق الكلام والحوار، أو فى حق إصلاح ظروف الحياة والنضال فى سبيل ذلك، أو فى حق الإبداع الفكرى والعملى.. الخ.

وثالثا : كما تعنى الاشتراكية العلمية فى أنها الفكرة الدافعة لإطلاق قوى التطور العلمى والتكنولوجى بواسطة الانسان ، ولخدمة الانسان ، والانتقال بالمجتمعات البشرية من مرحلة الطفولة العالمية إلى مرحلة التوثب والشباب ، وتطوير علاقات الإنسان بالطبيعة القريبة من بعض السيطرة إلى كل السيطرة ، على أساس السيطرة العاقلة التى تحترم قوانين الطبيعة ذاتها ، وخلق علاقات مستجدة بين الانسان والطبيعة غير القريبة أى خارج محيطه الحياتى الأرضى ، والانتقال الى عالم الأجرام والنجوم والكواكب اللامتناهية .

هذه الاشتراكية العلمية التى أتمسك بها بمحاورها الثلاثة : المحور الوطنى وما يفرضه من متابعة علاقات الدول وتطور الربطة المجتمعية للمجتمع العالمى الواحد ، ثم المحور الاقتصادى ـ الاجتماعى الذى يعالج صراعات الطبقات ويستهدف الغاء السيطرة والهيمنة التى يفرضها من يمتلكون الثروة على من ينتجون الثروة ، ليصير الجميع منتجًا للثروة ، وليتوحد المجتمع فى اطار اجتماعى مدنى ، وتتحول فيه السلطة من لازمة للعنف والسطوة ، الى أفعال مدنية اجتماعية ، تستوجب الالتزام الاختيارى أو الطوعى أى تطوير بنية العلوم السياسية ذاتها ، ثم المحور الثالث ، الذى يفهم ويدفع التطور العلمى والتكنولوجى إلى أعلى الآفاق دون قيود ، غير علمية العلم ذاته فى الوسط الاجتماعى وفى الوسط الطبيعى .

***

واستخدامى لمصطلح العلم السياسى ، لا يسقط تعبيرى المفضل حول الثقافة السياسية ، هذا التعبير الذى يرادف عندى العلم ، ولكن على اعتباره علمًا يخص العامة من الناس ، ويكون فى مقدرة عموم

الكادحين أن يحصلوا عليه.

والثقافة السياسية بهذا المعنى لا تكتسب بالدراسة فى المعاهد فحسب، ولا تتحصل فى أروقة الأحزاب السياسية فقط، ولكن بالإضافة إلى هذا، فإن ساحتها الرئيسية فى مجرى الحياة العامة، حيث التنظيمات الديمقراطية، والاجتماعية العامة.

لقد أثبتت تجربتى لى مدى جدوى هذا الاستنتاج، فعندما كان الاهتمام بالسلطة العامة همًا جماعيًا، سواء فى مرحلة مقاومة الاستعمار، أو فى مرحلة تثبيت الاستقلال وبداية البناء المستقل إثر ثورة سنة ١٩٥٢، وحتى نهايتها، كانت السياسية مزدهرة، وخالطت ساسة من مستوى رفيع من عامة الناس، فلاحين وعمال، وطلبة، ومهنيين، وحرفيين، وجنود، بل ورأسماليين وطنيين همهم استقلال السوق الوطنية، وندتيها للأسواق الخارجية والعالمية. وعندما تحولت السياسة، وقضايا السلطة الى النخبة، وصارت حرفة الخاصة، الذين يستكبرون حتى على الاعتراف باحترافهم السياسة، وتم صرف العامة، وابعادهم بطريقة قصدية عن الهموم العامة، والسلطة العامة، انحسرت الثقافة السياسية وخبت.

وفرق بسيط بين شعارى الشرطة فى خدمة الشعب، والشرطة فى خدمة سيادة القانون، ففى حالة الشعار الأول تفجرت طاقات الناس ومبادراتهم العامة فكما أشرت فى النصف الأول من الستينيات، اتسعت مجالس السياسة على مصطبة شقيقى، وأذكر أن موضوعًا دائمًا كان على رأس هذه المجالس، هو كيفية النهوض بعملية التنمية، واندمج الناس فى شعار زيادة الإنتاج. وبالذات للمحاصيل التسويقية كالقطن والأرز. وفى يوم من أيام عام ١٩٦٤ ذهب شقيقى على رأس

وفد فلاحى، يرغب فى مقابلة محافظ الاسكندرية، حمدى عاشور «آنذاك» لمناقشة مشكلة عامة، وأخذ موافقة المحافظ عليها، وعندما تشبث قائد الحرس بمنعهم من الدخول لمقابلة السيد المحافظ، انفجر شقيقى خطيبًا، بأنهم معشر الفلاحين معنيون بقضايا التنمية، وأنهم يريدون مقابلة المحافظ فهم الذين يقومون بانتاج السلع التى تأتى بالعملات الصعبة، والتى تحتاج إليها قضايا التنمية، وأمام بلاغة الخطبة وحجيتها وموضوعيتها، فإن الضابط الكبير، بذل جهدًا خاصًا فى اتمام هذا اللقاء، وصار الضابط صديقا لشقيقى، وكم تدخل فى توجيه تعليمى عندما انضم إلى جلسات المصطبة، وظلت علاقته بأبناء قريتنا طويلة، وكم صار زبونا دائما لا بتياع الحليب الطازج من قريتنا خاصة بعدما ترك الخدمة.

وعندما تغيرت الأحوال ذهب شقيقى فى نهاية السبعينيات، ليساعد فلاحًا بسيطًا فى إثبات قيد نجله بعد أن كان قيده قد سقط تسجيله فى الدفاتر الرسمية فى سجلات مركز كفر الدوار، وظل أخى فترة طويلة فى هذا اليوم، يحاول الوصول إلى دوره ولكن لأنه لم يكن قد تعلم عملية تفتيح المخ بعد، ولأن المتفتحين بأمخاخهم كثيرون انتهت فترة العمل، وأخى ومعه الفلاح وابنه الصغير «ساقط القيد» لم يصلوا لبغيتهم، وتكرر مجيئهم، وفى إحدى المرات طلب شقيقى ألحق، فخرج عليه ملازم أول شرطة ونهره، فقال له يا ابنى لقد أتيت مرات لهذا الطلب البسيط، فأرجو أن تحترم كبرى وشيخوختى، ورغبتى فى معاونة هذا الفلاح البسيط لإنجاز مهمتنا. فقال له الملازم، وانت مال أهلك هو أنت أبوه!.. رد أخى يا أبنى دى مهمتى مساعدة الناس - فأنا كبير قومى.. رد عليه الضابط بحركة «اسكندرانية» فأغتاظ أخى، وقال

له عيب يا ابنى أنت أصغر من أولادى، فما كان من الضابط، الا وقام بضربه وسبه واهانته، وعلى الرغم من أن شقيقى كان قد قابل مدير المساجد بالمحافظة، وكان صديقه، وتدخل لدى المأمور، وهدأه المأمور، فإن شقيقى أمر الفلاح بالعودة الى المنزل، وقال له ابلغ أهل بيتى أننى سأذهب الى احمد شقيقى بالقاهرة، وجاء أخى لى وهو يبكى كطفل، ويناشدنى خذ لى حقى يا أحمد، فلما شرحت له الأوضاع. ظل الشغل الشاغل لأخى يتمثل فى أن يرجونى أن أبتعد عن السياسة، وحتى وفاته فى ديسمبر ١٩٩١، لم يكن له إلا أمل واحد هو أن أترك السياسة. وضاقت مجالس أخى وصارت قاعة لمحاكم الحفاة فقط، وتخصصت المحاكم هذه فى الأحوال الشخصية فحسب، وتحولت سهرة الخميس إلى حضرة دينية يتم فيها قراءة الأوراد و مباشرة الأذكار فحسب، وفى مرحلة لاحقة تحولت لجلسات علاج واستشفاء بالقرآن إن شقيقى الذى سحب عصا العمدة وأدبه بها لمجرد ازدرائه لأبى وبصقه فى وجهه قبل ثورة ١٩٥٢، والذى أدار خطبته حتى قابل محافظ الاسكندرية فى سنة ١٩٦٤. والذى جاهد وأدخل كل المرافق للقرية فى الستينيات، انكسر منذ نهاية السبعينات، وانكسرت الثقافة السياسية فى قريتنا، واذكر أننى رشحت نفسى كمساند لقائمة حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ١٩٨٤، ورجوت شقيقى أن يستنفر كل نفوذه الجماهيرى لمساندة القائمة، ورغم أنه تردد كثيراً فى المشاركة أولا، ثم استسلم لما أطلبه بخاصة عندما وضعت نفسى فى ذيل القائمة، وتألق أداؤه فى هذه الحملة، وعندما ظهرت النتائج لخص أخى الموقف لى وقال: إنت متصور أن الراكب سوف ينزل عن ركوبته وحده، أو إنه سيحس بالسائرين خلفه ولو حتى على الجمر، وأخذ أخى يحكى لى قصة الحاج رفاعى:

كان الحاج رفاعى اقطاعيا فى قريتنا، أو شبه اقطاعى، وفى يوم قائظ الحرارة ركب على مهرته المطهمة بسرج مزركش ومنقوش، ومن خلفه يجرى الحوذى يمسك له المظلة التى تقيه لفحة الشمس، ولدى مرور الحاج الرفاعى على قطيع من الأغنام، توقف بمهرته، ونادى: ياولد ياغنام، تعالى أنا عايزك واستأنف الحاج رفاعى سيره، وأخذ يحث المهرة على السرعة، حتى يخلق نسمة تطرى عليه هذا الحر، والغنام يجرى وراءه، وكلما نطق أو حاول النطق، انصرف عنه الحاج رفاعى، وتكلم مع الحوذى، بعد أن التهبت قدم الغنام من الجرى على تراب الطريق الزراعى، وكان قد جرى أكثر من ثلاثة كيلو مترات، زعق الغنام وقال ياحضرة البيه، أنت عايز منى حاجة؟ التفت الحاج رفاعى اليه وقال إنت مين ياولد، فرد أنا الغنام قال الحاج رفاعى، ايوه صحيح افتكرت: هى نعجتنا عشَرت؟ أى هل أصاب الحمل نعجتنا فرد الغنام، بس كده يابيه، حضرتك كان يمكن أن تختار أى نعجة وتأخذها ومتعملش كده فىَ.. فقال الحاج رفاعى: روح جاك خابط، ايه اللى جرا لك يعنى ماأنت زى الحصان أهوه.

ورغم ذلك أثرت انتخابات ١٩٨٤ فى زيادة عزلة أخى عن السياسة وتحولت حياته الى الانكباب على مجالس التدين الشعبى.

واذكر أن هذه الحالة التى ألمت بشقيقى انقطعت عن سياقها مرة واحدة، ففى يوم الثلاثاء ٧ أكتوبر سنة ١٩٨١ وكان يوم وقفة عيد الأضحى المبارك، أفتعل أخى المناسبة لأحضار بعض الحاجيات إلى، وفى فجر هذا اليوم، وجدته يدق باب شقتى، ولما فتحت له الباب انطلق مهللا: لقد انتقم شعب وادى النيل «وقتل الخائن الفاسد».. هدأت من روعه وشرحت له، أن أسلوب القتل، أسلوب مدان فى السياسة، وأنه لا

يحل المشاكل، صمت بطريقة تعني أنه لم يقتنع.. وقال.. ومع ذلك.. غمة وزالت.. وترك الحاجيات.. وذهب بسرعة لشقيقاتي.. في فجر اليوم التالي دقت قوات الشرطة باب شقتي.. واقتادتني الى المعتقل عشرة شهور، وبعد شهرين جاء الى شقيقي في زيارة عبر الاسلاك في سجن ليمان طره. وعندما رآني خلف الاسلاك أجهش بالبكاء.. وقال كده يا أحمد هو ده مكان ولاد أبو شرف. فقلت له، وهل وضعت هنا لأنني سارق، أو مرتش أو قاتل!؟ إنني وضعت هنا لأنني أحب وطني فحسب.. وللأسف لم يجرؤ من وضعوني هنا، أن يسألوني حتى عن اسمي!! وحاولت أن ارفع من معنوياته، لكنه ازداد إجهاشابالبكاء.. وهو يقول سايق عليك النبي، سيبك من السياسة.. السياسة زمنها راح وخلص.. الله يرحمك ياجمال يا عبدالناصر عندما خرجت من المعتقل وزرت قريتنا، كان الجميع يستحلفونني بأن أترك السياسة وتفنن الكبار في إبراز الحجج العامة والخاصة.. ابتداء من طبيعة الحكم الى مصلحة أولادي.. غير أن إصرارى على السياسة صار أقوى.. بينما الثقافة السياسة والمشاركة السياسية بمعناها الشعبي هي التي صارت في أضعف حالتها.. غير أنه لابد لها من نهوض.

وحتى تكتمل دوائر هذا الكتاب، والأشخاص الذين ظهروا فيه يحق لي قبل ختامه تناول الآتي في وقفتين..

الوقفة الأولى:

في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي، فاجأني شاب صديق، بالسؤال التالي: أوجز خبرتك السياسية لي في جملة واحدة؟

ورحت أعرب عن ضيقي من السؤال، وأخذت أتململ، وأقول له، دعك من هذه الطريقة التيفزيونية في الثقافة والممارسة، ولكنه أخذ يحاصرني.

ويؤكد لى أن الفشل فى الاجابة عن السؤال، يعنى الفشل فى تحديد لب، وجوهر الحياة الثقافية والعملية لك.

أخذت أفكر، والتقطت منه، ما هو جذر كل شيء فى حياتى الثقافية والعملية، وقلت له، هاك اجابة سؤالك: ليس هناك شيء منمزج فى الثقافة والممارسة السياسية، أى ليس هناك شيء تفصيل أو معد سلفًا بصفة نهائية بقدر ما فاجأنى الصديق الشاب بسؤاله، فاجأته اجابتى. لذلك أخذ يمطرنى بسيل من الأسئلة، كيف تقول ذلك وأنت رجل أيديولوجى؟ وكيف تقول ذلك وأنت تقدس العمل السياسى المنظم؟

وكيف تقول ذلك، وأنت تدرك الطبيعة الطليعية للوعى الثقافى أولا، والتى تسبق الطبيعة الجماهيرية لهذا الوعى ثانيا؟ كيف تقول ذلك وأنت تعرف قدر المناضلين الطليعيين؟ ومدى تميزهم الشخصى والقيمى عن باقى الناس؟ وبعد هذه الأسئلة، رحت أوضح عبارتى. فقلت له: لقد أثبتت قراءاتى لى، وأثبتت خبرتى العملية، أن هناك انفصالاً حقيقيًا يأخذ تعبيرًا زمنيًا وفعليًا بين الواقع والتخيل. وفى الحياة تتقدم أو تتعثر، إذا جعلت الواقع هو الأصل، والتخيل هو الهدف أو المأمول، وأن المناضل بالفكر أو بالممارسة، هو الشخص الذى لا يهجر الواقع، ولا يهجر التخيل السامى، أو الحلم بالنموذج الأفضل، ولكن يدرك أن الفجوة بين الأمرين هى موضوع النضال، وجوهر الكفاح ومولد آليات الاستمرار والتواصل فى الحياة، فالصراع هو مولد الحركة، فمن أشد ألوان الخطأ أن تتصور أن الوصول لتبنى فكرة معينة، أو ايديولوجية معينة، يحتاج لقرار واحد، أو اجراء نهائى تتصور أنك اتخذته بمجرد انضمامك لهذه الفكرة أو المسيرة المرتبطة بها ذلك أنك فى كل يوم، بل وفى كل لحظة تحتاج الى قرارات أخرى لتأكيد اختيارك

المبدئى وتظل تحتاج لهذه القرارات حتى نهاية الحياة. وهذا الاحتياج المتواصل يبرز على صعيدين: الأول اجرائى أى حركى، والثانى: موضوعى أى يرتبط بالهدف، وحل المسألة المعلقة.

ورحت أشرح لصديقى الشاب، كيف أن الناس صنفان فى السياسة:

الأول: يدرك أن المصلحة العامة تتأسس على صراع المصالح المشكلة لها، وكلما خضعت السلطة للممارسة العامة، والرقابة العامة، كلما انتصرت فيها صفة العمومية وكلما كان الإنجاز أكبر، والأداء السياسى متميزاً، ومتجاوزاً معدلاته المفروضة عندها تكون السياسة متطابقة مع جوهرها، بأنها فعل العامة، لتحقيق المصالح العامة، وتكون السلطة العامة أقرب لطبيعتها، بأنها سلطة العامة.

الثانى: يفهم المصلحة العامة على أنها أمر مصمت، وذات طبيعة أحادية التكوين ومع افتراض حسن النوايا، يصير تصوره للمصلحة العامة، أنها مصلحته الشخصية، أو مصلحة الطاقم الذى ينتمى إليه فى ممارسة السلطة العامة، ويكون أى خروج عن هذا التصور هو خروج عن المصلحة العامة، وتظل تضيق الدوائر، حتى تنطبق على نقطة المركز، ويصير الكل فى واحد.

فعلى الرغم من أن أى مشتغل بالسياسة، ينطلق من تفضيل العام على الخاص فى حياته، فإنه يتصور أن ذلك يتطلب قراراً واحداً، هو ذلك القرار الذى بموجبه صار سياسيًا. وطالما قد اتخذ هذا القرار سابقًا، فلقد أصبح مفضلاً للعام عن الذاتى، ولكنه لا يدرك أنه يحتاج كل يوم لقرارات جديدة، تؤكد تفضيله العام على الذاتى، فإذا اكتفى بقراراه الأول، صار هناك تطابق بين العام والذاتى فى نظره.

وقلت لصديقى: فى المجتمع البدائى، أى مجتمع ما قبل الحضارة،

كانت الرابطة المُجمعة لهذا المجتمع تتأسس على رابطة الدم وذوى القربى، وكانت حياة الناس بسيطة، ولم تشهد بعد، التخصص الحرفى، فالناس عشيرة واحدة فى حيز مكانى واحد، يلاقون ذات الأخطار، ويحسون بها فى ذات اللحظة، إذن فالسلطة بينهم سلطة مباشرة، وسلطة عامة صماء ومندمجة، لذلك كانت مسئوليتها تؤول لكبار السن، أى الأكثر خبرة فى مواجهة الأخطار المتكررة وعندما أخذ المجتمع يتطور تطورت رابطته المجتمعية، وصارت رابطة الاقليم أى الأرض هى الأساس، فالعشائر من ذات القبيلة، والقبائل لها حرية التحرك على إقليمها الواحد، عندها سارت السلطة العامة، عملية منفصلة ومهنة مميزة وصارت أمراً مركباً واحتاجت من يمول عملية إدارتها، واحتاجت العنف فى اقرار أوامرها، أى نشأت الدولة المتحضرة، نشأت قرينة للتمايز الطبقى، وصارت لازمتها الوجوبية، السطوة والعنف، أى صار الاكراة لازمة الدولة بالمعنى السياسى للكلمة.

هنا يصير السؤال: من الذى يحكم على أحقية هذا العنف أو الاكراه؟ وإذا كان للمصلحة العامة؟ من الذى يحكم على مصداقية التوجه للمصلحة العامة؟

لابد أن تكون العامة، والا صرنا أمام الصنف الثانى من الساسة.

يقول فريدريك انجلز فى هذا الصدد فى كتاب أصل العائلة والملكية والدولة مايلى:

«إن الموظفين، إذ يتمتعون بالسلطة العامة، وبحق جباية الضرائب باعتبارهم هيئات المجتمع، يصبحون فوق المجتمع، فالاحترام الطوعى الاختيارى، الذى كان يعطى لهيئات مجتمع العشائر، لم يعد يكفيهم حتى فيما لو كان باستطاعتهم اكتسابه فهم إذ يملكون سلطة تغدو

غريبة عن المجتمع، إنما يتعين عليهم أن يسعوا إلى نيل الاحترام لأنفسهم بقوانين استثنائية، يتمتعون بفضلها بقداسة خاصة وحصانة خاصة، فلأحقر شرطي في الدولة المتمدنية سلطان يفوق سلطات جميع هيئات المجتمع العشائري معًا، ولكن لا يسع أقوى ملك، وأبر رجل دولة، أو قائد عسكري، من عصر الحضارة، إلا أن يحسد أبسط شيخ عشيرة، على مايلقاه من احترام أكيد لم يفرض بالعصا. فإن شيخ العشيرة هو في قلب المجتمع، بينما هؤلاء القادة، مضطرون لبذل الجهود لكي يمثلوا شيئًا خارج هذا المجتمع وفوقه.

وبما أن الدولة قد نشأت من الحاجة الى لجم تضاد الطبقات، وبما أنها قد نشأت في الوقت نفسه ضمن الاصطدامات بين هذه الطبقات. فهي كقاعدة عامة، دولة الطبقة الأقوى السائدة اقتصاديًا، والتي تصبح عن طريقة الدولة، الطبقة السائدة سياسيًا أيضا، وتكتسب على هذه الصورة وسائل جديدة لقمع الطبقة المظلومة واستغلالها، فإن الدولة القديمة، كانت قبل كل شيء دولة مالكي العبيد لقمع العبيد، والدولة الاقطاعية هيئة النبلاء لقمع الفلاحين التابعين والأقنان، كذلك الدولة التمثيلية الحديثة، هي أداة لاستغلال العمل المأجور من قبل رأس المال. ومع ذلك فثمة مراحل، كحالات استثنائية، تبلغ فيها الطبقات المتصارعة درجة من توازن القوى، تنال معها سلطة الدولة لفترة معينة نوعا من الاستقلال حيال الطبقتين، مظهر وسيط بينهما، هكذا كان الحكم الملكي المطلق في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، إذ كان يحافظ على التوازن بين النبلاء والبورجوازية في النضال القائم بينهما، وهكذا كانت البونابرتية في الامبراطورية الأولى، ولاسيما في الامبراطورية الثانية في فرنسا، اذ كانت تحرض البروليتاريا على

البورجوازية، والبورجوازية على البروليتاريا، وأحدث إنجاز فى هذا المضمار يبدو معه الحاكمون والمحكومون بالقدر نفسه، انما هو الامبراطورية الألمانية الجديدة ذات الأمة البسماركية، فهنا يحافظ على التوازن بين الرأسماليين والعمال المتضادين فيما بينهم، ذلك لأن جميعهم يتعرض بالقدر نفسه للغش والخداع لما فيه مصلحة الاقطاعيين «اليونكر» البروسيين ....».

الوقفة الثانية:

انقطعت علاقتى بالزميل مصطفى الفقى، منذ ذلك المساء فى يونيو سنة ١٩٦٧، وكان أول لقاء لى به يستأنف لقاءات سنوات الدراسة والزمالة فى مدرج من مدرجات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، أثناء مناقشة رسالة علمية لواحدة من الزميلات، وعندما توجهت نحوه هاشا باشا، قطع على هذا التواصل بايماءة من رأسه، وعرفت عندها، أنه صار مسئولاً سياسيًا كبيراً، ولاشك أن صداقتى تشكل عبئًا كبيراً على المسئولين، فأقفلت عائدا، وواعيا للدرس. وتواصلت العلاقة بيننا بايماءات الرأس كناية عن السلام، طوال وجوده على كرسى المسئولية. وبعد أن غادر مصطفى الفقى كرسى المسئولية، تلاقيت معه، فى ندوة للدكتور سعيد النجار، فى إطار عملى لإعلان «جمعية النداء الجديد» وعلى الرغم من أن الدكتور سعيد النجار أعاد على مسمعى نفس كلماته، التى كان يقولها فى سنة ١٩٦٤ بنفس الألفاظ والتعبيرات. فإنه اكد أنه لولا جو الحريات الحالى، ما استطاع أن يقول ما يقوله الآن.

ضحكت بصوت عال، وعلقت على الأمر بصوت مسموع، ووجهت سؤالاً باسمى عن تعبير الشمولية، وعلاقته بالاشتراكية. وعلاقة كل ما يطرح بالديمقراطية، التى تقر أول ماتقر التعددية، وأن

المطروح لا يعدو أن يكون تصوراً مصمتًا وإحادى الجانب، والتعددية الفعلية هى الضحية، لأن التعددية الفعلية هى التعددية الطبقية، وليست تعددية الممثلين لذات الطبقة.

بعد نهاية المحاضرة، جاء الَى الزميل مصطفى الفقى هاشًا باشًا، وعرفنى بزوجته وعرفها بى، وقال لها نبذة عن تاريخى، أردفها بسؤال محدد لى: هل مازلت اشتراكيًا؟ فأجبته نعم،. مازلت اشتراكيًا. فقال كيف، وقد سقطت الاشتراكية فى بلادها، ابتسمت وقلت له مبلغ علمى ان الاشتراكية نبت مصرى، والاشتراكية وجدت فى مصر قبل الثورة الروسية بعقود.. ضحك وضحكت. بعد شهور أصدر الزميل مصطفى الفقى كتابا بعنوان «حوار الأجيال» قام فيه بجمع ماكتبه من مقالات سياسية عبر ثلاثة عهود سياسية، وقدم لها بمقالة من ست صفحات، قال فيها: «لقد عرفت الانسانية عبر تاريخها الطويل كل أنواع الصراعات. بدءاً من الصراعات القومية وانتهاء بالصراعات الأيديولوجية، مروراً بصراع الطبقات وصراع المصالح، وغيرها من أشكال الصراع وألوانه، ولكن يبقى من بينها جميعا صراع الأجيال الذى يعكس وحدة سُنَّة التطور، وفلسفة الوجود، وتقدم الحياة: فهو الصراع بين القديم والجديد، بين الحداثة والعراقة.. إذ أن اندفاع البشرية إلى الأمام يولد بالضرورة من الاحتكاك الأزلى بين حماس الشباب وحكمة الشيوخ، فصراع الأجيال، هو دون غيره من الصراعات، صراع مشروع له أسبابه ومعه مبرراته، لأنه يمثل العلاقة بين البشر والزمن.. بين الإنسان وحركة التاريخ.. وكلها أمور تمارس تأثيرها على الانتقال بين الثوابت والمتغيرات، فبينما ترتبط، الأولى بمعطيات الوجود وحقائق الحياة، تنصرف الثانية إلى الآثار المستمرة

للفكر الإنسانى والإبداع البشرى. ومن التزاوج بين الاثنين تنطلق شرارة التطور، وتولد ارهاصات المستقبل، وكلما نظر الإنسان إلى ماضيه، وجد أن الاحتكاك بين ثوابته الشخصية، وتحولاته الفكرية، هو مبعث التطور فيه، ومصدر التغيرات فى ذاته.

لقد أردت لهذه الصفحات أن تكون حوار الأجيال لأنها تعكس بدقة ذلك الصراع المحتوم بين الفكر والانسان.. بين الرؤية والعصر.. وحقيقة الأمر أن فى مصر صراعًا حقيقيًا بين الأجيال، ولعل هذا النوع من الصراع بخلاف كل الصراعات الأخرى - يمثل ظاهرة صحية لا تدعو إلى القلق، ولكنها تحتاج إلى الاهتمام، لا تثير الخوف. ولكنها تتطلب اسلوبًا جديدًا فى التعامل. ان النسبة الكبرى من سكان مصر هم من الشرائح الأصغر سنا بين معدلات الأعمار، ومعظمهم من الشباب وطلائع الأجيال الجديدة، لذلك فإن مخاطبتهم تعنى بالدرجة الأولى مخاطبة غالبية أبناء مصر وتعنى أيضا توجيه رسالة مباشرة إلى أولئك الذين لم يشهدوا عصراً نتحدث عنه، ولم يعيشوا ظروفًا جاءت فيها هذه الظروف، ولعل ذلك يبدو واضحا من حالة التباين الشديد والاختلاف الواضح لدى الأجيال الجديدة تجاه زعامات مصر السابقة، وأسلوب تقييمها.

إن العصر الملكى عند معظمهم هو فساد كامل، وانحراف لم يتوقف، وعصر عبدالناصر هو عصر الدكتاتورية والسجون والمعتقلات، وعصر السادات هو عصر الانفتاح الاستهلاكى والتسيب والسطو على المال العام، بينما واقع الأمر يعكس صورة مخالفة لهذه التصورات المشوهة والمنقولة بلا وعى لغزو عقول أبنائنا، وتسميم أفكار شبابنا، فالعصر الملكى مثلا، لا يخلو من إيجابيات تدور حول مناخ ديمقراطى

نسبى، وحياة برلمانية لا بأس بها، ونمو فى مؤسسات الاستنارة، وإزدهار للحركة الفكرية والأدبية، كذلك فإن عصر عبدالناصر هو عصر التحرر الوطنى، وتأميم قناة السويس وبناء السد العالى، وانشاء الصناعات الثقيلة، كما أن عصر السادات هو عصر استعادة الحريات، والتركيز على دولة المؤسسات، وخوض معركتى تحرير الأرض وبناء السلام، فإن لكل عصر أيضا ايجابياته، ويجب ألاَّ نتحدث دائماً عن وجه واحد للعملة، أو النصف الفارغ من كوب المياه، فالسياسة صعود وهبوط نجاح واخفاق.. والشعوب تتعلم من آلامها، والأمم تصنعها المحن.. وتصهرها التحديات.

لقد أردت من نشر هذه المقالات والدراسات والمحاضرات كما هى دون تعديل فيها، أو تغيير لأفكارها وأسلوبها. أن تكون بمثابة صور حية نابضة لازيف فيها، ولا رتوش عليها.. حتى ولو كان ذلك بمنطق «اننى لا أكذب ولكننى أتجمل»! فقد أردت أن يعيش القارىء ظروف ماكتبت، وتوقيت ما تحدثت ولكن عليه فقط أن ينسب الكتابة أو الحديث إلى الملابسات التى نشرت فيها، أو قيل من خلالها».

وهكذا يختصر مصطفى الفقى كل الصراعات السياسية فى صراع واحد جانبى هو صراع الأجيال، ويختصر كل الأجيال، فى مراحل عمره هو وحده، ليقول أن لكل شىء ايجابياته وسلبياته. لقد قال الشاعر العربى فى يوم ما:

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

فحتى الشدائد والمرض لهما ايجابيات ولكن ما هى سلبيات وايجابيات السياسة، أو السلطة العامة، فى أى عصر، وبماذا تقاس؟، إن ايجابيات عصر ما، قد تكون بالنسبة لمجموعة من الناس كذلك، وتكون

لغيرهم هى عين السلبيات. وعندما قرأت كتاب مصطفى الفقى، أدركت مغزى سؤاله لى، هل مازلت اشتراكيًا بعد أن سقطت الاشتراكية فى بلادها؟

لأن الرجل أجاب عن سؤاله، بالنسبة لنفسه، عندما قدم لمقالاته وقال:

«لقد كتبت مثلاً فى منتصف الستينيات، أحاديث ايجابية عن الاشتراكية فى «مجلة الشباب العربى» وهى التى كانت تتوجه إلى جماهير الشباب فى الداخل والمبعوثين فى الخارج - برغم كل ما يردد عن الفكر الاشتراكى الآن من انتقادات حادة، وملاحظات قد يكون لها ما يبررها، خصوصا فى السنوات الأخيرة التى انهارت فيها رموز الاشتراكية، والنظم الشيوعية.. فإن الحديث وقتها - منذ قرابة ثلاثين عاما - كان له بريق لدى شاب لم يتجاوز العشرين إلا قليلا، وطبول النظام تدق من حوله صباح مساء.. تتحدث عن الكفاية والعدل والحرية والاشتراكية والوحدة، وتحذر من مخاطر الصهيونية والامبريالية والاستعمار.

كذلك فلقد جاءت بعض مقالات كتبتها فى عصر السادات تعبيراً عن واقع تلك المرحلة وظروفها والتطورات السريعة على الساحة العربية والقومية والخريطة الاجتماعية المصرية.. حيث تركزت آمال الملايين فى الرخاء بعد تحقيق السلام، والرفاهية عند توقف الحروب وكانت تلك هى الآمال الواسعة للجماهير العريضة فى عصر حاكم كانت لديه خلفية سياسية واسعة وأبعاد تاريخية معروفة.

فإذا جئنا إلى عصر الرئيس مبارك، فإننى أجد لزاما علىَّ لكى أكون واضحًا وأمينًا - أن أقول صراحة إن كثيراً مما قلت فى محاضرات عامة

كان مقيداً بقيود موقعي في مؤسسة رئاسة الجمهورية، برغم تزايد هامش الحرية المتاح للآخرين خارج المواقع.. وبعيداً عن المناصب. كذلك فإن حسابات كثيرة كانت تفرض نفسها على حدود حركتي لاعتبارات تتصل بقربي من صانع القرار. واطلاعي وقتها على كثير من مجريات الأمور.

وهكذا يكون المرء دائماً ابن ظروفه. ونتاج المواقف من حوله، وكلها اعتبارات أضع القارىء فيها معي منذ البداية، وحتى يرى تأثير مظلة الرعاية القومية والحماس الوطني على شاب في الستينيات. ثم آثار التحولات الضخمة على «دبلوماسي» في السبعينيات. وقيود الموقع على مسئول في الثمانينيات.

ولكن يبقى الخط العام قاسماً مشتركاً يؤكد دائما أنني قلت ما آمنت به وعبرت عما إقتنعت بوجوده.. في حدود طاقة البشر، بكل ما يعتريها من حماس وفتور.. من قلق وخوف.. من مشاعر وأحاسيس لا يخلو منها إنسان.. ولا يتجاوزها إلا الملائكة».

وحتى تكتمل تلك الوقفة، أخذت كتاب د. مصطفى الفقي، وذهبت به للشاب الذي استوقفتني أولا، وقلت له. خذ هذا الكتاب واقرأه، فهو أيضا يلخص حكمة حياة صاحبه. أخذه زميلي الشاب مني، وبعد يوم أو بعض يوم، وجدته وقد أسرع نحوي. وسألني بقسوة.. لماذا أعطيتني هذا الكتاب؟ قلت له لتقرأ خلاصة تجربة صاحبه في عبارات فأنت مولع بتلخيص الأمور.. أخذ الشاب يعاركني.. قلت له.. مهلاً.. لقد أعطيتك هذا الكتاب، لتدرك خلاصة فكري وتجربتي أنا.. نظر إليَّ الشاب مبهوتا.. ثم أطرق.. وتفارقنا صامتين.

وهكذا تكتمل ذكريات شبابي السياسية وتتداخل مع مواقف

حديثة نسبيًا، إلا أن جوهرها ينصب على ذكريات الأحداث المرتبطة بشخصي في الربع الثالث من القرن العشرين الميلادي. سطرتها بتلقائية تعكس التلقائية التي كانت عليها سنوات العمر في تلك المرحلة، والتلقائية لا تعني غياب الخطة أو العفوية ولكن أقصد بها، النعومة والسلاسة في دافعية المواقف والكتابة سواء فيما مضى، أو فيما هو جارٍ ومما لاشك فيه أن تجربتي تماست وتقاطعت مع تجارب أشخاص كثيرين غيري، يمتلكون النظر من زوايا أخرى غير الزاوية التي رأيت منها الأحداث، غير أن تعدد الرؤوس، لا ينفي وحدة التوجه العام لجيل جاء مع موعده ليستأنف مسيرة التيار الوطني العام، ذلك التيار التلقائي الحر - والتلقائية هنا لا تعني أيضا الأموال الطفرية أو الفجائية أو غير المنضبطة، بقدر ما تعني استقلالية المواقف وسلاستها لقد جاء الجيل الذي ننتمي اليه ليخلف جيلا كان قد نظمت جهوده، وبرزت الأطر والأشكال المنظمة لتستوعب حركته، سواء كانت الأحزاب، أو الأشكال الجماهيرية والديمقراطية، مما غيب لحد ما قوى وفاعليات التيار الوطني العام التلقائي، وإن قوى الجيل السابق على جيلنا قد جددت الأطر والأحزاب، لتدفع بقوى التيار الوطني العام لأن يأخذ مكانه ومكانته المميزة في تاريخ النضال الديمقراطي الوطني التحرري المصري في العصر الحديث، إلا أن قوى هذا التيار الوطني العام توقفت وكادت أن تؤوم في نطاق ثورة ٢٣ يوليو الوطنية، وتحت قيادتها الوطنية المقتدرة برئاسة الزعيم جمال عبدالناصر، فجاءت حركتنا لتعيد للتيار الوطني العام استقلاليته وتلقائيته وسلاسته، واستمر الفعل العام واضحًا ومحددًا لهذا التيار في الأوساط الطلابية والعمالية لعقد من الزمان من فبراير سنة ١٩٦٨ حتى يناير سنة ١٩٧٧.

بعد ذلك انكسر هذا التيار واختفى، وربما مثلث الأحزاب إطاراً لتعويضه غير أن الأمور ليست على ما يرام فى هذا المجال، وجاءت الرياح بما لا تشتهى السفن. ويبدو أن التجربة الحزبية فى مصر الحديثة غير ذات أثر مهم وجوهرى، فالتيار الوطنى العام هو الذى خلق وأدار الثورة العرابية، حتى تأطرت فى حزب واحد فقد بعد ذلك دوافع وآليات حركتها الثورية. ثم قام التيار الوطنى العام المستقل ببعث وادارة ثورة سنة ١٩١٩ حتى تأطرت فى حزب فقد بمرور الوقت دافعية وآليات العمل الثورى. وجاءت أحزاب ماقبل سنة ١٩٥٢ لتقدم تجربة متهالكة، وغير قادرة على التغيير الثورى، حتى جاء التيار الوطنى العام وبعث ثورة سنة ١٩٥٢ وأدارها، حتى تأطرت فى أشكال حزبية جماهيرية مهترأة صارت أدوات بيروقراطية ومعادية للثورة، ثم جاءت الأحزاب فقدمت تجربة تبينت عجزها الواضح والفاضح، سواء بفعل خارجى مفروض عليها من قبل السلطة، أو سواء بفعل داخلى مفروض عليها من قبل قوى البيروقراطية الحزبية، التى تتصارع على الامتيازات والمصالح الذاتية، بطاقة تفوق آلاف المرات تصارعها مع القوى الرجعية، والقوى المهيمنة على المجتمع.

إن استمرارية التغيير تحتاج مرة أخرى إلى انبعاث قوى التيار الوطنى الديمقراطى العام المستقلة عن الأحزاب وليس عن الفكر والتيارات والمدارس السياسية ـ فهل يملك جيلنا دور فى ذلك؟ أو أن هذا الأمر صار من مهام أجيال تالية! تلك هى القضية، غير أننى أعلم أن الأمر فى السياسة. ليس أمر أجيال، فستظل السياسة دائما: سياسة تقوم على الطهر والبراءة والشفافية، المبادىء فيها تعلو على أى شىء، حتى لو كانت دواعى المساواة المحسوبة، والتى قد يختارها الثورى مكرهًا أمام

فكرة «فن الممكن» وهذه السياسة ترادف النضال الفردى والجماعى من أجل مصالح الأوطان والشعوب، والمصالح الجماعية لها، وسياسة أخرى تقوم على المؤامرة والمناورة، هدفها الرئيسى تكريس مصالح القلة، والتستر عليها، وإبرازها على أنها مصالح عامة، هنا نجد أن زاد هذه السياسة التنافس والتقاتل، وجمع المال والمناصب، وأهم ما يبذل فيها هى الكلمات الطنانة والجوفاء، والأفعال التمثيلية، والدرامية الكاذبة.

ورغم انقضاء سنوات الشباب، ورغم استرجاع حكمة الشيخ الإمام محمد عبده: لعن الله السياسة، وساس، ويسوس.. ورغم عدم تفضيل عبدالناصر لتوريث السياسة لأولاده لما تجره عليهم من شقاء، فإننى مازالت أومن أن البراءة السياسية، هى أصل السياسة، فالسياسة كانت ومازالت وستظل، جهد العامة، لتوجيه السلطات العامة لخدمة المصالح العامة للشعوب والأوطان. هكذا أدركت السياسة دوما، ولن أعدل عن فهمى هذا ما حييت، فالحرة لاتأكل بثديها، تلك كانت حياة العرب حتى فى الجاهلية، ولا أظنها قد تبدلت فى هذا الصدد حتى الآن. البراءة.. ثم البراءة.. ثم البراءة السياسية كانت ذكريات الشباب، وسوف تكون، كما كانت مسيرة المستقبل بالنسبة لى، حتى يسترد الله وديعته فى، فلتهدأ روح أبى وروح أخى محمد، ولتستقر أرواح محمد خليل قاسم، وزكى مراد ابراهيم إنهم جميعًا من نسجوا لى ثوب البراءة السياسية، الذى لن أنضوه عنى ما حييت.

أحمد عبدالحميد شرف

تمت كتابة هذا الكتاب
فى القاهرة بين ١٢ / ٤ / ١٩٩٥ ، ٢٥ / ٥ / ١٩٩٥

الفهرس

الإهداء ٥

مقدمة عامة : الذات والموضوع ٧

شهادة شبابية عن الستينيات ١٩

الفصل الأول : تلقائية الإعداد والتكوين السياسى ٢١

الفصل الثانى : الانخراط والمشاركة السياسية بتلقائية ٥٨

الفصل الثالث : الاختيار السياسى وإدراك الصراعات ١٠٥

الفصل الرابع : مظاهرات العمال والطلبة فبراير ١٩٦٨

واستئناف التحرك الجماهيرى المستقل ١٥٠

الخاتمة : وأصبحت اشتراكيًا ٢٠٠

من قائمة الإصدارات

موسوعة تاريخ حضارات العالم	ترجمة : زينات الصباغ
أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث	صلاح زكى
حوارات الزمن الصعب	محمد همام
رسالة إلى العقل العربى "مدخل إلى فلسفة عربية للعلم"	د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
المياه فى الوطن العربى (الندرة .. التلوث)	عبد الحكيم بدران
صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)	شعيب عبد الفتاح
عالم المعلومات الجديد	ديرتوزوس ترجمة : بهاء شاهين
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغنى
صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
خفايا المستقبل إلى أين تمضي البشرية وأين موقعنا	محمد الحديدى
بدائل العولمة (طروحات جديدة لتجميل وجه العولمة القبيح)	د. سعيد اللاوندى
عبد الرحمن بدوى فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام	د. سعيد اللاوندى
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية	عبد الله العقالى
العرب وإسرائيل .. ميزان القوى ومستقبل المواجهة	د. محمد عبد الشفيع عيسى
السلام الإسرائيلى (قراءة فى المشروعات الاسرائيلية)	حسين معلوم
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل إلى مابعد باراك)	إكرام عبد الرحيم
مشروع للانتحار القومي !	مصباح قطب
السلام الفتاك (سلام أشد هولاً من الحروب)	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
في جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
الملف السري للسادات والتطبيع	شفيق أحمد على
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الاستيطان الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الإرهاب الأمريكي	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
حماس .. حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبد القادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة	جورج المصرى
أساطير التوراة	عاطف عبد الغنى
التناقض في تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين

الاختراق الإسرائيلى لمصر	طارق رضوان
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بديوى
اختراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات	يوسف هلال
جماعات المصالح المصرية والسلطة السياسية	د. أحمد فارس
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية	جما ل غيطاس
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولى	د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكى	د. السيد عوض
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة باحثين
حلايب .. نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
التعريب فى الجزائر (كفاح شعب ضد الهيمنة الفرانكفونية)	د. عثمان سعدى
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)	د. أحمد ثابت
إعدام صحفى	سعيد حبيب
الإخوان والأمريكان من المنشية إلى المنصة	حمادة إمام
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح
الوحدة اليمنية	حسنين كروم
عبد الناصر والذين كانوا معه	حسن قدرى
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم
المرأة التي أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
ظل الرئيس (مذكرات محمود الجيار مدير مكتب ناصر)	عزازى على عزازى
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصري (قراءة في أوراق التنظيم الناصرى)	سيد زهران
عن الناصرية والناصريين (حوار مع د. الأتاسى)	مجدى رياض
الأقليات التاريخية في الوطن العربى	د. أحمد الصاوي
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية .. الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة في النموذج الناصرى	جورج المصري
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصرى
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري
أسرار وخفايا ثوار يوليو	محمد متولى

بالإضافة إلى: كتب متنوعة: سياسية - قومية - دينية - أدبية - معارف عامة - تراث - أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز